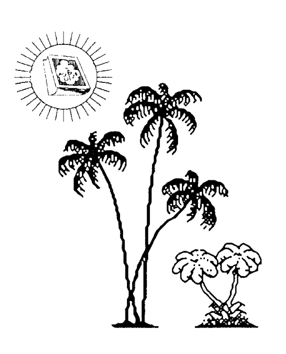
صفقات رابحة

كيف تحجز مقعداً في الجنة ؟!



د. خالد أحمد أبو شادي

دار البشير للثقافة والعلوم

دار البشير للثقافة والعلوم

إسم الكتـــــاب : صفقات رابحة (كيف تحجز مقعداً فى الجنة).
التـــــأليف: خالد أبو شادى .
الصف التصويرى : الندى للتجهيزات الفنية .
عدد الصفحات : 208 صفحة.
قياس الصفحة : 17 × 24
عدد الطبعات : الطبعة الأولى .
التوزيع والنشر : دار البشيـــر للثقافـــة والعلـــوم .
تليفون : 040/2120907 تليفاكس : 040/3316316
القاهرة تليفاكس : 002/022703648
Dar elbasheer@hotmail.com
الإيداع القانونى : 14550 / 99
الترقيم الدولى : I.S.B.N-977-278-146-8

1428 هـ
2007 م

الإهداء

إلى من أجاب النداء .. ورفع اللواء

هذه جنة الخلد تمشي على الأرض بين يديك

والحور تهتف في الأسحار تهيم شوقاً إليك

ورحمات ربك المنزلة تعرض نفسها عليك

وصوت الحادي ينادي :

الدنيا ميناء يتزود منه المسافرون إلى الجنة أو إلى النار

إيمان لا يتبعه عمل هباء

وشراء الجنة دون دفع الثمن هراء

الرحلة لا تمتد على طريق الكسل

والقافلة ليس من زادها طول الأمل

أظهر لله من نفسك قوة .. أقر عين نبيك في قبره

جد في غيظ عدوك الذي أخرج أبويك من الجنة

ادفع ثمن الصحبة إن أردت فإن مجالسة النبيين في الجنة غالية

كحل عيونك بالسهر .. وأسرج جوادك للسفر[1]

واعلم أن هجر الوسادة ثمن السيادة .

اصدق مع الله ولو مرة وسترى العجب

أنت مدعو على موائد الكرم الإلهي والأجر الرباني

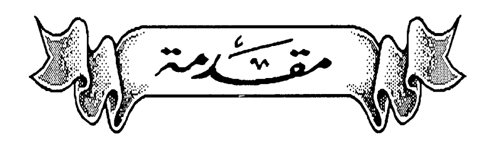
وحق على المزور أن يكرم زائره

مرحبا بك .

شكر وعرفان

إلى أبي الذي أخذ بيدي إلى طريق الدعوة
وإلى أمي التي غمرتني حبًّا وعطفًا وحنانًا
رجاء أن أنال رضاهما عني
فيرضى الله ويتفضل بالجنة





إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشداً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

أما بعد . . فقد أنعم الله عَلَيَّ بمنحة فى صورة محنة ، خلوت فيها إلى نفسى لأخط هذه الصفحات ، والتى أسميتها (**صفقات رابحة**) ، وهى عبارة عن فصول فى مدرسة الترغيب والترهيب ، تلك المدرسة التى تعد من أنجح المدارس فى تقويم النفس ودرء عيوبها وحثها على بذل الطاقة واستفراغ الوسع فى طلب الجنة وحرث الآخرة ، ولولا هذه المدرسة لكانت القلوب رقعة خربة فى غياب رى الإيمان وبواعث الهدى .

قال **يوسف بن أسباط** : خلقت القلوب مساكن للذكر ، فصارت مساكن للشهوات ، ولا يمحو الشهوات إلا خوف مزعج أو شوق مقلق »[1] ، وفى هذا السياق يجىء هذا الكتاب ليحقق هذا الهدف ، وقد عرضت فيه إلى صفقات رابحة مبينًا أرباحها أى ثوابها ، وتسهيلات تنفيذها أى ما يعين النفس على أدائها ، وشروطها الجزائية المترتبة على تركها أى الخسارة التى يتكبدها من ينام عنها .

وتظهر أهمية هذا الكتاب فى أنه لما كثرت مجالس اللغو ، وتشعبت مسالك الهوى ، وطغى عصر المادة ، وتاهت السكينة الإيمانية وسط الزحام ، وعم الضجيج وقيس الرجل بغناه ، ووزن الخاطب بماله ، وانشغل هذا بداره وذلك بديناره عن آخرته وماله ، ووقتها اشتد الظمأ ، وأوشك الناس على الهلاك ، وتعطشوا إلى سماع هتاف : (هيا بنا نؤمن ساعة) . . هتف به عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، وعبقته نفحة إخلاص فوصل لنا شذاه عبر مئات السنين ، وما صفقاتنا الرابحة إلا صدى صوت ابن رواحة ، يتردد بين جنبات الأوراق ليصل إلى أعماق الأعماق عسى القلوب تحيا والهمم تنهض والعزائم تستعر ، المرعى أخضر لكن العنز مريضة ، فلو تجرعت جرعة دواء لأذن

---

(1) سير أعلام النبلاء (9/ 170) شمس الدين الذهبى ط مؤسسة الرسالة .



الله لها بالشفاء ، أرباحنا ثمينة داستها أقدام الجُهال ، وعجز عن التقاطها مشلولو التقى ، وعمى عن رؤيتها مكفوفو الهدى .

وهو كتاب يتوجه أول ما يتوجه إلى الشباب ذكراناً وإناثاً وذلك لاعتبارات عدة :

* منها أن الشباب يمتاز عن غيره بأنه أصفى ذهنا وأقل انشغالاً وأقوى صحة وأمضى عزيمة « فالشمس لا تملأ النهار فى آخره كما تملؤه فى أوله ، وفى الشباب تصنع كل شجرة من أشجار الحياة أثمارها ، وبعد ذلك لا تصنع الأشجار كلها إلا خشباً »[1] .

* ومنها أن من شب على شىء شاب عليه ، فالتعليم فى الصغر كالنقش على الحجر ، وقل عادة اعتدتها فى صغرك فارقتها عند كبرك ، فأنت فى شبابك تملك القوة البدنية والروحية التى تستطيع بها غرس الفضائل فى نفسك غرساً يستعصى على الاقتلاع منهما طال بك العمر وتغيرت الأحوال .

* ومنها أن هذه المرحلة العمرية ستكون موضع سؤال فى اختبار الآخرة لابد له من إجابة : . . وعن شبابه فيم أبلاه ، وهى مع ذلك سريعة الانقضاء كمثل البرق الذى يضىء يسيرا يسطع بالنور ، ثم يذهب فجأة ويرجع بالظلام ، أو كمثل سحابة الصيف التى لا تلبث أن تنقشع سريعاً .

* ومنها أن الشباب صار هدفاً لشياطين الإنس والإجن ، وحقل تمارب لمحاولات إفسادهم وتضليلهم ، يريدونه قوة مهملة فى غياب الإيمان مؤاخيا آثامه عاشقا أوزاره ، ضعفه فى بره ، وعزمه فى غيه ، يريدونه قرداً يقلد الغرب فى كل خصاله إلا الفضائل ، وتلميذا يتتلمذ على يد إبليس ثم يرتقى فى سلم الإبليسية إلى أن يصبح أستاذاً لإبليس .

ومن هنا فقد كتبت هذا الكتاب لشباب الإسلام الصاعد وعرقه النابض وأمله الوثاب ليكون لهم بمثابة شهر صوم . . بتصفح صفحاته تفتح للخير أبواب وتغلق للشر أمثالها ، وبقراءة كلماته تصفد شياطين الإنس والجان ، وتتنزل ملائك الرحمن وتظلنا سحائب الغفران ، فإذا بمن نظر فى الكتاب يقول بعد ثبوت رؤية هلال الهدى : اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام ، وبانقشاع الظلام وبزوغ الفجر يرتفع صوت المؤذن معلناً عهد جديد ، أهم ملامحه :

إمساك عن المحارم ، وصيام عن الآثام ، واستغفار فى الأسحار ، وانتظار للأذان

---

(1) وحى القلم (2/ 231) مصطفى صادق الرافعى ط دار المعارف .



بالأشواق ، وتهافت على تكبيرة الإحرام ، ووله بالصف الأول ، وهتر بالذكر وكلل للحلال ، وملازمة للكتاب ، ومعانقة للسنة ، وتلمس لمجالس الصالحين ، وتنافس فى الخيرات ، ويستمر موسم الصوم قائما إلى أن تؤذن شمس الحياة بالمغيب ، حينها يفطر الصائمون على صوت أذان ندى ، ترفعه على أسماعهم الملائكة تزف لهم البشرى : ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت : 30] ، ليجدوا فيها موائد الإفطار فى الإنتظار : ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر : 55] .

هذا الكتاب صيحة تنادى فيك : قم واصح يا نائم لتوحد الدائم ، الصلاة خير من النوم ، والتجلد خير من التبلد ، العالى يرجو المعالى ، والدون يقنع بالدون ، من وجد وجد ومن زرع حصد ، جنة الفردوس تبغى ثمنا ، ومهور العين ما كانت يوما رخيصة .

هذا الكتاب ومضة أمل تسرج لك مصباح نور فى ظلمة يأس فتبدده ، وسفينة هداية ترفع لك لواء رشد فى متاهة غى فتهديك ، وتمد لك طوق النجاة لتتشبث به قبل أن يبتلعك طوفان الحياة ، ولا يزال الأمل قائما ما دام فى القلب خفقة من حياة وفى الصدر أنفاس تتردد ، وفى الجسد عرق ينبض ، وفى الأجل لحظة عمر باقية

هذا الكتاب صفحة جديدة تطوى صفحات قديمة ، طالما سطر فيها ملك السيئات بقلمه ، وآن له الآن أن يستريح ويفسح المجال لملك الحسنات ، يسطر صالح الأعمال لترفع الصفح بيضاء مسفرة ، بعد أن ظلت دهرا ترفع سوداء ، مظلمة .

هذا الكتاب علامة حب واصطفاء فلا يرشد الله إلى طريقه إلا من أحب ، ولا ييسر سبل الهدى إلا لمن اصطفى لذا يهدى لقراءة الكتاب من شاء له الخير فى الكتاب .

فخذه منى ـ أخى القارئ ـ أعواد ريحان زكية الرائحة ، يفوح شذاها من بين الأسطر والكلمات ، طوفت فى بساتين القرآن وحدائق السنة وروضات السلف ، وقطفتها لك فاقبل رياحينى فإن النبى ﷺ قال : « من عرض عليه ريحان فلا يرده ، فإنه خفيف المحمل ، طيب الريح »[1] .

وقبل تقليب الصفحات وتدفق الكلمات أستجلب رحمات الله واستمطر بركاته ويلهج لسانى بالدعاء :

---

(1) رواه مسلم وأبو داود عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (6392) .

• **اللهم** . . افتح بهذا الكتاب آذانا صما عن آياتك ، وقلوبا غلفاً عن أنوارك ، وأعينا عمياً عن آثار قدرتك .

• **اللهم** . . استعمل بسببه أبدانا فى طاعتك ، وأقداما فى خدمتك ، وألسنة فى ذكرك .

• **اللهم** . . داو به قلوبا أعيتها كثرة الذنوب ، ونفوساً أفسدها طول الركود ، وانتشلنا به من آبار غفلاتنا ، ومهاوى شهواتنا ، ومصارع أهوائنا ، أنقذنا به من أنفسنا التى بين جنوبنا ، وادفع به عدواً يتربص بنا فى صباحنا ومسائنا ، وقوّ به بواعث الإيمان الدفين فى أعماقنا ، واجعله حجة لنا بين يديك ، تشهد بصدق العبودية لك ، وإخلاص التوجه إليك ، وبذل الأوقات فيك .

• **اللهم** . . لا تعذب عبداً أرشد العباد إليك ، ودلهم عليك ، وحببهم فيك ، واختم لنا السعادة أجمعين . .

اللهم آمين ...

الفقير إلى عفو ربه
د/ خالد أحمد أبو شادي







الصفقة الأولى

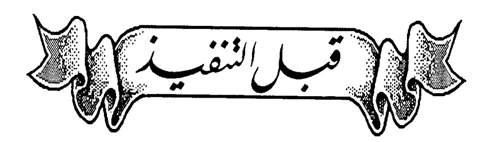
لا تتبع النظرة النظرة



أعد العدو عدته ، وأخذ أهبته ، ووتر سهمه في كبد قوسه ثم أطلقه فأصاب الهدف ، وما هي إلا لحظات .. حتي سري السم إلي الجراح ، فصارت جوارح .. اللسان تكلم ، والقدم سعت ، والجسد انتفض ، ودارت العجلة :

نظرة .. فابتسامة .. فسلام ..
فكلام .. فموعد .. فلقاء ..





• مهم :

♥ **لأن** : النظرة سهم مسموم فأثرها يستمر وإن غاب المنظور إليه ، تشغل فكراً فتورث هماً ، وتبذر شهوة فتنبت هوى ، شأنها شأن السهم المسموم ، فإن السم يظل يسرى منه إلى الجسم وإن نُزع السهم من موضع الإصابة .

♥ **لأن** : هيبة الله فى القلوب قلّت ، والجرأة على محارمه زادت ، وتكرار النظر إلى الفواحش أورث القلب بلادة فى الإحساس واستئناساً بالذنب وإدماناً له وفرحاً عند الظفر به .

♥ **لأن** : أشباه يوسف قلوا ، وعدُوّات الحور العين أطللن من شاشات التلفاز وصفحات الجرائد والمجلات وأخوات امرأة العزيز عجّت بهن طرقات المدينة ، فى حصار يشبه ما فعلته أختهن من قبل ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ﴾ [يوسف: 23] وأبرزت كل واحدة منهن مفاتنها وكشفت ما استتر من زينتها ، ولسان حالها يقول للشباب : ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف : 23].

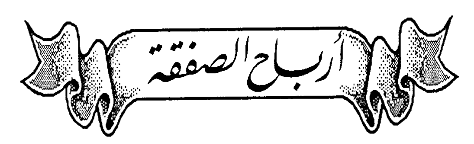
♥ **لأن** : المرأة أقوى أسلحة الشيطان وأفتكها ، فإنها إذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان ، وما ترك النبى ﷺ فتنة أضر على الرجال من النساء ، وإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء ، وهذه كلها إنذارات من صاحب الرسالة ، وقد أعذر من أنذر .

♥ **لأن** : الشهوات استعرت ، والعورات انكشفت ، وتجارة الجسد راجت ، والحرام أطل برأسه ، والحياء صار سلعة نادرة وطريق الحرام بات ممهداً ، ووضعت العراقيل فى طريق الحلال ، وارتدى المنكر ثياب المعروف ، وأطفئت النار بمزيد الحطب ، واختلط الحابل بالنابل ، وصارت ظلمات بعضها فوق بعض .









(1) نشوة الانتصار :

استشعار حلاوة الإيمان ولذة المجاهدة وعاقبة الصبر وفرحة الانتصار على بواعث الشهوة ورسل الهوى ، وهذه هى سيماء الرجولة الحقة والشجاعة الخارقة : سمو عن دنايا ، وتطهر من أدناس ، وتحرر من استرقاق، ونهضة للمعالى :

ليس الشجاع الذى يحمى مطيته ... يوم النزال ونار الحرب تشتعل
لكن فتى غض طرفا أو ثنى بصرا ... عن الحرام فذاك الفارس البطل

ولهذا فسّر **سفيان الثورى** قول الله تعالى : ﴿وَخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : 28] ، بقوله : « المرأة تمر بالرجل فلا يملك نفسه عن النظر إليها ، ولا ينتفع بها ، فأى شىء أضعف من هذا ؟ » (1).

لكن قوىّ الإيمان يملك نفسه ويحزم أمره فيغض من بصره ، لهذا استحق حب الله والوصف بالخيرية على لسان خير البرية ﷺ الذى قال : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » (2).

(2) الفراسة الصادقة :

تظل الفراسة الصادقة منزلة إيمانية محتكرة لمن غض بصره ، محجوزة له لا يزاحمه فيها إلا مثيله ، وهى التى تميز بين الصادق والكاذب بين المحق والمبطل بين الباكى والمتباكى ، وهذه أهم ثمار غض البصر وأجلها ، قال **شاه بن شجاع الكرمانى** : « من عَمّر ظاهره باتباع السنة ، وباطنه بدوام المراقبة وغض بصره عن المحارم وكف نفسه عن الشهوات ، واعتاد أكل الحلال لم تخطىء له فراسة » (3).

ويبين **ابن القيم** السر فى هذا فيقول :

(1) ذم الهوى ص (78) - ابن الجوزى - ط دار الكتب العلمية .
(2) رواه مسلم وأحمد وابن ماجة عن أبى هريرة، وحسنه الألبانى فى ص ج ص رقم (6650) .
(3) إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان ص(59) - ابن قيم الجوزية - ط مكتبة الدعوة .

وسر هذا أن الجزاء من جنس العمل ، فمن غض بصره عما حرم الله عليه عوَّضه الله من جنس ما هو خير منه ، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات ، أطلق الله نور بصيرته وقلبه فرأى به ما لم ير من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله تعالى ، وهذا أمر يحسه الإنسان من نفسه ، فإن القلب كالمرآة والهوى كالصدأ فيها ، فإذا خلصت المرآة من الصدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هي عليه ، وإذا صدئت لم تنطبع فيها صور المعلومات فيكون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون» [1].

كان **عثمان بن عفان** رضي الله عنه علماً من أعلام الفراسة وشيخاً من شيوخها ، استحيا من الله فاستحيت منه ملائكة الله ، وغضَّ طرفه عن الآثام فأورثه الله فراسة يكشف بها كل من أطلق بصره ظاناً أن أحداً لن يعرف من أمره شيئاً ، فإذا بعثمان يعلم ويكشف لا ليفضح بل لينصح ، دخل عليه رجل فقال له عثمان : يدخل على أحدكم والزنا في عينيه ، فقال : أوَحْيٌ بعد رسول الله ﷺ؟! فقال : «لا ، ولكن فراسة صادقة» [2].

(3) حماية القلب من شيطان يتسلل :

القلب بيت والعين بابه ، ولا يدخل لص البيت إلا والباب مفتوح ، فإذا دخل سرق حلية الإيمان وجوهر التقوى ، وترك القلب خراباً في خراب ، فاحذر هذا اللص فإنه خفيف الحركة تكفيه لحظة واحدة ليتسلل ـ لحظة واحدة فقط ـ ولهذا لما سئل النبي ﷺ عن نظر الفجأة قال : « اصرف بصرك» [3].

أي أحكم إغلاق الباب وضع عليه حراسة أمن مشددة من جنود المراقبة ، ولا تفتحه ولو لحظة واحدة، عندها يدب اليأس إلى قلب إبليس فيرجع خائباً ويتركك سالماً .

ولما وقع النزاع بين القلب والعين واتسعت هوة الخلاف بينهما ، كل منهما يلقى باللائمة على الآخر فيما حل من سقم ومن ألم تحاكما إلى الجسم الذي حكم بإدانة العين :

قلبي يقول لطرفي : هجت لي سقما ... والعين تزعم أن القلب أنكاها

والجسم يقسم أن العين كاذبة ... هي التي هيَّجت للقلب بلواها

(1) السابق ص (60) .

(2) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص (43) - ابن الجوزية - ط مكتبة المدني .

(3) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن جرير بن عبد الله كما في ص ج ص رقم (1014) .

لكن العين رفعت القضية للاستئناف فتم عرض النزاع مرة أخرى ، وبعد المداولة أصدر القاضى حكماً بالإدانة لكليهما ، وجاء فى حيثيات الحكم : العين والقلب شريكان فى جريمة قتل واحدة تقاسما فيها الأدوار :

أنـا مـا بـين عـدويـن   هـمـا قلـبى وطـرفـى

ينظر الطرف ويهـوى الـ   قـلـب والمقصـود حتفـى

(4) اجتماع القلب على الله :

يقول ابن القيم فى إحدى فوائده : إطلاق البصر ينقش فى القلب صورة المنظور ، والقلب كعبة ، والمعبود لا يرضى بمزاحمة الأصنام (1) .

لأن القلب الذى تنقش على جدرانه صورة الحق تنمحى فيه صورة الخلق ، فلا يعود يرى سوى ربه ، ولا يهمه إلا رضاه ، وذلك فى سائر أحواله فى سر وجهر أو جد وهزل فى حديث أو صمت فى حل أو ترحال ، وهذه هى البصمة التى يتعارف فيها الصالحون وسط الزحام ، أو هى العقد غير المكتوب الذى وقعت عليه ضمائرهم ونفوسهم ، وأمثال هؤلاء جعلوا الهموم هماً واحداً ، فأحسوا بحلاوة المناجاة ولذة الخشوع ونعيم السير على منهاج رب العالمين ، فوصلوا بينما غيرهم يشكو التيه .

نضرب لذلك مثلاً : مسافر قصد سفراً وحدد وجهته ، فحزم متاعه وأعد زاده واستفرغ الجهد والطاقة فى السير الحثيث ، مصطحبًا معه عزمه وتصميمه على بلوغ الوطن ، وهو مع هذا يحذر كميناً على هيئة زهرة زاهية الألوان فوّاحة العبير تعرقل سيره فتؤخره عن الوصول ، فإن استمر على عزمه ويقظته وصل وطنه بأسرع وقت وأتم عافية ، أما إن خُدع وسقط فهذا كيف يصل ؟! زمان التزود قصير ما يحتمل التأخير فكيف بمن نام فيه ؟! وقت الرحلة لو بذل كله فى المسير خيف عدم الوصول فكيف لو تناولته أيدى البطالة ؟!

فالوطن : الجنة ، **والكمين** : النظرة ، **والمسافر** : أنت .

استهوى عالم الحيوان **ابن الجوزى** فأخذ يراقب ما فيه عن كثب ، وضرب مثلاً آخر منه ليزيد الصورة وضوحاً لمن يشكو عدم الفهم وانخفاض مستوى الذكاء ، فقال :

(1) الفوائد ص (89) - ابن الجوزية - ط دار النفائس .

« تأملوا إلى الفرس ، إذا قدم إلى الماء الصافى كيف يضرب بيديه فيه حتى يتكدر أتدرون لم ؟ لأنه يرى صورته فى الماء الصافى وصورة غيره ، فيكدره حتى لا يتبين فيه الصور فيتهنى بالشرب »[1].

(5) بركة الطاعة :

أمر الله عباده المؤمنين بالغض من الأبصار ، لأن صاحب الصنعة أدرى بصنعته ، والآمر بإصلاح النفوس والقلوب أعلم بما فيه صلاح النفوس والقلوب، وأهل التقوى والمغفرة خبير بالطرق الموصلة إليهما ، من ذا الذى لبى نداءه فما سعد ؟! من ذا الذى أناخ ببابه فما فاز ؟! من ذا الذى أجاب داعيه فما رضى ؟! من ذا الذى ذل له فما عز ؟! من ذا الذى تاجر معه فما ربح ؟!

قال عز وجل : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور : 30]

قال الإمام الحجة أبو حامد الغزالى : "واعلم أنى تأملت هذه الآية فإذا فيها مع قصرها ثلاث معان عزيزة : تأديب وتنبيه وتهديد :

فأما التأديب : فقوله تعالى ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور : 30]، ولابد للعبد من امتثال أمر السيد والتأدب بآدابه ، وإلا كان سيىء الأدب فيحجب فلا يؤذن له فى حضور المجلس والمثول بالحضرة ، فافهم هذه النكتة ، وتأمل ما تحتها فإن فيها ما فيها .

وأما التنبيه : فقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور : 30] ، وينطلق على معنيين والله أعلم ، الأول : ذلك أطهر لقلوبهم ، والزكاة : الطهارة، والتزكية : التطهير ، والثانى : ذلك أغنى لخيرهم وأكثر ، والزكاة فى الأصل : النمو ، فنبه على أن فى غض البصر تطهيراً للقلب وتكثيراً للطاعة ، والدليل على ذلك أنك إن لم تغض بصرك وأرخيت عنانه تنظر فى ما لا يعنيك ، فلا تخلو من أن تقع عيناك على حرام ، فإن تعمدت فذنب كبير ، وربما تعلق قلبك بذلك فتهلك إن لم يرحم الله تعالى .

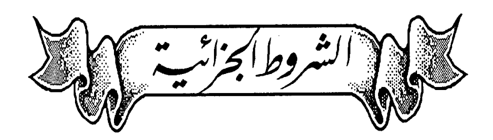
وأما التهديد : فقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور : 30] [2]

---

(1) المدهش ص (426، 427) - ابن الجوزى - ط دار الكتب العلمية .

(2) منهاج العابدين ص (31) - أبو حامد الغزالى - ط دار إحياء الكتب العربية .





يقول **أبو حامد الغزالى** : " لو أن يهودياً أخبرك فى ألذ أطعمتك بأنه يضرك فى مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه ، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى فى كتبه المنزلة أقل عندك تأثيراً من قول يهودى يخبرك عن حدس وتخمين مع نقصان عقل وقصور علم ؟! " (1) .

إخوتاه . . هل تعلمون أن إطلاق البصر من أوسع مداخل الشيطان ، فإن البصر جارحة لا تملأ بخلاف البطن فإنه متى امتلأ لم يبق له فى الطعام إرادة ، وأما العين فلو تركت لم تفتر من النظر أبداً ، وتكون النتيجة الحتمية :

(1) احتلال القلب :

قلب الإنسان لا يتسع لشريكين : نور وإلا ظلمة ، ملك وإلا شيطان ، هداية وإلا غواية ، إذا غلب جند الإيمان فى القلب كانت نوازع الخير وأنوار الهدى وأدوية الطاعات ، وإذا غلب جند إبليس كانت نوازع الشر وآفات الهوى وسموم المعاصى .

وبالنظرة يدخل جند الشيطان القلب ليجاور جند الإيمان ، لكن الشيطان ملحاح طماع لا يقبل الشراكة ، فيظل يتربص ويغوى ويفسد : يلقح النظرة بأخرى إلى أن يحتل نسله القلب كله ، ويرفع على أرجائه راية النصر ثم يقدم الشكر لمن يستحق : النظرة .

قال **ابن سمنون** : "أما سمعت قول النبى ﷺ : «إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة أو تمثال !!» فإذا كان الملك لا يدخل بيتاً فيه صورة أو تمثال ، فكيف تدخل شواهد الحق قلباً فيه أوصاف غيره من البشر ؟! " (2) .

والصلة بين العين والقلب جد وثيقة ، فالعين ماء تصب فى خليج القلب ، فإن تكدر صفوها بفضول نظر أو صورة محرمة تكدر الخليج وتغير طعمه ، فلا يقربه ملك يلهم بل شيطان يغوى .

(1) إحياء علوم الدين (442/4) - أبو حامد الغزالى - ط دار إحياء الكتب العربية .
(2) ذم الهوى ص (71) .



يا مطلق النظر . . إذا رتعت العين بوادى الحسان لاحت فى القلب بَوادى الخسران ، وإذا حضرت سوق الحرام غاب القلب ، وإذا غابت عنه حضر ، و(إذا حضر قلبك فنسيم الريح يذكرك ، وإن غاب فمائة ألف نبى لا يوصلون التذكرة إليك) [1] .

ولى ألف باب قد عرفت سبيله ... ولكن بلا قلب إلى أين أذهب

(2) هاوية العشق :

فكما أن أول الحريق الشرر ، فأول العشق النظر ، بحر العشق إذا علا أغرق ، وأخطر شىء على السابح فيه فتح العينين :

عيناى أعانتا على سفك دمى ... يـا لـذة لحظـة أطـالـت ألمى

كم أندم حين ليس يغنى ندمى ... ويلى ثبت الهوى وزلت قدمى

إذا سقط إنسان فى هذه الهاوية أصبح إلهه هواه ومعبوده معشوقه ، يأمره فيأتمر وينهاه فينتهى ، حلالاً كان أم حراماً ، عدلاً كان أم عدواناً .

والعشق داء لا يحل بأجساد النابهين المجدين ، لكن له فى أبدان الفارغين مأوى وفى أذهانهم وقلوبهم مرعى ، قال **ابن عقيل** :

" العشق مرض يعترى النفوس العاطلة والقلوب الفارغة والمتلمحة للصور لدواعى النفس ، ويساعدها إدمان المخالطة فتتأكد الآفة ويتمكن الأنس فيصير بالإدمان شغفاً ، **وما عشق قط إلا فارغ** ، فهو من علل البطالين وأمراض الفارغين ، وما عشق حكيم قط ، لأن قلوب الحكماء أشد تمنعاً من أن تقفها صورة من صور الكون مع شدة تطلبها ، فهى إن تلحظ تخطف ولا تقف ، وقلَّ أن يحصل عشق من لمحة ، وقلَّ أن يضيف حكيم إلى لمحة نظرة ، فإنه مارٌّ فى طلب المعانى ، ومن كان طالباً لمعرفة الله لا تقفه صورة عن الطلب لأنها تحجبه عن المصَوِّر " [2]

وقد ألف **ابن الجوزى** كتاباً كاملاً عن العشق وأضراره وأسماه **(ذم الهوى)** ، عرض فيه إلى من بلغ منهم العشق منتهاه ، حتى دفع بعضهم إلى قتل نفسه أو قتل محبوبه ، أو إلى الزنا أو إلى الكفر والعياذ بالله ، وغير ذلك من كبائر الذنوب وفواحش الفعال ، والعاقل

---

(1) المدهش ص (476) .

(2) ذم الهوى ص (244 ، 245) .

من وعظ بغيره، ومن لم تنفعه أذنه لم تنفعه عيناه، أخبروني بالله عليكم . . أي ذل أنكى من ذل رجل يقول لمعشوقته :

أتاني منك سبك لي فسبي | أليس جرى بفيك اسمي فحسبي

وأيّ ضلال وكفر يدرك رجلاً ككفر من انخلع عن دينه بقوله :

أراني إذا صليتُ يممت نحوها | بوجهي وإن كان المصلّى ورائيا

أو من انقلب مسخاً بقوله :

أصلي فأبكي في الصلاة لذكرها | لي الويل مما يكتب الملكان

فكيف ترضى يا مطلق بصره أن تسلك طريقاً هذا آخره وأن تغرس غرساً هذا ثمرته ؟

فإن لم تفق من سكرتك بعد هذا الكلام فزن نفسك بميزان دقيق، صنعه **ابن القيم** عساك تتوب وتئوب وتعرف قدرك عند علام الغيوب، قال ـ رحمه الله ـ :

" من أراد من العُمّال أن يعرف قدره عند السلطان ، فينظر ماذا يوليه من العَمل وبأي شغل يشغله " [1] .

كلماتنا واضحة ومعانيها أوضح، لكن ارتداء نظارة الأهواء أضعف أبصار العشاق وأعمى بصيرتهم فإن خلعوها رشدوا ورأوا الطريق واضحاً فسلكوه .

(3) النظرة ولادة :

♥ **تأمل هذه السلسلة :**

النظرة تولد الخطرة، والخطرة تولد الفكرة، والفكرة تولد الشهوة، والشهوة تولد الإرادة، والإرادة تولد العزيمة، فإذا قويت العزيمة وقع المحظور، وسقطت في المعصية . .

كل الحوادث مبدأها من النظر | ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فعلت في قلب صاحبها | كمبلغ السهم بين القوس والوتر
والعبد مادام ذا طرف يقلبه | في أعين الغيد موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ضر مهجته | لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

(1) الفوائد ص (68) .



فإذا عرضت لك نظرة لا تحل فاعلم أنها سهم مسموم من سهام إبليس، وجهه إلى قلبك وأراد بها قلبك، فتترس منها بدرع ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور : 30]، حتى تكون من الذين عافاهم الله ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران : 174] .

قيل لوهيب بن الورد : أيجد طعم العبادة من يعصى الله ؟ قال : "لا، ولا من هَمَّ بالمعصية" [1] .

ما أنفس ما وهبنا وهيب، وما أشذى الورود التى أهداها لنا ابن الورد، فحرمان حلاوة الطاعة هو عقوبة الله لمن آثر غيره وقدم سواه، فأحيا وزره وأمات بره، وطاف بشهواته سبعاً، وسعى بين لهوه وغفلته أشواط حياته، وهذا الحرمان فى حقيقته نعمة، وهذه العقوبة عطاء، إذ هى تنبيه للعبد إن هو ألمَّ بذنب فى ساعة غفلة أو ورود هوى، حتى إذا ما فقد حلاوة طاعته ولذة مناجاته رجع إلى نفسه محاسباً لها ومؤدباً .



(4) أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ :

* فإن النظرة إلى ما لا يحل تشغل فكراً فى الحرام لو كان تفكراً فى ملكوت السماوات والأرض، لكان من أفضل العبادات ولأثمر زيادة تقى وعلو يقين وارتفاع درجات .

* وهى تورث حزناً على فوات لذة محرمة، لو كانت حزناً على أحوال المسلمين وعروقهم النازفة فى أرجاء الأرض، لكان علامة إيمان ودلالة على متانة الرابطة وصدق عقد ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات : 10] .

* وهى تصرف وقتاً فى إثم ومعصية هما ثمن شراء النار، ولو صرف هذا الوقت فى طاعة الله لأورث الفوز ولذة النظر إلى وجه الله الكريم .

* وهى تسيل مدامع حزناً على فراق حبيب القلب، ولو كانت سيالة من خشية الله لنعم صاحبها بظل عرش الرحمن يوم لا ظل إلا ظله .

* وهى تستهلك أقداماً وأكفاً فى لقاءات عبث ومواعيد هوى، ولو سعت هذا الأقدام فى خدمة الله وشغلت هذه الأكف فى خط تعاليم النبى ﷺ ، لاستحق صاحبها مكافأة نهاية الخدمة ومجاورة صاحب التعاليم فى جنات النعيم .

فأصغ بقلبك يا أخى إلى هذا الكلام المضمَّخ بعبير الهدى :

---

(1) صفة الصفوة (132/2) - ابن الجوزى - ط دار الفكر .

" عندك بضائع نفيسة : دموع ودماء وأنفاس وحركات وكلمات ونظرات، فلا تبذلها فيما لا قدر له، أيصلح أن تبكى لفقد ما لا يبقى ؟ أو تتنفس أسفاً على ما يفنى ؟ أو تبذل مهجة لصورة عما قليل ستمحى ؟ " [1].

(5) النظرة ذنب :

القاعدة وقت المبارزة : كل خطأ يكون مدعاة للقتل .

إن العيون التـــى فى طرفها حور ... قتلننـا ثـم لا يحيـين قتـلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهن أضـعف خـلق الله أركانا

شخّص أعراض المرض الذى أدى إلى موت القلب الطبيب الشرعى المؤمن **ابن قيم الجوزية** فكتب فى تقريره معددا آثار الذنوب :

" قلة التوفيق، وفساد الرأى، وخفاء الحق، وفساد القلب، وخمول الذكر، وإضاعة القلب، ونفرة الخلق، والوحشة بين العبد وبين ربه، ومنع إجابة الدعاء، وقسوة القلب، ومحق البركة فى الرزق والعمر، وحرمان العلم، ولباس الذل، وإهانة العدو، وضيق الصدر، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وطول الهم والغم، وضنك المعيشة، وكسف البال تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولد الزرع عن الماء والإحراق عن النار، وأضداد هذه تتولد عن الطاعة " [2].

وفوق هذه الأعراض تبقى كراهة اللقاء، وخشية الحساب وخوف العقاب، لهذا اسمعها عالية من **ابن الجوزى** لعلك لا تسمعها من غيره :

" إياك والذنوب، فلو لم يكن فيها إلا كراهة اللقاء كفى عقوبة، أطيب الأشياء عند يعقوب رؤية يوسف، وأصعبها عند إخوته لقاؤه " [3].

واسأل نفسك بعدها يا صاحب النظرات الآثمة : أى تركة ورثت ؟ تركة يعقوب أم تركة أبنائه ؟



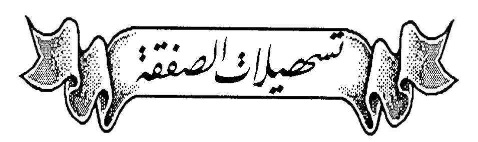
(1) المدهش ص (475، 476).

(2) الفوائد ص (47).

(3) اللطائف ص (62) - ابن الجوزى - ط دار الهجرة .







قال **أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى** : "أعمال البر يعملها البر الفاجر ولا يجتنب المعاصى إلا صديق " [1].

فباجتنابك النظر إلى الحرام تسعى إلى درجة الصديقية ، ودورى معك أن أمهد لك الطريق إليها بذكر ما يلى :

(1) اعقد مقارنة :

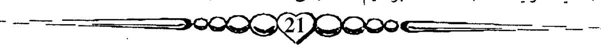
قال **أبو عصمة** : كنت عند ذى النون وبين يديه فتى حسن يُملى عليه ، فمرّت امرأة ذات حسن وجمال وخلق فجعل الفتى يسارق النظر إليها ففطن ذو النون فلوى عنق الفتى وأنشأ يقول :

دع المصوغات من ماء ومن طين ... واشغل هواك بحور خُرد عين

فمن شغله اليوم التطلع إلى الغيد الحسان فليعقد مقارنة بينهن وبين الحور ، لتعلم الفارق بين هذه وتلك الحور ، الحور وما الحور . . تجرى الشمس من محاسن وجهها إذا برزت ، ويضيء البرق من ثناياها إذا ابتسمت ، لو اطلعت على الدنيا لملأت ما بين السماء والأرض ريحاً ، ولا ستنطقت أفواه الخلائق تهليلاً وتكبيراً وتسبيحاً ، ولتزخرف لها ما بين الخافقين ولما نامت عن النظر إليها عين ، ولطمست ضوء الشمس كما يطمس الشمس ضوء النجوم ، ولآمن من على ظهرها بالله الحى القيوم خمارها الذى يخفى جمالها خير من الدنيا وما فيها فكيف جمالها ؟ لحمها يسطع من وراء سبعين حلة من فوقها فكيف ضياؤها ؟ لولا أن الله كتب على أهل الجنة أن لا يموتوا لماتوا من فرط حسنها ، فما ظنك بامرأة إذا ضحكت فى وجه زوجها أضاءت الجنة من ضحكها !؟ وإذا انتقلت من قصر إلى قصر قلت : هذه الشمس متنقلة فى بروج أفلاكها . . كل هذا وأنت مشغول بالجيف !!

يا من وقع العقد : نظران لا يجتمعان من غض طرفه اليوم عن الطين أطلقه غداً فى الحور العين ، ومن أطلقه اليوم حرمه غداً فاختر لنفسك ، وقدم إن شئت المهر الذى سبق

(1) حلية الأولياء (10/ 211) - أبو نعيم الأصفهانى - ط دار الكتب العلمية .



وأرشدك إليه أبو الدرداء رضي الله عنه فقال : " من غض بصره عن النظر الحرام زُوِّج من الحور العين حيث أحب " [1] .

(2) اسلك طريقهم :

تنسّم شذى عبير السلف ، وارو عطشك بسيرتهم وأحيى قلبك بذكرهم ، وقلدهم وضاههم عسى أن تشبه الصورة الأصلَ .

* كان الربيع بن خثيم - أنجب تلامذة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه - يغض بصرة فمر به نسوة فأطرق حتى ظن النسوة أنه أعمى ، فتعوذن بالله من العمى .

* وحين خرج حسان بن أبى سنان إلى العيد قيل له لما رجع : ما رأينا عيداً أكثر نساء منه ، فقال : ما تلقتنى امرأة حتى رجعت .

* ولما طلب بعض أمراء البصرة داود بن عبد الله لجأ إلى رجل من أصحابه فأنزله منزله وكانت له امرأة يقال لها : زرقاء - وكانت جميلة - فخرج الرجل فى حاجته وأوصاها أن تلطف به وتخدمه ، فلما قدم الرجل قال : كيف رأيت الزرقاء وكيف كان تلطفها بك ؟ قال : من الزرقاء ؟ قال : أمّ منزلك ، قال : ما أدرى أزرقاء هى أم كحلاء !! فلما رآها زوجها قال لها : أوصيتك أن تلطفيه وتخدميه فلم تفعلى ، قالت : أوصيتنى برجل أعمى والله ما رفع طرفه إلى [2] .

* واسمع إلى العجب العجاب الذى انطلق من لسان محمد بن سيرين حين قال : " ما غَشيتُ امرأة قط فى يقظة ولا نوم غير أم عبد الله - يعنى زوجته - وإنى لأرى المرأة فى المنام فأعلم أنها لا تحل لى فأصرف بصرى عنها " [3] .

وأمثال هؤلاء هم الأنقياء نقاوة الماء الزلال ، الأمناء على الأعراض والحرمات والأموال ، وصف بعضهم حاله فقال :

ما ضر لى جار أجاوره … أن لا يكون لبابه ستر
أعمى إذا ما جارتى خرجت … حتى يُوارى جارتى الخدر
وتَصَمُّ عما بينهم أذنى … حتى يصير كأنه وقر

(1) رسالة المسترشدين ص (119) - الحارث المحاسبى -ط دار السلام .
(2) ذم الهوى ص (77) .
(3) الشكوى والعتاب ص (103) - أبو منصور الثعالبى - ط دار الصحابة .

(3) شغل بالحق وإلا فالباطل:

النفس لا تمل السعي والحركة والطلب والعمل ، إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ، إن لم تحلق بها في معالي الأمور انحدرت بك إلى سفاسفها ، إن فاتها قطار الجد ركبت قطار الكسل ، لا بد لها من وثاق إن شددته عليها تأدبت بآداب الشرع ، وإن حللته عنها راغت منك روغان الثعالب ، فاختر لنفسك شغلاً وحدد لذهنك همًا واطلب لجسمك كدًا .

من أجل ذلك كره **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه الفراغ باعتباره مزلة إلى المذلة وهاوية إلى الهوى ، قال رحمه الله : " إني لأكره أن أرى أحدكم سبهللا - أي فارغا - لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة "(1).

ويشرح **ابن القيم** ويحلل النفس البشرية تحليلاً عميقًا فيقول : " وقد خلق الله سبحانه النفس شبيهة بالرحى الدائرة ، لا تسكن ولا بد لها من شيء تطحنه ، فإن وضع فيها حب



طحنته ، وإن وضع فيها تراب أو حصى طحنته ، فالأفكار التي تجول في النفس في منزلة الحب الذي يوضع في الرحى ، ولا تبقى هذه الرحى معطلة قط بل لا بد لها من شيء يوضع فيها فمن الناس من تطحن رحاه حبًا يخرج دقيقًا ينفع به نفسه وغيره وأكثرهم يطحن رملاً وحصى وتبنًا ونحو ذلك ، فإذا جاء وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحنه " (2) .

فالملك يلقي في الرحى بالحب النافع ، والشيطان يلقي فيها التراب والحصى ، وهو لا يتمكن من إلقائه إلا إذا وجدت الرحى فارغة من الحب وقيمها قد أهملها وأعرض عنها ، فحينئذ يبادر إلى إلقاء ما معه فيها (3) .

(4) خوف يطفئ الشهوة:

اضطرام نار الشهوة في القلب لا يخمده غير ماء الخوف ، وإذا علا منسوب الخوف أخمد نار الشهوة فكان غض البصر ، وإن قلّ ازدادت اضطراماً وكان إطلاق البصر ، فوجب على العاقل التنبه والنظر من أين جاء العجز ، فيستدركه قبل أن يعم

(1) قيمة الزمن عند المسلمين ص (68) - د/ عبد الفتاح أبو غدة - ط دار القلم .

(2) الفوائد ص (66) .

(3) السابق ص (228-229) .

الحريـق القـلب وتُـشم منـه رائحـة الشـواء . قـال تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن : 46] ، قال **مجاهد** : " هو الذى إذا هَمَّ بمعصية ذكر مقام الله عليه فيها فانتهى "[1] .

كان التابعى الجليل **عبيد بن عمير** يسمى قاض مكة ، وكان الصحابة يحضرون مجلس وعظه ويبكون فيه ويتأثرون ، وهو رجل ممن غلب ملكه شيطانه ، وقهر خوفه شهوته ، حتى نضح على من حوله خشية ووجلاً أورثت توبة وإنابة واسمعوا قصته مع غانية مكة :

كانت امرأة جميلة بمكة وكان لها زوج ، فنظرت إلى وجهها فى المرآة فأعجبت بجمالها ، وقالت لزوجها : أترى أحدًا يرى هذا الوجه ولا يفتن به ؟ قال : نعم ، قالت : من ؟ قال : عبيد بن عمير ، قالت : فأذن لى لأفتنه ، قال : قد أذنت لك ، قال : فأتته كالمستفتية فخلا معها فى ناحية من المسجد الحرام ، فأسفرت عن مثل فلقة القمر ، فقال لها : اتق الله ياأمة الله ، قالت : إنى قد فتنت بك فانظر فى أمرى .

قال : إنى سائلك عن شيء فإن أنت صدقت نظرت فى أمرك ، قالت : لا تسألنى عن شيء إلا صدقتك .

قال : أخبرينى . . لو أن ملك أتاك ليقبض روحك ، أكان يسرك أنى قضيت لك هذه الحاجة ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت .

قال : فلو أدخلت فى قبرك وأجلست للمسألة ، أكان يسرك أنى قضيت لك هذه الحاجة ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت .

قال : لو أن الناس أعطوا كتبهم ولا تدرين تأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك ، أكان يسرك أنى قضيت لك هذه الحاجة ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت .

قال : فلو جىء بالموازين وجىء بك لا تدرين تأخذين كتالك بيمينك أم بشمالك ، أكان يسرك أنى قضيت لك هذه الحاجة ؟ قالت: اللهم لا ، قال : صدقت

قال: فلو وقفت بين يدى الله للمساءلة ، أكان يسرك أنى قضيت لك هذه الحاجة ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت .

---

(1) ذم الهوى ص (192) .

قال : اتق الله يا أمة الله فقد أنعم عليك وأحسن إليك .

فرجعت إلى زوجها ، فقال : ما صنعت ؟ قالت : أنت بطّال ونحن بطّالون ، فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة ، فكان زوجها يقول : مالي ولعبيد بن عمير ، أفسد على امرأتي ، كانت في كل ليلة عروسا فصيرها راهبة [1] .

والخوف من الله هو ثمرة طاعات عديدة : ككثرة تلاوة القرآن ، وتدبر معانيه ، ومطالعة أخبار القيامة ، وأهوال النار وأحوال أهلها ، ومصاحبة الخائفين وسماع أخبارهم ، ومعرفة أحوال المغترين واجتنابهم ، وتغسيل الموتى ، وحضور الجنائز ، وشهود حالات الاحتضار ، واستحقار طاعتك فى عينك ، ومعرفة قدر الله ومقامه ، والتفكر فى أسمائه وصفاته ، وغيرها من مولدات الخوف وباعثات القلق .

(5) أكثر من الصيام :

أصل الشهوات واحد كما أن أصل الصبر واحد ، فمن صبر عن شهوة الطعام قويت إرادته واستطاع الصبر عن شهوة النظر إلى الحرام ، ولهذا جاءت الوصية بالصيام لتدرب الصائم على أن يمتنع باختياره عن شهواته ولذته الحيوانية ، ويصر على امتناعه فلا يتغير ولا يتحول ، ولا تعدو عليه عوادى الغريزة أو نوازع الرغبة ، فيكون غض البصر نتيجة طبيعية لهذا وثمرة تلقائية له ، لذا أوصى النبى ﷺ من لم يستطع الزواج : " **فعليه بالصوم فإنه له وجاء** " [2] .



(6) اعرف كيد عدوك :

للشيطان مع القلب صولات وجولات وغزوات وغارات ومن سياساته التدرج حتى يصل إلى هدفه ويضمك إلى حزبه ويجعلك من جنده ، فإذا كان مشوار الألف ميل يبدأ بخطوة فهذه الخطوة هنا هى النظرة .

قال **ابن الجوزى** : " إذا رأيت فرسًا قد مالت براكبها إلى درب ضيق قد خلت فيه ببعض بدنها ، ولضيق المكان لا يمكن النزول فيه فصيح به : ارجعها عاجلاً قبل أن يتمكن دخولها ، فإن قبل وردها خطوة إلى ورائها سهل الأمر ، وإن توانى حتى ولجت ثم قام بجذبها طال تعبه وربما لم يتهيأ له .

---

(1) ذم الهوى ص(210، 211) .

(2) رواه الشيخان عن ابن مسعود كما فى اللؤلؤ والمرجان رقم (884) .



وكذلك النظرة إذا نزلت فى القلب ، فإن عجّل الحازم بغضها وحسم المادة من أولها سهل علاجه ، وإن كرر النظر نقّب عن محاسن الصورة ونقلها إلى قلب متفرغ فنقشها فيه ، فكلما تواصلت النظرات كانت كالمياه تروى بها الشجرة فلا تزال تتمنى فيفسد القلب ، ويعرض عن الفكر فيما أمر به ويخرج بصاحبه إلى المحن ، ويوجب ارتكاب المحظورات ويلقى فى التلف "[1] .

(7) فليتزوج :

قال النبى ﷺ : " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج "[2] .

بل قدم ﷺ دواءً ناجعاً يشفى من أثر النظرة الحرام ، فعن جابر أن رسول الله ﷺ رأى امرأة ، فأتى زينب وهى تمعس منيئة لها فقضى حاجته ، ثم خرج إلى أصحابه فقال : " إن المرأة تقبل فى صورة شيطان وتدبر فى صورة شيطان ، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله فإن ذلك يرد ما فى نفسه "[3] . قال **الإمام النووى** : " إنما فعل هذا بيانًا لهم وإرشادًا لما ينبغى لهم أن يفعلوه فعلمهم بفعله وقوله "[4] .

وربما هيجت نظرة شهوة رجل ، ولا تسكن هذه الشهوة إلا بتنفيذ وصية الرسول ﷺ وإتيان أهله ، ولهذا جاء الوعيد شديدًا لمن امتنعت عن فراش زوجها بغير عذر ، قال رسول الله ﷺ : " إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع "[5] .

(8) الله مطلع عليك :

قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ ﴾ [غافر : 19] .

قال **ابن عباس** رضي الله عنهما : " الرجل يكون فى القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها ، فإن رأى منهم غفلة نظر إليها فإن خاف أن يفطنوا إليه غض بصره ، وقد اطلع الله عز وجل من قلبه أنه يود أنه نظر إلى عورتها "[6] .

---

(1) ذم الهوى ص (82) .

(2) سبق تخريجه .

(3) رواه مسلم وأحمد وأبو داود عن جابر كما فى ص ج ص رقم (1940) والسلسلة الصحيحة رقم (235) ، وتمعس : أى تدلك ، منيئة : الجلد أول ما يوضع فى الدباغ .

(4) شرح النووى على صحيح مسلم (5 / 311) - ط دار أبى حيان .

(5) رواه الشيخان عن أبى هريرة كما فى اللؤلؤ والمرجان رقم (912) .

(6) ذم الهوى ص(81) .

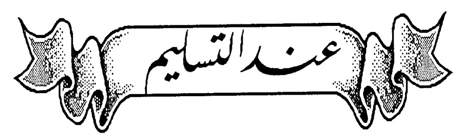
يخدع المسكين نفسه ويظن أنه يخدع ربه ، مراقبتك لله يا أخانا تتمثل فى استشعار أن نظر الله أقرب إليك من نظرك إلى الحرام ، لأنه أقرب إليك من حبل الوريد ، وملائكته تقف عليك عن اليمن وعن الشمال ، فالأعمال تسجل والنظرات ترصد والخطرات تكتب، بل تنقش ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم : 64] .

كان لابنة عمر بن عبد العزيز لؤلؤة واحدة تستخدمها كقرط فى أذنها ، وتنقصها لؤلؤة أخرى تضعها فى أذنها الأخرى ، فأرسلت إليه أن يعطيها لؤلؤة أخرى ، فأرسل إليها بجمرتين ، ثم قال لها : " إن استطعت أن تجعلى هاتين الجمرتين فى أذنيك بعثت إليك بأخت لها "[1] .

ونحن نرث مذهب الراشد الخامس ، ونقول لك يا مطلق بصره : لو استطعت أن تجعل مكان عينيك جمرتين فابعثهما فى الغيد الحسان .



(1) سيرة عمر بن عبد الغزيز ص (156) .

* سئل **الحارث المحاسبي** : إذا الرجل التائب عاد إلى النظر المحرم بعد أن تاب منه فهل تصح توبته أم أنها توبة كاذبة ؟ فأجاب قائلاً :

ينقسم الناس في ذلك إلي قسمين :

* صادق في توبته الأولى لم يصر علي ذنبه ، وليس فى نيته العود إليه عند التوبة ، ثم عرض له فيما بعد ذلك ذنب آخر دون إعداد ولا ترتيب له ، ولا علم بوقوعه فارتكبه ، سواء كان ذلك الذنب هو الأول أو غيره من الذنوب ، وحينئذ يجب علي المذنب أن يسارع بالتوبة لشروطها ، وصحت توبته الأولى والثانية مهما تكرر منه الذنب ، بشرط عدم الإصرار وعدم التفكير والترتيب لارتكابه .

* وتائب من ذنبه الأول علي حب له ، وتمن لمقارفته مرة أخري ، لم يقتلع حب المحرم من قلبه ، ثم عرض له الذنب فارتكبه ، فهذا مستهزئ بربه ، وتسمي توبته توبة الكذابين ، لأنه يتوب بلسانه علي نية العودة إلى الذنب بقلبه »(1) .



(1)التوبة ص (59) - الحارث المحاسبي - ط دار الفضيلة .



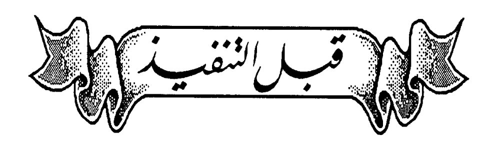
الصَّفقةُ الثَّانيةُ

الصَّلاةُ خيرٌ من النَّوم



كان أصحاب النبى ﷺ لا يطيقون فراقه ، ولما كانت الدنيا دار فراق ، وهم لا يشبعهم منه غير الخلود ، طلبوا صحبته فى دار الخلود ، وقدموا الثمن ..

الصديق قدّم صدقه ، والفاروق قدّم عدله ، وذو النورين قدّم ماله ، وعليٌ قدّم روحه يوم هجرة الحبيب .. هذا ما قدموا، فأين ما قدمت ؟!



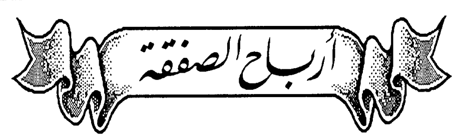
أعجب العجاب

يقول **ابن القيم** ـ رحمه الله ـ :

" من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه ، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن إجابته ، وأن تعرف قدر الربح فى معاملته ثم تعامل غيره ، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له ، وأن تذوق ألم الوحشة فى معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته ، وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض فى غير حد دينه والحديث عنه ، ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه ، وأعجب من هذا علمك أنك لا بد لك منه وأنك أحوج شيء إليه ، وأنت عنه مُعرض وفيما يبعدك عنه راغب "[1] .



(1) الفوائد ص (61) .



ياقومنا هــذى الفوائد جمّة	فتخـيّروا قبل النـدامة وانتهوا
إن مَسّكُم ظمأ يقول نذيركم	لا ذنب لى قد قلتُ للقوم استقوا

من فوائد أداء صلاة الفجر فى الجماعة :

(1) تعدل قيام ليلة كاملة :

يقظة من منام + إجابة للأذان + صلاة مع أهل الإيمان = ثواب قيام ليلة .

وما أعظمه من ثواب مع يسر ما بذل فيه من جهد .

قال رسول الله ﷺ : " من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف ليلة ، ومن صلى الصبح فى جماعة فكأنما صلى الليل كله " (1) ، وهى وصية العامة إذ قالوا : عليكم بما خف حمله وغلا ثمنه .

(2) الحفظ فى ذمة الله :

قال رسول الله ﷺ : " من صلى الصبح فهو ذمة الله " (2) .

وتأمل معى قوله " **ذمة الله** " : فهى ليست ذمة ملك من ملوك الأرض لأنه - وإن علا ملكه وتوقفت مراكب السير تعظيماً وتبجيلاً له - لا تزال فيه حقارة الأرض وذلة الأرض والضعف الكائن فى المخلوق من تراب الأرض ، وإنما هى ذمة مالك الملك ورب الأرباب وخالق الأرض وما عليها لك والواصف نفسه قائلاً : ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر : 67] .

ذمة الله هى الذمة التى لا يستطيع أحد خرقها بل مسّها ، تحيط المؤمن بسياج من الحماية له فى نفسه وولده وعقله ودينه وسائر أمره ، فيحس بالطمأنينة فى كنف الله ، ويشعر أن عين الله ترعاه وأن قوته تحفظه ، فيمضى يومه واثق الخطى ثابت الجنان عديم الوجل من كل من دبّ على وجه الأرض وخلق منها .

(1) رواه أحمد ومسلم عن عثمان بن عفان كما فى مختصر صحيح مسلم رقم (324) .

(2) رواه مسلم عن جندب بن عبد الله واللفظ له وأبو داود والترمذى كما فى صحيح الترغيب والترهيب رقم (363) .

(3) نور يوم القيامة :

قال النبى ﷺ : " بشّر المشائين فى الظُلَم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة "(1) .

والنور على قدر الظلمة ، فمن كثر سيره فى ظلام الليل إلى الصلاة عظم نوره وعمّ ضيآؤه يوم القيامة ، والمؤمن يعلم أن مقاساة الظلمة هنا هى ثمن النور هناك ، وأن سيره فى ظلمة الليل إلى المساجد ، إنما يدخر الأنوار له ليوم تضىء فيه الصراط فيعبره إلى الجنة .

وليست أنوار المؤمنين يوم القيامة على درجة واحدة من الشدة والقوة ، بل تتفاوت بتفاوت الإيمان ، قال رسول الله ﷺ : " فيُعطون نورهم على قدر أعمالهم ، فمنهم من يُعطى نوره مثل الجبل بين يديه ، ومنهم من يُعطى نوره فوق ذلك ، ومنهم من يُعطى نوره مثل النخلة بيمينه ، ومنهم من يعطى نوره دون ذلك بيمينه ، حتى يكون آخر من يُعطى نوره على إبهام قدمه يضىء مرة ويطفىء مرة "(2) .

(4) دخول الجنة :

قال رسول الله ﷺ : " من صلى البرْدَين دخل الجنة "(3) .

والبردان هما صلاة الفجر والعصر ، قال **ابن حجر** فى الفتح : " وسميا بالبردين لأنهما تصليان فى بردى النهار ، وهما طرفاه حين يطلب الهواء وتذهب سورة الحر أى شدته "(4) .

ولأن النفس تخلد فى هذين الوقتين للراحة والرقاد وتستصعب النشاط والقيام ، فقد استحثها النبى ﷺ وحفزّها بهذه البشارة العظيمة ، وكأنه يقول : هذه الجنة نزلت إلى أرضكم تعرض نفسها عليكم فى هذين الوقتين الثمينين ، فاحضروا القسمة يكن لكم فيها نصيب ، وارموا ساعة القتال بسهم يكن لكم فى الغنيمة سهم ، ولا تكونوا مع الخوالف فتنالكم التوالف ، ولامَن :

يحاول نيل المجد والسيف مغمد ويأمل إدراك العلا وهو نائم

---

(1) رواه ابن ماجة وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم واللفظ له كما فى صحيح الترغيب والترهيب رقم (423) .

(2) رواه الحاكم عن ابن مسعود ، وأورده الألبانى فى شرح الطحاوية ص (469) - ط المكتب الإسلامى .

(3) رواه مسلم عن أبى موسى كما فى ص ج ص رقم (6337) .

(4) فتح البارى (6412) - ابن حجر العسقلانى - ط دار الريان .

(5) تقرير مشرف :

أخى الحبيب : أنت على موعد مع الله كل يوم فى صلاة الفجر والعصر ، لتقدم له تقريراً يومياً تكتبه بيدك شاهداً به على نفسك ، مجدداً العهد مع ربك الذى يحرص كل يوم على السؤال عنك وتفقد أحوالك عن طريق ملائكة أطهار - وهو أعلم بك منهم - لكنه يسأل براً ولطفاً وإحساناً وتقرباً .

قال رسول الله ﷺ : " يتعاقبون فيكم ملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم الله وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون "[1] .

(6) هذا ثواب النافلة فكيف بالفريضة :

قال رسول الله ﷺ : "ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها "[2] .

وهما ركعتا سنة الفجر ، ولما كان الفرض أحب ما تقرب به العبد إلى ربه ، فثوابه أعظم وربحه أوفر ، وإذا قال "خير من الدنيا وما فيها " فكن على يقين أن قوله الحق ، لا يبالغ فى تصوير ، ولا ينطق عن هوى ، تنزه عن ذلك كيف وما هو إلا وحى يوحى ؟ ويد الله ملأى ، وخزائنه لا تنفد ، وملكه لا ينقصه شىء إلا كما يجعل أحدكم إصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع ؟

(7) رؤية الله فى الآخرة :

وما أعطى الله أهل الجنة نعيماً أحب إليهم من النظر إلى وجهه الكريم ، وهو شرف أجل من أن يخطر ببال أو يدور فى خيال ، فأى نعيم وأى لذة وأى فوز وأى قرة عين ، والله ما طابت الجنة إلا بهذا ولا تم نعيمها إلا به .

هذا الشرف حازه أهل الفجر كما أخبر النبى ﷺ : " أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا " ، ثم قرأ : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه :130] .

(1) رواه الشيخان عن أبى هريرة كما فى صحيح الترغيب والترهيب رقم (463) .

(2) رواه مسلم وأحمد والترمذى والنسائى عن عائشة كما فى ص ج ص رقم (7153) .

(3) رواه الشيخان عن جرير بن عبد الله كما فى اللؤلؤ والمرجان رقم (368) .



قال ابن حجر : " وجه مناسبة ذكر هاتين الصفتين عند ذكر الرؤية أن الصلاة أفضل الطاعات ، وقد ثبت لهاتين الصلاتين من الفضل على غيرهما ، فهما أفضل الصلوات ، فناسب أن يجازى المحافظ عليهما بأفضل العطايا وهو النظر إلى الله تعالى "[1] .

يا أخى . . نسوة مصر لما رأين يوسف ﴿أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف : 31] ، وشُغلن به عن أنفسهن ، فكيف لا تحب مولاك وتشتاق إلى رؤيته ؟! وإن له يوماً يتجلى فيه لأوليائه ويطلع فيه على أحبائه .

(8) زاد الدنيا والآخرة :

لما كان الوقت الذي يعقب صلاة الفجر أكثر الأوقات بركة ، فقد حرص النبي ﷺ على اغتنامه وشغله بالذكر ، فكان يجلس بعد صلاة الفجر يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم يصلي ركعتين ، ويبشر أصحابه إن هم فعلوا هذا بأن لهم أجر حجة وعمرة تامة تامة ، ولقد حرص السلف الصالح على التزام سنة النبي ﷺ ، فكان **ابن تيمية** كما ينقل عنه تلميذه **ابن القيم** يذكر الله في هذا الوقت المبارك ويقول : " هذه غدوتى ولو لم أتغد الغذاء سقطت قوتى "[2] .

وهذا الوقت وقت البركة الوفيرة في الرزق ، ولهذا نجد أصحاب المهن والحرف والتجارة حريصين على اغتنام هذا الوقت ، فعن صخر الغامدى أن النبى ﷺ قال : "اللهم بارك لأمتى فى بكورها "[3] .

قال صخر : وكان إذا بعث سرية أو جيشاً بعثهم أول النهار ، وكان صخر تاجراً وكان إذا بعث تجارة بعثها أول النهار ، فأثرى وكثر ماله ، ولا يعنى ذلك أن النائم لا يُرزق ، بل إن الله يرزق البر والفاجر والمؤمن والكافر ، لكن البركة كنز لا يناله إلا المستيقظون فى هذا الوقت ، الذى يفيض بالبركة على أهله . . بركة فى المال فلا فقر ، وفى الصحة فلا مرض ، وفى العزيمة فلا وهن ، وفى الوقت فلا ضيق ، وفى العقل فلا شطط ، وكذا فى سائر نعم الله على العبد .

---

(1) فتح البارى (2/ 44) بتصرف .

(2) الوابل الصيب من الكلام الطيب - ص (37) - ابن قيم الجوزية - ط المكتبة السلفية .

(3) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان عن صخر الغامدى كما فى ص ج ص رقم (1300) .

(9) صحة وعافية :

أما الفوائد الصحية التى يجنيها الإنسان بيقظة الفجر فهى كثيرة منها :

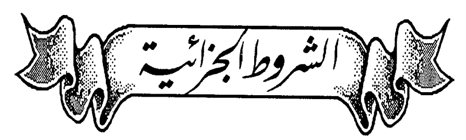
♥ تكون أعلى نسبة لغاز الأوزون فى الجو عند الفجر ، وتقل تدريجياً حتى تضمحل عند طلوع الشمس ، ولهذا الغاز تأثير مفيد للجهاز العصبى ، ومنشط للعمل الفكرى والعضلى .

♥ نسبة الأشعة فوق البنفسجية تكون أعلى ما يمكن عند الفجر ، وهذه الأشعة تحرض الجلد على صنع فيتامين (د) ، كما أن للَّون الأحمر تأثيراً باعثاً على اليقظة .

♥ نسبة (الكورتيزون) تكون فى الدم أعلى ما يمكن وقت الصباح وأقل ما يمكن وقت المساء[1] .



(1) نقلاً عن مجلة المجتمع الكويتية .



رأى يحيى بن معاذ يوماً رجلاً يقلع الجبل فى يوم حار وهو يغنى، فقال : "مسكين ابن آدم، قلع الأحجار عنده أهون من ترك الأوزار" [1] ، نعم والله . . هانت على ابن آدم أوزاره لجهله بعواقبها وآثارها، ومن الآثام المدمرة للتخلف عن صلاة الفجر :

(1) الاتصاف بصفات المنافقين :

قال تعالى فى وصف المنافقين : ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ﴾[النساء : 142] ، وقال ﷺ : "ليس صلاة أثقل على المنافقين من صلاة العشاء والفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً" [2] .

ويؤكد الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فيقول : "ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق" [3] ، وما يزال الرجل بخير ويظن فيه الخير ما دام مواظباً على صلاة الفجر، فإذا تخلف دارت حوله الظنون وحامت حوله الشبهات، قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : "كنا إذا فقدنا الرجل فى الفجر والعشاء أسأنا به الظن" [4] .

(2) الويل والغى له :

قال تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[الماعون : 4 - 5] ، قال سعد ابن أبى وقاص : "سهوا عنها حتى ضاع الوقت" ، وقال تعالى : ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[مريم : 59] ، قال الخليفة الراشد عمر ابن عبد العزيز : "لم تكن إضاعتها تركها ولكن أضاعوا الوقت" .

سوق الأرباح قائمة حتى الشروق، فإذا طلعت الشمس انفضت السوق ولم تنفع البضائع صاحبها، وفوق هذا وذاك تهديد ووعيد بالغى والضلال من قوى عزيز ذى انتقام.

---

(1) حلية الأولياء (10/52) .

(2) رواه الشيخان عن أبى هريرة كما فى اللؤلؤ والمرجان رقم (383) .

(3) صحيح الترغيب والترهيب رقم (401) .

(4) صحيح الترغيب والترهيب رقم (414) .

(3) أذنه كنيف شيطان :

عـن عبـد الله بن مسعـود رضي الله عنه قال : ذُكر عند النبى ﷺ رجل نام ليلة حتى أصبح قال : « ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه »، أو قـال : « فى أذنه » [1]، قال الطيبى : "خص الأذن بالذكر، وإن كانت العين أنسب للنوم إشارة إلى ثقل النوم" [2].

وقد يتعجب الإنسان ويسأل : وهل يبول الشيطان ؟ فيجيبه القرطبى قائلاً : "ثبت أن الشيطان يأكل ويشرب وينكح فلا مانع من أن يبول" [3].

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الشيطان قد استولى عليه، واستخف به حتى اتخذه كالكنيف المعد للبول، ازدراءً له واستهزاءً به.

يا بائع الفجر . . وجانى الوزر . . أما تأنف من بول الشيطان فى أذنيك ؟! أما تجزع من هروب الملائكة من ريحك ؟!

أردنا أن يكون الملك حاديك إلى الجنة بنشيده : (الصلاة خير من النوم)، فأبيت إلا أن يكون الشيطان حاديك إلى النار بعوائه : (عليك ليل طويل فارقد).

(4) الخبث والكسل :

فيصبح النائم عن صلاة الفجر إسفنجى الطبع : إذا صاف خبيثاً تشرب خلاله الخبيثة وامتلأ بها، زجاجى القوام : إذا صادف آية مرت من خلاله دون أن يبقى منها فيه شيء، حجرى الإحساس : تنهال عليه سياط المواعظ دون أن يشعر بأى ألم.

وهو مع ذلك لو كـان الخـمـول والكسل عن الطاعـات حـديداً لكان هو قطعـة مغناطيس، ولو كان الثواب منه على قيد أنملة لحسبها - من كسله - صحارى وقفاراً.

ولذا أخبر النبى ﷺ أن الشيطان يعقد على قافيه رأس أحدنا إذا هو نائم ثلاث عقد، لا تنحل إلا بالقيام والوضوء والصلاة «وإلا أصبح خبيث النفس كسلان» [4]، ليس هذا فحسب . . بل وتعلن فضيحته على الملأ وتفوح معصيته فى الأرجاء، وتتنكس من على رأسه أعلام العزة والكرامة ولترفع بدلاً منها أعلام الذل والهوان.

---

(1) رواه الشيخان عن ابن مسعود كما فى اللؤلؤ والمرجان.

(2) فتح البارى (53/3).

(3) السابق (35/3).

(4) جزء من حديث متفق عليه عن أبى هريرة كما فى اللؤلؤ والمرجان رقم (444).

قال أبو المعتمر سليمان بن طرحان التيمى :

" إن الرجل ليذنب الذنب فيصبح وعليه مذلته " (1) .

(5) الكب على الوجه فى النار :

قال النبى ﷺ : « من صلى الصبح فهو فى ذمة الله ، فانظر يا ابن آدم ، لا يطلبنك من ذمته بشيء ، فإن من يطلبه من ذمته بشيء يدركه ، ثم يكبه على وجهه فى نار جهنم » (2) .

صلاة الفجر من ذمة الله التى يغار عليها أن تخفر ، فمن نام عنها أو أخّرها عن وقتها فقد خفر ذمة الله ، واستعدى عليه العظيم ، وأغضب منه الجليل ، فعاقبه بأن كب وجهه الذى غمره النوم فى الدنيا فى النار يوم القيامة ، جزاء ما قدمت يداه غير ظالم له أو متجن عليه ، حاشاه . .

(6) وتكسر رأسه :

لما ثبت فى البخارى من أن النبى ﷺ رأى فى رؤيا : « رجلاً مستلقياً على قفاه وآخر قائماً عليه بصخرة يهوى بها على رأسه ، فيشدخ رأسه فيتدحرج الحجر ، فإذا ذهب ليأخذه فلا يرجع حتى يعود رأسه كما كان ، فيفعل به مثل ما فعل فى المرة الأولى » ، وقد فسر جبريل وميكائيل ما رآه النبى ﷺ بأنه : "الرجل يأخذ القرآن فيرفضه ، وينام عن الصلاة المكتوبة " .

قال ابن العربى : " جُعلت العقوبة فى رأس هذا النائم عن الصلاة ، والنوم موضعه الرأس " (3) .

(7) ويمنع رزقه :

قال ابن قيم الجوزية فى زاد المعاد : " ونومة الصبح تمنع الرزق ، لأن ذلك وقت تطلب فيه الخليقة أرزاقها ، وهو وقت قسمة الأرزاق ، فنومه حرمان إلا لعارض أو ضرورة وهو مضر جداً ، ورأى عبد الله بن عباس رضي الله عنه ابناً له نائماً نومة الصبح ، فقال : قم . . أتنام فى الساعة التى تقسم فيها الأرزاق ؟! " (4) .

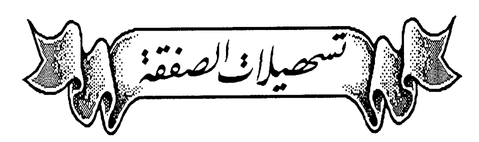
---

(1) صفة الصفوة (174/3) .

(2) رواه أحمد ومسلم والترمذى عن جندب البجلى كما فى ص ج ص رقم (6339) .

(3) فتح البارى .

(4) زاد المعاد (242/4) -ابن قيم الجوزية- مؤسسة الرسالة .



(1) نم مبكراً واترك السمر :

لحديث **أبى برزة** رضي الله عنه : "كان رسول الله ﷺ لا يبالى بعض تأخيرها (يعنى صلاة العشاء)، ولا يحب النوم قبل صلاة العشاء والحديث بعدها" .

وقد استثنى من ذلك حالات، منها ما ذكره **الإمام النووى** فى شرحه على صحيح مسلم فقال :

"سبب كراهة الحديث بعدها أن يؤدى إلى السهر، ويخاف من غلبة النوم عن قيام الليل أو عن صلاة الصبح فى وقتها الجائز، أو فى وقتها المختار أو الأفضل، والمكروه من الحديث بعد صلاة العشاء هو ما كان فى الأمور التى لا مصلحة فيها، أما ما كان فيه مصلحة وخير فلا كراهة فيه، كمدارسة العلم وحكايات الصالحين، ومحادثة الضيف والعروس للتأنيس، ومحادثة الرجل أهله وأولاده للملاطفة والحاجة، ومحادثة المسافرين بحفظ متاعهم أو أنفسهم، والحديث فى الإصلاح بين الناس، والشفاعة إليهم فى خير، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والإرشاد إلى مصلحة أو ما شابه ذلك، فكل ذلك لا كراهة فيه" [1].

هل علمت الآن لماذا كان **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه يضرب الناس بدرته بعد صلاة العشاء ويقول : أسَمَرٌ أول الليل ونومٌ آخره ؟!.

(2) الحرص على آداب النوم :

كالنوم على طهارة وأداء ركعتى الوضوء، والمحافظة على أذكار النوم، والاضطجاع على الشق الأيمن، ووضع الكف الأيمن تحت الوجه، وقراءة المعوذتين فى الكفين ومسح ما استطاع من الجسد بهما، وغير ذلك من أذكار النوم.

(3) ابذر الخير تحصد الخير :

فمن نام عقب أداء طاعة من صلة رحم، أو بر والدين، أو إحسان إلى جار، أو

(1) شرح النووى على صحيح مسلم (157/3، 158).

صدقة سر، أو ستر مسلم، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، أو إرشاد ضال، أو شفقة على يتيم، أو سعى فى حاجة محتاج، لكوفىء بأن يكون ممن يشهدون الفجر، لأن حسنة المؤمن تستوحش فتدعو أختها إلى جوارها، تأبى التفرد.

(4) انزع الشر تسلم :

وذلك بحفظ الجوارح عما لا يحل لها، فيصرف النظر عن الحرام، وكذلك اللسان والسمع وسائر الأعضاء عما لا يحل لها.

سئل **الحسن البصرى** : لم لا نستطيع قيام الليل ؟ فقال : "قيدتكم خطاياكم" [1].

فمن نام على معصية ارتكبها من غيبة مسلم، أو خوض فى باطل، أو نظرة إلى حرام، أو خذلان محتاج، أو خلف وعد، أو أكل حرام، أو خيانة أمانة، عوقب بالحرمان من شهود الفجر، لأن من أساء فى ليله عوقب فى نهاره، ومن أساء فى نهاره عوقب فى ليله.

(5) استعن بنوم القيلولة :

كان **أبو ذر الغفارى** رضي الله عنه يعتزل الصبيان لئلا يسمع أصواتهم فيقيل، فقيل له، فقال : "إن نفسى مطيتى وإن لم أرفق بها لم تبلغنى" [2].

وهى سنة النبى ﷺ ينفذها **أبو ذر** كما علمه إياها المعلم القدوة ﷺ ، فلا شك أن نوم القيلولة يريح الجسد من تعبه فيقوى الإنسان على الاستيقاظ على أذان الفجر إن لم يكن قبله.



(6) إخوان الخير يساعدون :

فهؤلاء هم العدة والعتاد فى مواجهة رسل النوم وبواعث الكسل بقيادة إبليس، أوصهم بأن يوقظوك وأن ينبهوك ويذكروك، واستعن على ذلك بشهود مجلسهم وحضور منتدياتهم، فمن عاشر قوماً صار منهم، فإن كان قلبك مريضاً شفى، وإن كان ميتاً حيى.

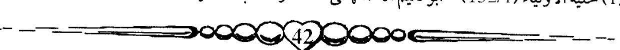
وتذكر : لما بعث الله أهل الكهف بعث كلبهم، ولما أحيا عُزيراً أحيا حماره.

(1) لطائف المعارف ص (107) - ابن رجب الحنبلى - ط مؤسسة الأهرام.
(2) الزهد ص (312) - ابن المبارك - ط ابن خلدون.

(7) اعرف قدر الآخرة :

لو قيل لك : احضر إلى مكان فى تمام الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، فإنه سوف يأتيك من يسلمك عشرة آلاف جنيه . . ترى ماذا كنت فاعلاً ؟ لا شك أنه لن تغفل لك عين ولن يطيب لك نوم ، بل ستظل تتقلب على جمر الشوق وتتقلى فى نار القلق ، وتعد الساعات بل الدقائق والثوانى كأنها الدهر قدامك ، ولذهبت قبل الموعد بساعة تنتظر بلهفة حضور الجنيهات .

ويحك : عشرة آلاف جنيه أم الجنة ؟ ثواب الدنيا أم الآخرة ؟ لذة ساعة أم نعيم الأبد ؟ لو عرفت قدر الآخرة حقاً لأفاق قلبك المخمور ، ولو تذكرت ما علمه إياك مدرس الحساب وأنت صغير ، لكان حالك غير حالك ، علّمك أن (البسط / ما لا نهاية = صفر) فالدنيا مهما عظم قدرها وعلا شأنها هى البسط والآخرة هى المقام ، وما الدنيا إلى الآخرة إلا صفر مهمل وسراب خادع ووهم كبير ، فحصّل ما استطعت فى المقام ليطيب لك فى الجنة المقام ، ولا تطلب البسط كل البسط فإنه سبحانه وتعالى قال لك : ﴿وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء : 29] .



(8) انتقم من عدوك :

فإذا فاتك شهود الفجر فانتقم من شيطانك انتقاماً يؤلمه ، فيحذرك ويخاف الاقتراب منك ، بعد أن كان يُعدُّك من قبل لتكون ذباب طمع وفراش نار ، وخطة الانتقام تتمثل فى صيام هذا اليوم الذى ضيّع عليك صلاة الفجر فيه ، أو قراءة جزء من القرآن زائداً عن وردك ، أو أداء أى عبادة مما تجد فيها النفس مشقة وتعباً ، وكلما عظمت المشقة زاد الشيطان فرقاً ، فقابل كل ضربة منه بضربة ، وكل غفلة بيقظة ، وكل سقطة بنهضة ، تنجُ من كيده وتسلم من أذاه ، وإياك إياك والمداهنة فإنها دليل الذل وعلامة الجبن وبداية الهزيمة .

هى وصية أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه التي يبث لك فيها الأمل ، مهما طوقتك ذنوبك وحاصرتك آثامك ، يقول رضي الله عنه : "ادرؤوا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات ، فلو أن أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء ، ثم عمل حسنة أدلت فوق سيئاته حتى تقهرهن" [1] .

كما هى وصية عبد الله بن عمر رضي الله عنه الذي كان يؤثر النصيحة بالحال على النصيحة

(1) حلية الأولياء (152/1) - أبو نعيم الأصفهانى - ط دار الكتب العلمية .



بالمقال، فكان رضي الله عنه إذا فاتته صلاة جماعة صلى تطوعاً إلى الصلاة الأخرى [1]، إرغاماً للشيطان وتأديباً له ونكاية فيه.

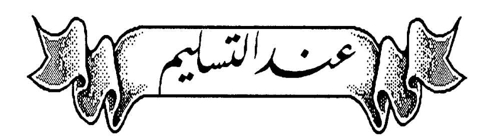
(9) المح عاقبة الصبر:

من عرف حلاوة الأجر هانت عليه مرارة الصبر، والعاقل الفطن له فى كل ما يرى حوله عبرة، فهو يرى أنه ما ابيض وجه رغيف حتى اسود وجه خبازه، وما علت اللآلىء الأعناق إلا بمعاناة الغوص فى الأعماق، ومن سهر الليالى بلغ المعالى، ومن استأنس بالرقاد استوحش يوم الرقاد، لا يحل لحم الغزال دون ذبحه، ولا يطيب إلا بأن يصلى النار، إضاءة الشمعة إفناء نفسها، وكلما طال سفر القافلة عظم ربحها، وإذا كانت السلعة غالية رامت همماً عالية، صاح بهذا أستاذ الصبر الأول فقال ﷺ: «ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة» [2]، فتذكر هذا تفق على صوت الديك، وإلا فقد سبقتك الديوك:

قُم بنا يا أخى لما نتمنى ... واطرد النوم بالعزيمة عنا
قم فقد صاحت الديوك ونادت ... لا تكون الديوك أطرب منا



(1) حياة الصحابة (123/3).
(2) رواه أبو نعيم فى الحلية والحاكم والعقيلى فى الضعفاء عن أبى كما فى ص ج ص رقم (6222).



عند التسليم

♥ **أخى المشترك :**

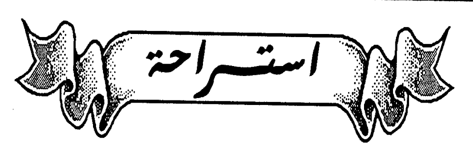
اقرأ هذه السطور وأسقط معانيها على صفقتك التى عقدتها لتوك . .

يقول صاحب الإحياء : " اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب منها : الإصرار والمواظبة ، ولذلك قيل : لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار ، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها ، فإن العفو أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها ، ومثال ذلك : قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : « خير الأعمال أدومها وإن قلَّ » .

والأشياء تتميز بأضدادها ، وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل ، فالكثير المنصرم قليل النفع فى تنوير القلب وتطهيره ، فكذلك القليل من السيئات إن دام عظم تأثيره فى إظلام القلب " [1] .



(1) إحياء علوم الدين (34/4) .



﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ [النحل : 66] .

* غلا ثمن **الراحلة** . . لما صابرت طول السفر وقلة الزاد ، فاستحقت أن تكرم وتزين وتظل حياتها عزيزة حتى يتوفاها الموت ، وأما غيرها من الإبل فأرخصها نفاد صبرها وضعف تحملها ، لذا تأكل لتؤكل وتكرم لتذبح ، وغاية إكرامها : إخفاء السكين عنها ساعة الذبح .

* إذا فرغ **التمساح** من طعامه . . فغر فاه واسعاً ليسمح لعصفور صغير بالتقاط بقايا الطعام من بين أسنانه ، خشية أن ينخر فيها السوس ، وبعض الناس ينخر فيه السوس منذ زمن دون أن يسمح لأحد بالتقاط أصل الداء منه ، لا التمساح شابه ولا العصفور قلّد . . أخى إن لم تكن فاعلاً فمتفاعلاً . . إن لم تدبِّج خطبة فاحضرها . . إن لم تُلق درساً فاشهده . . إن لم تكن أهلاً لإصلاح غيرك ، فلا تمانع فى أن يقوم غيرك بإصلاحك .

* **الحمام الزاجل** . . إذا أطلقه صاحبه فى توصيل رسالة كابد قرص الشمس ، وواصل الليل والنهار محتملاً ما يقابله من رياح وأمطار ورعد وبرق ، وحلّق عالياً خشية أن تناله سهام الصياد ، وهو مع هذا يحذر النزول على حبة قمح ملقاة ، خوفاً من خديعة فخ تورث عرقلة سير أو كسر جناح فتضيع الرسالة فإذا أوصل الرسالة أطلق لجناحيه العنان فى البرج يأكل ما يشاء .

فيا حاملى رسائل القرب إلى الله : ماذا كابدتم ؟ وإلى أى علو منه سموتم ؟ وأى فخ عرقل تقدمكم ؟ ويحكم . . غمسة فى الجنة تنسى آلام العمر ، ولحظة واحدة فيها خير من الدنيا وما فيها ، فلم التردد ؟

* **القط** . . إذا أحسنت إليه مرة جعل كلما رآك لاطفك وتمسح بثيابك ، وأنت كل ذرة من بدنك تشهد بإحساننا ، وكل شعرة من جسدك مغمورة بنعمنا ، ومع هذا كله كلما رَغَّبناك فينا رغبت عنا ، وكلما أدنيناك منا أحببت غيرنا ، وكلما واصلناك جافيتنا ، خاصمتنا وأنت أحوج ما تكون إلينا ، وصالحناك ونحن أغنى ما نكون عنك ، هلا

تعلمت من البهائم يا ذا القلب الهائم ، ولا تستعظمن قدرك فقد تعلم قابيل كيف يدفن أخاه من غراب ، وعلم سليمان خبر بلقيس من هدهد .

* **النمل** . . مع صغر حجمه وضعف قوته ، يحمل أضعاف أضعاف وزنه صيفاً ليقتات عليها شتاء ، ودون أن تشغله حلاوة زاد الصيف عن جمع زاد الشتاء لعلمه بضراوة الجوع فيه ، ولكونه أخذ العبرة من كثرة الهالكين فيه . . يا أخي افهم الدنيا صيف والآخرة شتاء ، فقليل من الاعتبار يرحمك الله .

* **الحمار** . . يسير في الليلة المظلمة إلى المنزل فيعرفه ، فإذا خلى سبيله وصل إليه بغير دليل ، وهو مع هذا يفرق بين الصوت الذي به يستوقف والصوت الذي يحث به على السير ، فيا ضالاً طريقه إلى الجنة . . يا فاقداً التمييز بين صوت داعي الجنة وبائع النار ، لم تحصل في الهمة درجة (حمار) . . إذا فهمت همت ، وكلما دنوت من القبور قوى عندك الفتور ، دنو أجلك يزيد من أملك ، ودفنك الكثير من الأعزة ما أثناك بعد عن حب عزة ، آه . . كم نظلم فصلية الحمير .

* **الجلالة** . . هي كل ما يؤكل لحمه من دواب الأرض ، تأكل النجس من الطعام حتى يخبث لحمها ، وقد حرم الفقهاء أكلها حتى تحبس أربعين يوماً ، تأكل فيها طيب الطعام فتطيب وتحل للأكل ، وكثير من الناس غرق في الحرام ففسد حاله وخبث لحمه ، وما أحوج هؤلاء إلى حبس كحبس الجلالة ، لا يتناولون فيه سوى أطايب الكلام وصالح الأعمال ، إلى أن تزكوا أرواحهم وتطيب نفوسهم ، فيستحقون بذلك دخول الجنة التي لا يدخلها إلا ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل :32] ، وعندها تطرب أسماعهم بسماع النشيد الملائكي الخالد : ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر : 73]



* **بعض الناس بهيمة في مسلاخ بشر . . . حيوان في صورة إنسان ...**

– فمنهم حمار يدور برحاه دون أن يتقدم إلى الأمام خطوة ، طلق أخراه وتزوج دنياه ، جلبة بالنهار خشبة بالليل ، سبحان من رفع البهائم فوقه درجة إذ تنفع غيرها وهو لا ينفع نفسه ولا غيره ، ألم أقل لك :

﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان :44]

- ومنهم دودة قز يموت وسط ما ينسج ، الألفة بينه وبين شهواته عجيبة ، والمؤاخاة بينه وبين شيطانه حميمة ، يسعى لحتفه بيده ، ويسير إلى النار فى خطى ثابتة ، شعارهم فى الحياة :

﴿ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ [التوبة : 42]

- ومنهم نعامة يدفن رأسه في الرمال ، يظن أن أحداً لا يرى فسقه ولا يلمح فجوره ، يزعم أنه لم يقتل ودماء الضحية تلطخ يديه ، ويدعى عدم السرقة وبصماته تملأ موقع الجريمة ، يرتدى ثوب التقى وقطرات الخمر تقطر من فمه ، وأمثال هؤلاء :

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة : 9]

- ومنهم حرباء فى تلونها يدخل مجلس الصالحين فيخشع لسماع الأعراف وهود ، ويُثّنِّى على مجالس الطالحين فيطرب لسماع الجيتار والعود ، حُرموا من المعية لأن نفوسهم إمّعية وعقولهم غير ألمعية طريقتهم فى الحياة :

﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ﴾ [النساء : 143]

- ومنهم خفاش فى هيئته المقلوبة ، يعشق الظلام ويكره النور ، يستلذ بالمعصية ويستقبح الطاعة ، مفاهيمه معكوسة لأن فطرته منكوسة لذا :

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر : 45]





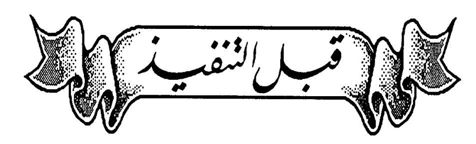


الصفقة الثالثة

صَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ



يا ساهياً في صلاته : جسمك في مصر وقلبك هائم في كل مصر ، صورة بلاروح .. جسد بلاحياة .. عربي النطق أعجمي الفهم ، مثلك مثل من طلب منه الملك جوهرة ثمينة ، لقاء قربه وجعله في الحاشية ، فاشترى حفنة تراب ، ووضعها في سلة قش وقدمها ، فلما رآها الملك غضب ، وكان الطرد والإبعاد بديل القرب والإسعاد .



♥ مراتب خمس :

قال الإمام ابن قيم الجوزية :

" والناس فى الصلاة على مراتب خمس :

♥ أحدها: مرتبة الظالم لنفسه المفرط ، وهو الذى انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها .

♥ الثانى: من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها ، لكن قد ضيع مجاهدة نفسه فى الوسوسة فذهب مع الوساوس والأفكار .

♥ الثالث: من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه فى دفع الوساوس والأفكار ، فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته ، فهو فى صلاة وجهاد .

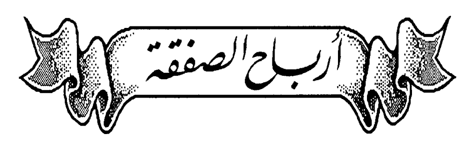
♥ الرابع: من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها واستغرق قلبه فى مراعاة حدودها وحقوقها لئلا يضيع شيئاً منها ، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغى وإكمالها وإتمامها ، قد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها .

♥ الخامس: من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك ، ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدى ربه عز وجل ، ناظراً بقلبه إليه مراقباً له ، ممتلئاً من محبته وعظمته كأنه يراه ويشاهده ، وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات ، وارتفعت حجبها بينه وبين ربه ، فهذا بينه وبين الغافل فى الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض ، وهذا فى صلاته مشغول بربه عز وجل قرير العين به .

فالقسم الأول معاقب ، والثانى محاسب ، والثالث مكفَّر عنه ، والرابع مُثاب ، والخامس مُقرب من ربه " [1] .

---

(1) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص (21) .



(1) التلذذ بالصلاة :

الخاشع يلتذ بصلاته ويستأنس بمناجاته، فسرعان ما تنقضى دون أن يشعر، لأن (سنة الوصل سنة)، فإن أصابته نزلة فتور فهجر الخشوع هجره الخشوع لتمر عليه أيام الهجر كأنها أعوام لأن (سنة الهجر سنة).

يخفف الخشوع أمر الصلاة على العبد، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: 45]، بل يجعل الصلاة لذة فائقة ومتعة غامرة، قال النبى ﷺ: «وجُعلَت قرة عينى فى الصلاة»[1]، فبالمعانى التى يحييها الخشوع فى القلب يعود المسجد قطعة من الجنة مختبئة بين أربعة جدران ولا أروع، فما ثم إلا السرور والنعيم وقرة العين.

كانت هذه اللذة عند **عروة بن الزبير** رضي الله عنه بحراً غرقت فيه سفن الألم، فلم تقترب من شاطىء الجسد ولم تصل إلى عالم الوجدان فكيف كان ذلك ؟

وقعت الأكلة فى رجله فأشاروا عليه بقطعها حتى لا تفسد جسده كله، فأشار عليهم بقطعها فى الصلاة، وخرج بخشوعه من دنيا البشر إلى لذة القرب من الله، فقطعوا كعبه بالسكين دون أن يلتفت، حتى بلغوا عظمه فوضعوا عليه المنشار ونشروها وهو لا يلتفت، ثم جيء بالزيت المغلى فغمرت به فغشى عليه ساعة، ثم أفاق وهو يقول: هل انتهيتم ؟

(2) أرحنا بها يا بلال :

كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وإذا أعياه أذى الناس وصدودهم وبطشهم وكيدهم نادى فى **بلال**: «**يا بلال أقم الصلاة، أرحنا بها**»[2]، ولا تنبعث هذه الراحة من حركات مصطنعة تتخللها كلمات لا تجاوز الحناجر، إنما الراحة حكر على من تدبر آيات الله وعاش فى معانيها، فانتشلته من همومه وأحزانه إلى تسليمه وإيمانه، ونقلته من عالم الألم إلى عالم الأجر، ومن ضيق الدنيا وكدرها إلى سعة الآخرة وصفائها . .

(1) رواه أحمد والنسائى عن أنس كما فى ص ج ص رقم (3124).

(2) رواه أحمد وأبو داود عن رجل من خزاعة كما فى ص ج ص رقم (7892).

الصلاة الخاشعة هى اللمسة الحانية التى يختفى معها التعب فى غمرات السكينة الإيمانية، وعرصات الروحانية العالية . . هى البلسم الشافى لقلق النفس وضعفها، فإذا بها تطمئن بعد قلق إذ بذكر الله تطمئن القلوب، وتسكن بعد اضطراب إذ تتصل بباعث السكينة فى نفوس المؤمنين، وتأمن بعد فزع إذ تركن إلى من رزقها وأجلها بيده وحده، وتقر بعد خوف إذ لن يصيبها إلا ما كتب الله لها .

(3) الأجر على قدر الخشوع :

يتناسب الأجر الذى يناله المرء عن صلاته تناسباً طردياً مع قدر خشوعه فيها، قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل لينصرف وما يكتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها » (1)، ولذا قرر ابن عباس هذه الحقيقة فقال : "ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها" (2).

(4) مغفرة الذنوب :

قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يتوضأ فيسبغ الوضوء، ثم يقوم فى صلاته فيعلم ما يقول، إلا انفتل وهو كيوم ولدته أمه» (3).

ثمن « فيعلم ما يقول » عند الله هو غفران الذنوب، وكأن الخشوع ممحاة تمحو ما مضى وتنسف ما سلف، صلاة واحدة يا أخى تسرى فيها هذه الروح كافية لقلب صحائفك كلها بيضاء .

يا أرباح الخاشعين ما أثمنك . . يا فوز الخاشعين ما أغلاك . .

قال ﷺ : « إن العبد إذا قام يصلى أتى بذنوبه كلها، فوضعت على رأسه وعاتقيه، فكلما ركع أو سجد تساقطت عنه » (4).

ويربط عبد الرؤوف المناوى بين هذا الحديث وبين الخشوع فيقول : "المراد أنه كلما أتم ركناً سقط عنه ركن من الذنوب، حتى إذا أكملها تكامل السقوط، وهذا فى صلاة متوفرة الشروط والأركان والخشوع، كما يؤذن به لفظ العبد والقيام، إذ هو إشارة إلى أنه بين يدى ملك مقام عبد ذليل" (5).

---

(1) رواه أحمد وأبو داود وابن حبان عن عمار بن ياسر كما فى ص ج ص رقم (1626).

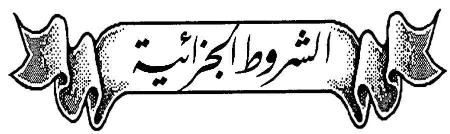
(2) تهذيب مدارج السالكين ص (127) - ابن قيم الجوزية - هذبه عبد المنعم صالح - ط دار التوزيع والنشر الإسلامية.

(3) رواه مسلم والحاكم عن عقبة بن عامر كما فى صحيح الترغيب والترهيب رقم (547).

(4) رواه الطبرانى وأبو نعيم والبيهقى كما فى ص ج ص رقم (1671).

(5) فيض القدير (368/2) - عبد الرؤوف المناوى - ط مصطفى محمد.





قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : "الصلاة مكيال فمن أوفى استوفى، ومن طفّف فقد علم ما قال الله : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين : 1] " (1).

وهذا الوعيد الذى توعده الله للمطففين يظهر جلياً فى :

(1) فوات الأجر :

فإن مراد الصلاة الخشوع وحضور القلب، ومدار الأجر فيها قائم على هذا، وإلا فما أسهل هذرمة اللسان وحركة الأعضاء، وإنما ينال الأجر العظيم على جهد مكافىء له، ببذل فى قطع العلائق الدنيوية واستجماع الهمم الأخروية.

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رجلاً دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس فى ناحية المسجد، فصلى ثم جاء فسلم عليه فقال له رسول الله ﷺ : «وعليك السلام فارجع فصلَ فإنك لم تصل»، فصلى ثم جاء فسلم فقال ﷺ : «وعليك السلام فارجع فصلَ فإنك لم تصل»، فقال فى الثانية أو التى تليها : علِّمنى يا رسول الله، فعلمه رسول الله ﷺ (2).

(2) بئست المناجاة :

رأى النبى ﷺ رجلاً ينقر الصلاة فقال له : «يا فلان ألا تتقى الله ؟ ألا تنظر كيف تصلى ؟ إن أحدكم إذا قام يصلى إنما يقوم يناجى ربه فلينظر كيف يناجيه» (3).

إذا وقف المصلى فى صلاته فإنما يناجى ربه، ولو ناجى ملكاً من ملوك الأرض لارتعدت فرائصه، واقشعر جلده، ووقف شعر رأسه، ولما غفل أو سها لحظة أو أقل، فكيف بمناجاة مَنْ ملوك الأرض جميعاً لا يساوون ذرة فى ملكه ؟ وإذا كان ملوك الدنيا يملكون حطامها وأمثالك يطلبون هذا الحطام، فالأولى أن تعلق آمالك بمن يملك حطام الدنيا ونعيم الآخرة، وأن تعرف قدر السلعة وعظم الجائزة، وعلى هذا الأساس تتعلم فن الطلب وأدب المناجاة.

(1) مكاشفة القلوب ص (80) - أبو حامد الغزالى - المكتبة التوفيقية.
(2) رواه الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى كما فى صحيح الترغيب والترهيب رقم (536).
(3) رواه مسلم والنسائى وابن خزيمة عن أبى هريرة كما فى صحيح الترغيب والترهيب رقم (542).



مرّ **الحسن البصرى** برجل يعبث بالحصى ويدعو : اللهم زوِّجنى من الحور العين، فقال : بئس الخاطب تعبث بالحصى، وتطلب الحور [1].

(3) جريمة سرقة :

قال رسول الله ﷺ : « أسوأ الناس سرقة الذى يسرق من صلاته لا يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها» [2].

هو أسوأ الناس سرقة . . لأنه يسرق فى بيت الملك، وهو واقف بين يديه وليس بينه وبين ربه حاجب ولا ترجمان، فأين الحياء إن لم يكن الأدب ؟

وهو أسوأ الناس سرقة . . لأنه يسرق من صلاته فيفسدها، وهى التى لو فسدت فسد عمله كله، وأصبح إلى العقوبة أسرع منها إلى الثواب.

وهو أسوأ الناس سرقة . . لأن سارق الدنيا ينتفع بما يسرقه ويتمتع به، أما هو فيسرق من حق نفسه فى الثواب، ويشترى بذلك العقاب فى الآخرة.

فأقبح بها من سرقة . . وأعظم بها من جناية . .

وأخبرنى يا مضيِّع الخشوع : ماذا يعز عليك من دينك إذا هانت عليك صلاتك ؟ إذا أردت أن تشعر بقبيح فعلك وعظيم جرمك، فخاطب نفسك بما سبق وخاطب به **أبو الفرج بن الجوزى** أحد البطالين فى زمانه، فقال له : " يا بطّال . . لو سافرت بلداً لم تربح فيه على فوات ربحك، وضياع وقتك، أفلا يبكى من دخل فى الصلاة على قرة العين، ثم خرج بغير فائدة ؟ " [3].

يصــلى فيرسلها كالطيـور ... إذا أرسلت من حصـار القفـص

يقـوم ويقعـد مستعجـلاً ... كمثل الطّـروب إذا مـا رقـص

(4) موت على غير ملة محمد ﷺ :

عن **أبى عبد الله الأشعرى** رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً لا يتم ركوعه وينقر فى سجوده وهو يصلى، فقال : « لو مات هذا على حاله مات على غير ملة محمد» [4].

---

(1) إحياء علوم الدين (202/1) – أبو حامد الغزالى – ط دار إحياء علوم الدين.

(2) رواه أحمد والحاكم عن قتادة وأبو يعلى والطيالسى عن أبى سعيد كما فى صحيح الترغيب والترهيب رقم (525).

(3) الياقوتة ص (114) – ابن الجوزى – ط دار الفضيلة.

(4) رواه الطبرانى فى الكبير وأبو يعلى بإسناد حسن وابن خزيمة فى صحيحه عن أبى عبد الله الأشعرى كما فى صحيح الترغيب والترهيب رقم (529).

وهى كلمة لو سمعها هذا الرجل لخرَّ مغشياً عليه من هولها وثقلها، كلمة تنوء الجبال بحملها، قصد بها النبى ﷺ تعليم أصحابه أهمية السكينة والطمأنينة وحضور القلب فى الصلاة، هى كلمة يوجهها رسول الله ﷺ لفاقدى الوعى فى صلاتهم، يشير عليهم بإصبعه دون مواربة، ويحددهم بأشخاصهم دون غيرهم، ويحذر غيرهم من سلوك طريقهم، ويقول لهم : لو متّم على هذا لمتّم على غير ملتى.

فاستدركوا ما فات عنكم، وابحثوا عما ضاع منكم، مادامت الأنفاس تتردد فالأمل فى اللحاق يتجدد . . ابذروا الإيمان فى الأرض البوار، وأسرعوا قبل فوات القطار، فليس أحد فى قبره يركع ويسجد.

وهذا هو النهج الذى جاءت به ملة محمد ﷺ، وقد يبلغ الرجل من العمر عتياً ولا يكون قد أتم لله صلاة واحدة كاملة الأركان سليمة البنيان.

هذا ما قاله **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه، وقد صعد المنبر يوماً :

إن الرجل ليشيب عارضاه فى الإسلام وما أكمل لله صلاة، ولما سئل عن ذلك قال : لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله تعالى فيها[1].

بل قد يسجد هو وأمثاله سجدة سماها بعض السلف السجدة المذنبة فقال : إن العبد يسجد السجدة عنده أنه يتقرب بها إلى الله عز وجل، ولو قسمت ذنوبه فى سجدته على أهل مدينته لهلكوا، قيل : وكيف يكون ذلك ؟ قال : يكون ساجداً عند الله وقلبه مصغ إلى هوى ومشاهد لباطل قد استولى عليه[2].

وترصد **أم سلمة** حالة التدهور فى الخشوع من لدن رسول الله ﷺ إلى عهد عثمان رضي الله عنه فتقول :

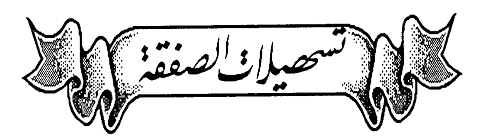
"كان النبى ﷺ إذا قام أحدهم يصلى لم يعدُ بصره موضع قدميه، فتوفى رسول الله ﷺ فكان الناس إذا قام أحدهم يصلى لم يعد بصره جبينه، فتوفى أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما -، فكان الناس إذا قام أحدهم يصلى لم يعدُ بصرهُ موضع القبلة، وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه فكانت الفتنة فالتفت الناس يميناً وشمالاً !!"[3].

(1) قوت القلوب (206/2).

(2) الإحياء (202/1)، قوت القلوب (208/2).

(3) الذل والانكسار للعزيز الجبار ص (54) - ابن رجب الحنبلى - ط مكتبة القرآن.





كثيراً ما تعترى قلوبنا سحب من آثار المعاصى، فيظلم القلب ويبرد الإيمان، قال رسول الله ﷺ : «ما من القلوب قلب إلا وله قلب كسحابة القمر، بينما القمر يضىء إذ عليه سحابة فأظلم، إذا انجلت عنه فأضاء» (1)، لكن هذه السحابة ستنجلى بحول الله وقوته إذا تعرضت للأنوار المشرقة من ثنايا هذه التعليمات :



(1) لبِّ النداء فى الحال :

تصف أم المؤمنين **عائشة** ـ رضى الله عنها ـ حال النبى ﷺ وقت سماعه الأذان فتقول : كان يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه.

قبس **إبراهيم بن ميمون المروزى** من مشكاة الاقتداء، وكان يعمل صائغاً يطرق الذهب والفضة، فإذا سمع النداء وكان رافعاً مطرقته لم يردها، وهذا من فقه الخشوع، لأن الإنسان إذا أسرع بتلبية النداء نزع بذلك نفسه من كل ما يشغله داخل الصلاة، فلا يفكر فى سواها ويصلى حاضر القلب خاشع الفؤاد، أما إذا استرسل مع الشواغل وتأخر عن الإجابة دخل إلى الصلاة وقد بقى قلبه معلقاً بشغله، فيتابع التفكير فيه وتضيع عليه الصلاة، ولذا أوصى **أبو الدرداء** رضي الله عنه وصية مجرب : "من فقه الرجل أن يبدأ حاجته قبل دخوله فى الصلاة ليدخل فى الصلاة وقلبه فارغ" (2).

يرى الخشوع من تمام الفقه لأن الفقه علم، وما العلم بكثرة الرواية، وإنما العلم خشية يورثها الخشوع.

جاء مملوك إلى سيده فقال : ضاعت مخلاة الفرس، فقام السيد يصلى، فلما فرغ من الصلاة قال : هى موضع كذا وكذا، فقال الغلام : يا سيدى أعد الصلاة فإنك كنت تفتش عن المخلاة (3).

---

(1) رواه الحاكم فى المستدرك والطبرانى فى الكبير، وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة رقم (1585).
(2) الإحياء (202/1) - قوت القلوب (205/2).
(3) التبصرة (204/2) - ابن الجوزى - ط دار ابن خلدون.

(2) المسجد قبل الساجد :

عن أنس رضي الله عنه قال : كان لعائشة قرام سترت به جانب بيتها ، فقال لها النبي ﷺ : «أميطي عنا قرامك هذا فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي في صلاتي» [1] ، ويدخل في هذا الاحتراز من الصلاة في أماكن مرور الناس ، وأماكن الضوضاء وبجانب المتحدثين ، وفي مجالس اللغو ، والاحتماء من كل ما يشغل البصر ، ولهذا لما صلى النبي ﷺ في خميصة ذات أعلام (مخططة) ، ونظر إلى أعلامها قال بعد انقضاء صلاته : «شغلتني أعلام هذه ، اذهبوا بها إلى أبي جهم ، وأتوني بأنبجانية» [2] .

(3) لا صلاة لهؤلاء :

قال النبي ﷺ : «لا صلاة بحضرة الطعام ، ولا هو يدافعه الأخبثان» [3] ، والأخبثان هما البول والغائط ، ولا يستطيع الإنسان الخشوع وهو يدافعهما ، وبالنسبة للطعام فلأنه إذا حضر بين يدي المصلي قام يصلي ونفسه متعلقة به ، لذا يجب على الجائع أن يبدأ بطعامه قبل صلاته ، ولا يعجل حتى تنقضي حاجته لقول النبي ﷺ : «إذا وضع عشاء أحدكم وأقيمت الصلاة فابدؤوا بالعشاء ، ولا يعجل حتى يفرغ منه» [4] .

(4) إياك وتكبيرة الكذابين :

تكبيرة الإحرام . . هي مفتاح الدخول على ملك الملوك ، ودليل افتقار المخلوقين إلى الخالق ، وشهادة إقرار بعظمة الرب وحقارة العبد .



الله أكبر . . تعني أن الله أكبر من كل شيء ، فإذا بالدنيا تنكمش وتنكمش حتى تعود إلى أصلها وحقيقتها ، فتكون في نظرك كما هي في نظر الله لا تساوي جناح بعوضة ، فعش هذا بقلبك مع كل تكبيرة ، إذا سهوت أثناء قيامك ثم ركعت أيقظك صوت الله أكبر ليذكرك بضرورة الصدق مع نفسك ، وموافقة قلبك لسانك فيما يقول ، وإذا غفلت في سجودك ثم قمت منه نبهك صوت : الله أكبر . . ليبعث فيك التعظيم يسري من فمك إلى أذنك ، ومن أذنك إلى قلبك ، فيكون تعظيم القلب تالياً لتعظيم اللسان .

---

(1) رواه البخاري وأحمد عن أنس كما في ص ج ص رقم (1405) ، والقرام : ستر رقيق من صوف ذي ألوان .

(2) رواه الشيخان عن عائشة كما في اللؤلؤ والمرجان رقم (326) .

(3) رواه مسلم وأبو داود عن عائشة كما في ص ج ص رقم (7509) .

(4) رواه الشيخان وأحمد وأبو داود عن ابن عمر كما في ص ج ص رقم (831) .

ويعجب المرء . . ألا يستحى المرء من أن يبدأ يومه بكذب على الله ؟ يدخل إلى صلاة الفجر بتكبيرة الله أكبر وهو كاذب فى دعواه، ثم يبدأ بدعاء الاستفتاح فى الصلاة فيقول : "وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض . . " ، ثم هو بعد ذلك وجهته شهوته ، وقبلته متعته ، وغفلته مركبه ، وإلهه هواه .

فإذا أردت يا أخى الخشوع فابدأ صلاتك بصدق ، ودع عنك تكبيرة الكذابين ، وفجِّرها فى وجه الشيطان ، واصدع بقوة : الله أكبر . .

(5) صلِّ صلاة مودع :

قال النبى ﷺ موصياً أبا أيوب : « إذا قمت فى صلاتك فصل صلاة مودع » (1) .

يريد أن يقول لأبى أيوب ولمن جاء بعد أبى أيوب : قم إلى صلاتك وظلال الموت تغمرك ، وأنفاس ملك الموت تمازج أنفاسك ، يوشك أن يستدرك فيقبض روحك فور تسليمك فهى آخر صلواتك ، وخاتم عهدك بدنيا البشر ، وإيذان بقرب طى صحيفتك وفراغ حفظتك ، فأدها أداء من علم أنه ليس بينه وبين القدم على ربه غير التسليم . . عندئذ تخشع .

ولأهمية الوصية يكررها النبى ﷺ ، ولكن هذه المرة إلى أنس رضي الله عنه فيقول له : « اذكر الموت فى صلاتك ، فإن الرجل ، إذا ذكر الموت فى صلاته لَحَرِىَ أن يحسن صلاته » (2) .

كان لأبى حلال العتكى طريقة عجيبة فى اقتلاع حشائش الدنيا من قلبه قبيل الصلاة ، وغرس أشجار الآخرة بدلاً منها ، يهزها فتساقط من ثمار الخشوع رُطبًا جنيًا ، لكنه كريم لا يمنع فضله عن غيره ، فطنٌ يريد أن يصيب أجوراً كثيرة بعبادة وحيدة ، لذا كان يأتى فوق غرفة فيأتى بعض أبوابها فيشرف على شق من ناحية الحى فينادى : يا فلان بن فلان (من الأموات) ، ثم يقبل على الشق الآخر فيقول مثله ، حتى يأتى على الأركان الأربعة ، ثم يقول : ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم : 98] ، ثم يُقبل على الصلاة وقد استقر ذكر الموت فى قلبه وقلب من سمعه (3) .

(1) رواه أحمد وابن ماجة عن أبى أيوب كما فى ص ج ص رقم (742) .

(2) رواه الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس ، وحسنه الألبانى فى ص ج ص رقم (849) .

(3) حلية الأولياء (3/ 105) .



(6) رتل وحسن صوتك :

وهو أمر الله لنبيه ﷺ : ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل :4] ، لذا كانت قراءة النبى ﷺ مفسرة حرفاً حرفاً ، وهذا الترتيل أدعى إلى التفكير والخشوع بخلاف العجلة والإسراع .

وصنو هذا تحسين صوتك بتلاوة القرآن ، وهى وصية أريجها أطيب من شذى الزهور والرياحين ، يهديها إليك رسول الله ﷺ فيقول : « زيّنوا القرآن بأصواتكم . فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً »[(1)] .

ولا يتذرع أحد بقبح صوته فإن النبى ﷺ أخبر أن جمال الصوت يكون مع القراءة بحزن ، فقال ﷺ : « أحسن الناس قراءة الذى إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله »[(2)] .

(7) تدبر وتفاعل :

من أراد الوصول إلى بر الخشوع فعليه أن يبحر فى بحر التدبر ، وأن يغوص فى نهر الدموع . . قال عز وجل : ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص : 29] ، ومن تدبر دمعت عيناه ، ومن لم يجاوز القرآن حنجرته إلى قلبه قسا وأجدبت عيناه .

قال ترجمان القرآن الحبر **عبد الله بن عباس** رضي الله عنهما : " إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا ، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه "[(3)] ، وسجدة سبحان هى سجدة سور الإسراء فى قوله تعالى : ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء :109] .

وبكاء القلب هو التدبر الذى يورث الخشية ، وبكاء القلب حتمًا سيورث بكاء العين ، لذلك إن رزقت هذه الخشية فأبشر فقد أوشكت على الوصول ، ومما يعين كثيراً على التدبر ترديد الآيات وتكرارها كما كان يفعل النبى ﷺ ، فقد قام ليلة بآية واحدة حتى طلع عليه الصبح ، وهى قول الله تعالى : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة :118][(4)] .

---

(1) رواه الحاكم عن البراء كما فى ص ج ص رقم (3581) .

(2) رواه البيهقى فى الشعب والخطيب البغدادى عن ابن عباس والديملى فى الفردوس عن عائشة كما فى ص ج ص رقم (194) .

(3) قوت القلوب (1 / 99) .

(4) رواه ابن خزيمة وأحمد (5/149) ، وهو فى صفة الصلاة ص (102) .

(8) حقق معانى الصلاة :

كل عمل من أعمال الصلاة يرمز لمعنى ويرمى لمغزى ، له دلالة وفى طياته إيماء :

♥ **الوضوء** . . هو مشاركة السماء لك وإفاضتها عليك بمعنى التزكية والسمو والترقى والعلو ، أو هو إزالة غبار شهواتك الذى امتد إلى أطرافك وغمر أعضاءك ، فهو طهارة الظاهر والباطن معاً ، وماؤه الماء الذى يروى شجرة الخشوع فى القلب ، لتنمو وتنمو إلى أن تثمر وتثمر .

♥ **استقبال القبلة** . . هو استدبار غيرها ، وكما لا يتوجه إلى الكعبة إلا بالانصراف عن غيرها ، فكذلك القلب لا يتوجه إلى الله إلا بالانصراف عن غيره .

♥ **القيام** . . هو الوقوف بين يدى الله بلا حاجب ولا ترجمان ، تدريباً لوقوف أشق غداً يوم العرض الأكبر .

♥ **السجود** . . هو تمكين أعز أعضائك (الجبهة) ، من أذل الأشياء وهو التراب وهذا هو قمة الخضوع والتذلل لله ، وأنت بذلك ترد الفرع إلى الأصل ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ [طه :55] ، وتنال جائزة : « ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه خطيئة »[1] .

(9) حذار من خنزب :

عن أنس أن **عثمان بن أبى العاص** أتى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إن الشيطان قد حال بينى وبين صلاتى وقراءتى يلبسها ، قال رسول الله ﷺ : « ذاك شيطان يقال له خنزب ، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه ، واتفل عن يسارك ثلاثاً » ، قال : ففعلت ذلك فأذهبه الله عنى »[2] .

(خنزب) شيطان الصلاة الذى لا عمل له سوى إفساد صلاتك وتضييع خشوعك ، يبدأ عمله مع تكبيرة الإحرام وينتهى مع التسليم ، وبينهما الوسوسة وقطع الطريق ، فلا سير إلى الله بل بعيداً عنه ، ولا زياده فى إيمان بل أخذاً منه ، ولا بناء قلب بل قلبُ قلبْ ، وتفصيل ذلك أن يلقى فى قلبك ذكر أمور الدنيا التى لم تكن حاضرة فى ذهنك قبل دخولك الصلاة فتنشغل بها وتستيقظ على تسليم الإمام معلنًا انتهاء - أو بالأحرى - ضياع الصلاة .

---

(1) رواه أحمد والترمذى والنسائى وابن حبان عن ثوبان كما فى ص ج ص رقم (5741) .

(2) رواه مسلم عن أنس كما فى مختصر صحيح مسلم رقم (1448) .

فقه سلفنا الصالح هذه العداوة ، فلما جاء رجل إلى الإمام الأعظم **أبى حنيفة النعمان** ، يشكو إليه أنه دفن مالاً فى الصحراء ونسى مكانه ، فما العمل ؟ فأجابه الإمام أن قُم من الليل فتوضأ وصَلِّ ركعتين وادع الله أن يذكرك مكان المال .

فى اليوم التالى جاء الرجل متهلل الأسارير منشرح الصدر ، فسأله الإمام : ماذا فعل الله بك ؟ قال : كل خير ، قمت كما أوصيتنى فتوضأت وشرعت فى الصلاة وبينما أنا أصلى إذ تذكرت مكان المال ، فقال له الإمام : كنت أعلم أن الشيطان لن يتم عليك صلاتك .

فالحذر الحذر من هذا العدو ، ونفِّذ وصية النبى العدنان لتصل بتوفيق الله إلى بر الأمان .



(10) عليك بصلاة أبى اليقظان :

صلى **عمار بن ياسر** رضي الله عنه صلاة خففها ، فقيل : خففت يا أبا اليقظان ، فقال : هل رأيتمونى نقصت من حدودها شيئاً ؟ ، قالوا : لا ، قال : فإنى بادرت سهو الشيطان [1] ، وكذلك كان **الزبير وطلحة** رضي الله عنهما ، ونفر من صحابه النبى ﷺ من أخف الناس صلاة ، ولما سئلوا فى ذلك قالوا : " نبادر بها وسوسة العدو "[2] .

وحد الاعتدال فى هذا أن لا تطيل صلاتك إطالة تؤدى إلى سهوك وغفلتك عن معانيها ، ولا تقصرها إلى حد يخل بخشوعك فيها .

قال **أبو طالب المكى** فى القوت : " واعلم أن طول الصلاة عليك غفلة وقصرها سهو ، لأنها إذا طالت عليك دل ذلك على عدم الحلاوة ، ووجود الثقل بها ، وكبرها على جوارحك ، وإذا قصرت عليك وخفت ، دل على نقصان حدودها ، ودخول الغفلة والسهو فيها ، فالنسيان قصرها والاستقامة فى الصلاة أن لا تطول عليك لوجود الحلاوة ولذة المناجاة وحسن الفهم واجتماع الفهم ، ولا تقصر عليك ليقظتك فيها ورعايتك حدودها وحسن قيامك بها ، وهذا مراقبة المصلين ومشاهدة الخاشعين "[3] .

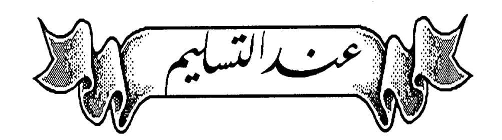
وما أنت بالمشتاق إن قلت بيننا طوال الليالى أو بعيد المفاوز

(1) الإحياء (1/ 202) ، قوت القلوب (2/ 205) .

(2) السابق .

(3) قوت القلوب (2/ 208) .





• الله أكرم :

حكى عن **عبد الله بن المبارك** ـ رحمه الله ـ أنه جاء إليه فى بعض الأيام سائل ليسأله شيئاً من الطعام ، فلم يجد عنده شيء سوى عشر بيضات فأمر جاريته بأن تعطيه إياها ، فأعطته تسعة وخبأت واحدة فلما كان وقت غروب الشمس ، جاء رجل فدق الباب وقال : خذوا منى هذه السلة ، فخرج عليه عبد الله وأخذها منه ، فرأى فيها بيضاً ، فعده فإذا هو تسعون بيضة ، فقال لجاريته : أين البيضة الأخرى ؟ كم أعطيت السائل ؟ فقالت : أعطيته تسعاً ، وتركت واحدة نفطر عليها ، فقال لها : غرَّمتنا عشراً[1] .



(1) الفتح الربانى ص (197 ، 198) - عبد القادر الجيلانى - ط دار الريان للتراث .



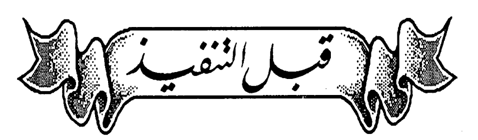
الصَّفقةُ الرَّابعةُ

أُبوَابُ السَّماءِ مفتُوحَة



إذا أجدبت الأرض، وجف الضرع، وانقطع الماء عن الزرع، مد الزرع يد الطلب يستعطى، وأمال الرأس خاضعا، وخلع ثوب الأوراق شاكيا، طالبا من الله حرارة الشمس، وبرودة الماء، ولطف الهواء، واحتضان التربة، مناديا إياك بلسان حاله: " بى مثل ما بك ولم أقبل على غيره وعلتنا متشابهة ولم ألجأ إلى سواه، خالقنا واحد ولم أطرق باب فقير مثلى، فتعلم منى" .





★ استغاثة :

★**حين** تصرخ من قسوة الظلم فلا تسمع سوى صدى صوتك، وتتأوه من شدة الألم فلا تجد غير رجع الأنين، وتنهمر من عينيك العبرات من وقع القهر، فاعلم أنك تملك سهاماً نافذة يغفل عنها الظالمون، ولا يغفل عنها رب الظالمين، تنطلق من قوس دعائك لحظة أن تصدح بهتاف . . **يا رب** . .

★ **حين** تشكل ذنوبك سداً يحول بينك وبين النور، وحين تمثل آثامك قيداً يمنعك من المسارعة فى الخيرات، وحين يعلو الران وتستحكم الأقفال، فاعلم أن لك رباً يغفر الذنوب جميعاً، إذا سمع منك ابتهالات هتاف . . **يا رب** . .

★ **حين** يضطرب الموج، وتهيج العاصفة، وتطيش العقول، ويعلو الصراخ، ويفتضح الضعف، ويعترف الناس بعجزهم وقدرته، وفقرهم وغناه، عندها تلهج الألسنة فى استماتة وضراعة، باستنجادات هتاف . . **يا رب** . .

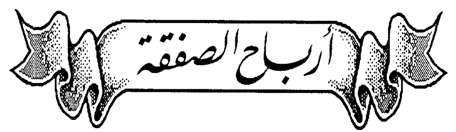
★ **حين** تسلك الطرق فتجدها قد سُدت، وتطرق الأبواب فتجدها قد أغلقت، وتطلب العون من أهل العون فما ثم إلا عاجز أو جبان، فاعلم أنه إنما سد عليك الأبواب كلها لتطرق بابه، وقطع عنك الحبال جميعها لتعتصم بحبله، وأنه اشتاق إلى أن يسمع منك نغمات هتاف . . **يا رب** . .

★ **حين** تحل النكبة، وتستحكم البلية، وتتكسر النصال على النصال، وتربط حبال الخطوب عقدها، وتكون ظلمات بعضها فوق بعض، فتيقن أن نوراً عظيماً يبدد دياجير هذه الظلمات، يشرق من ثنايا هتاف . . يا رب . .

★ حين يستند الغنى إلى ماله، ويعتمد القوى على بطشه، ويركن صاحب الجاه إلى نفوذه وسلطانه، فإن المؤمن يطرح كل هذه القوى بعيداً، ويستند إلى ربها وموجدها ويأوى إلى ركن شديد، حين تنطلق من أعماق أعماقه استغاثات هتاف . . **يا رب** . .







أنشد **الحطيئة** أمام أمير المؤمنين **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه قائلاً :

من يفعل الخير لا يُعدم جوائزه ... لا يذهب العُرف بين الله والناس

ومن هذه الجوائز المستحقة بالدعاء أنه :

(1) أكرم شيء على الله :

قال النبي ﷺ : «**ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء**» (1).

وسبب هذه الكرامة : أن الدعاء في معناه الضمني هو تأكيد الإنسان على إنسانيته بكل ما تحويه من ضعف وعجز وجهالة، واعترافه بقدرة الله وعظمته وقيوميته، أي إقراره بأن الرب رب والعبد عبد، وإعادته سيرته الأولى إن كانت نفحة كبر أصابته، أو طائف من غرور مَسَّه .

وهذا هو جوهر العبادات ولبها، وليس العجب من عبد يتذلل لسيده ويتقرب إليه ولا يمل خدمته، فكل عبد محتاج إلى سيده مفتقر إليه لا يستطيع العيش بغيره، وإنما العجب كل العجب من سيد يتحبب إلى عبده بصنوف النعم وفيوضات الكرم، ويتودد إليه بشتى أنواع الإفضال والإحسان، مع غناه عنه وعدم احتياجه إليه .

هذا الربح لمح بريقه من بعيد **مطرف بن الشخير**، فانطلق يحكي ما رأى :

" تذكرت ما جماع الخير فإذا الخير كثير : الصوم والصلاة، وإذا هو في يد الله عز وجل، وإذا أنت لا تقدر على ما في يد الله عز وجل إلا أن تسأله فيعطيك، فإذا جماع الخير : الدعاء " (1).

(2) لا يرد القدر إلا الدعاء (2) :

باب الملك مفتوح وأبواب العبيد مغلقة، فإذا طرق عبد المغلق وترك المفتوح وآثر

(1) رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد والترمذي والحاكم عن أبي هريرة، وحسنه الألباني في ص ج ص رقم (5392).

(2) الزهد ص (295) - أحمد بن حنبل - ط دار الريان .

(3) رواه الترمذي والحاكم عن سلمان كما في ص ج ص رقم (7687)، والسلسلة الصحيحة رقم (154).

إفلاس المفاليس على غنى الغنى فتعجب من حاله : ظمآن والماء بين يديه . . تائه والدليل أقرب إليه من حبل الوريد، وعند ذاك اعلم أنه صار إلى الحيوان أقرب منه إلى الإنسان . .

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما   والماء فوق ظهورها محمول

وقد يتبادر إلى الأذهان تساؤل مفاده : ما دام القضاء قد مضى والقدر قد سبق به القلم، فما فائدة الدعاء ؟

يجيب **أبو حامد الغزالى** فيقول :

" اعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة، كما أن الترس سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان فكذلك الدعاء والبلاء يعتلجان، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح، وقد قال تعالى : ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء : 71]، وأنه كما يسقى الماء الأرض بعد بث البذر فيه فيقال : إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر وإن لم يسبق لم ينبت، بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذى هو كلمح البصر أو هو أقرب " [1].

رأى أصحاب **نور الدين محمود زنكى** كثرة إنفاقه على الفقراء والمساكين ولا سيما طلبة العلم، وشدة طلبه الدعاء منهم، فعوتب فى ذلك فقال : "والله إنى لا أرجو النصر إلا بأولئك، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم على فراش بسهام لا تخطىء (يريد الدعوات)، وأصرفها إلى من لا يقاتل عنى إلا إذا رآنى بسهام قد تصيب وقد تخطىء " [2].

ولذلك ولنفس السبب طلب إلينا **خالد بن صفوان** أن نتقى دعاء الضعفاء فقال فى كلمات معانيها أكبر بكثير من عدد كلماتها : «اتقوا مجانيق الضعفاء» [3].

(3) اطلب ما تشاء :

قال **ابن عطاء الله السكندرى** فى إحدى حكمه : "كفى من جزائه إياك على الطاعة أن

---

(1) الإحياء (390/1).

(2) وقفات مع الأبرار ص (105) نقلاً عن خطط الشام الكردعلى - محمد لطفى الصباغ - ط المكتب الإسلامى.

(3) البيان والتبيين (352/1) - الجاحظ - ط مكتبة الخانجى.

رضيك لها أهلاً، ومتى أطلق لسانك فاعلم أنه يريد أن يعطيك " (1).

يعطيك ما تشاء وقتما تشاء وكيفما تشاء مهما عز مرادك وعظم مطلوبك.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60].

قال الإمام القشيري في تفسيره (لطائف الإشارات): "ادعوني بالطاعات أستجب لكم بالثواب والدرجات، ويقال: ادعوني بلا غفلة أستجب لكم بلا مهلة، ويقال: ادعوني بالتنصل أستجب لكم بالتفضل، ويقال: ادعوني ببذر الطاعة أستجب لكم بكشف الفاقة، ويقال: ادعوني بالسؤال أستجب لكم بالنوال والإفضال" (2).

ومطالب العبد لا تنفد وحاجاته لا تنتهي، فإذا أوى إلى ركن الله وألقى حمله عليه بالكلية لبى وأجاب، قال النبي ﷺ: «ادعُ إلى ربك الذي إن أمسّك ضر فدعوته كشف عنك، والذي إن أضلك بأرض فلاة قفر فدعوته ردّ عليك، والذي إن أصابتك سنة فدعوته استجاب لك» (3).

واعلم أن من أعطىَ منشور الدعاء أعطىَ الإجابة، فإن الله لو لم يرد إجابته لما ألهمه الدعاء كما قيل:

لو لم ترد نيلَ ما أرجو وأطلبهُ ... من فيض جودك ما عوّدتني الطلبا

وإليك بشارة ونذارة ابن عطاء السكندري: "ما توقّف مطلب أنت طالبه بربك، ولا تيسّر مطلب أنت طالبه بنفسك" (4).

(4) دعاء الذليل أفضل الطاعات:

وبذا أخبر النبي ﷺ، فقال: «أفضل العبادة الدعاء» (5).

وما نال الدعاء هذا الفضل إلا لأن العبد فيه يرمي بنفسه بين يدي خالقه، خارجاً من حوله وقوته إلى حول الله وقوته، مُقراً بالإساءة والعجز والجهالة، مسلماً بكمال الله وعظمته وقوته، وبهذين: سوء ظن بنفسه وتعظيم ربه يصل أو يوشك.

---

(1) شرح الحكم (69/1) - ابن عباد النفرى الزندى - ط دار إحياء الكتب العربية.

(2) لطائف الإشارات (313/3) - الإمام القشيري - ط الهيئة المصرية للكتاب.

(3) رواه أحمد وأبو داود والبيهقي عن أبي بكرة كما في ص ج ص رقم (244).

(4) شرح الحكم (25/1).

(5) رواه الحاكم عن ابن عباس وابن سعد عن النعمان بن بشير كما في ص ج ص رقم (1122).

هذه تجربة **ابن قيم الجوزية** فى الدخول على الله ، حكاها لنا فقال ـ رحمه الله ـ : " دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها ، فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام ، فلم أتمكن من الدخول حتى جئت باب الذل والافتقار ، فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه ولا مُزاحم فيه ولا مُعوِّق ، فما هو إلا أن وضعت قدمى فى عتبته ، فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدى وأدخلنى عليه " [1] .

(5) أرباح غير مرئية :

قال ﷺ : « ما من داع يدعو الله إلا أتاه بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له حاجته ، وإما أن يعطيه من الخير مثلها ، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها » [2] .

فليس الخير دائماً كما تظن ، فى إجابة سؤلك وتحقيق طلبك .

• **فربما** . . لم يجبك لكنك لا تعلم ما رده الدعاء عنك من بلاء ، وما جرى من تصارع بين البلاء النازل والدعاء الدافع الذى انتهى بنجاتك ودفع الشر عنك ، فحمداً لله على سلامتك .

• **وربما** . . لم يجبك لأنه سبق فى علمه أن كفة حسناتك لن ترجح يوم القيامة ، إلا أن يوزن فيها أجر دعائك المؤجل إلى الآخرة ، فإذا رأيت يوم القيامة أن ما أجبت فيه قد ذهب ، وما لم تجب فيه قد بقى ثوابه قلت : ليتك يا رب لم تجب لى دعوة قط !!

• **وربما** . . لم يجبك لسابق علمه أن الخير فى صرف هذا المطلوب عنك ، فهو وحده المطلع على الغيب ولذا فهو الأدرى بما ينفعك ويصلحك ، فإن كان المطلوب مالاً فلربما أطغاك وأفسدك ، وإن كان ولداً فلربما كبر عاقاً فأعياك وأجهدك ، وإن كان عملاً أو وظيفة فلربما فتحت لك باباً للحرام أرداك وضيعك ، فكم من محبوب فى مكروه ومكروه فى محبوب ولا يعلم ذلك إلا الله .

• **وربما** . . لم يجبك لأنك أدخلت الحرام فى رزقك أو أسكنت شهوة فى قلبك ، فيكون عدم الإجابة بمثابة لفت نظر لتصحيح ما سبق وتستدرك ما فات .

• **وربما** . . لم يجبك لأنه أراد أن يصل حبالاً قطعتها ووشائج هجرتها ، فألجأك إليه

---

(1) تهذيب مدارج السالكين ص (229) .

(2) رواه الترمذى عن عبادة بن الصامت رقم (3573) .



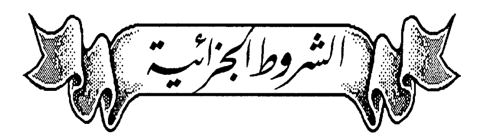
حتى يسمع همسك فى الأسحار ويرى دمعك المدرار، فيغسل ذنوباً لا يغسلها غير دموع الأسى على ما فات والندم على ما انقضى.

أليس هذا الذى قلناه هو ما أوجزه **ابن عطاء** فى قوله :

" لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح فى الدعاء موجباً ليأسك، فهو قد ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك لا فيما تختاره لنفسك، وفى الوقت الذى يريد لا الوقت الذى تريد " [1].



(1) شرح الحكم (7/1).



من ترك الدعاء فقد :

(1) غضب الله عليه :

قال النبى ﷺ : «من لم يسأل الله يغضب عليه» [1] .

وهذا بعكس العبد الذى يغضب إن أثقلت كاهله بطلب أو شغلت وقته بسؤال وما أصدق قول القائل :

لا تسألن بُنَىَّ آدم حاجة　　وسل الذى أبوابه لا تُحجَبِ

الله يغضب إن تركت سؤاله　　وبُنَىّ آدم حين يُسأل يغضبِ

فطن **يحيى بن معاذ** لهذا المعنى فتذلل به فى دعائه قائلاً : "يا من يغضب على من لا يسأله لا تمنع من قد سألك" [2] .

(2) ووكله إلى نفسه :

فقد أجمع الصالحون على أن الخير كله فى أن يكلك الله إليه ، والهلاك كل الهلاك فى أن يخلى بينك وبين نفسك ، وهى نفس عاجزة لا تملك من أمر نفسها فضلاً عن أمر غيرها شيئاً ، ظالمة تورد صاحبها المهالك وتلحق به المعايب ، جهولة لا تعرف ما يضرها وما ينفعها ، بل قد تعمل أعمالاً تظن أنها صلاح وهى عين الفساد بأن تتحرك فى موضع السكون ، أو تسكن فى موضع التحرك ، أو تقدم فى موضع الإحجام ، أو تُحجم فى موضع الإقدام ، فإذا علم المرء ذلك عن نفسه أدرك هول المحنة وعظم المصيبة إن لم يتداركه الله بعون ، فانطلقت صرخات استغاثته معلناً :

"اللهم رحمتك أرجو فلا تكلنى لنفسى طرفة عين، وأصلح لى شأنى كله، لا إله إلا أنت" [3] .

---

(1) رواه البخارى فى الأدب المفرد رقم (658) والترمذى رقم (3370) وهو حديث حسن .

(2) صفوة الصفوة (66/4) .

(3) رواه أحمد وأبو داود وابن حبان عن أبى بكرة وحسنه الألبانى ص ج ص رقم (3388) .

ليجد الرد من رب كريم جواد على شكل وحى حوى النذارة والبشارة معاً :

أوحى الله إلى داود ﷺ : « يا داود .. أما وعزتى وجلالى لا يستنصر بى عبد من عبادى دون خلقى، أعلم ذلك من نيته، فتكيده السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن، إلا جعلت له بهن فرجاً ومخرجاً .. أما وعزتى وجلالى وعظمتى .. لا يستعصم عبد من عبادى بمخلوق دونى، أعلم ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السماء دونه، ولا أبالى فى أى واد هلك» [1].

وأنت تعلم جيداً أنه (لما طلب آدم الخلود فى الجنة من جانب الشجرة عوقب بالخروج منها، ولما طلب يوسف الخروج من السجن من جهة صاحب الرؤيا لبث فى السجن بضع سنين) [2].

(3) وصار أعجز الناس :



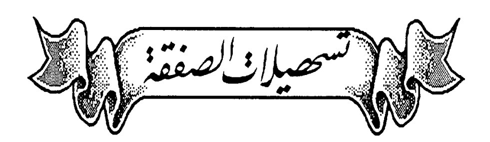
ليس هذا وصفنا له بل وصف الصادق الصدوق ﷺ حيث قال : « وأعجز الناس من عجز عن الدعاء» [1].

من مثلك يا ابن آدم .. خُلِّىَ بينك وبين ربك لا تلقى على بابه حاجباً ولا ترجماناً، تدخل عليه فى أى وقت تشاء فترفع حاجتك وتُقَدِّم مسألتك، فإن قَيَّد الذنب رجليك عن دخول المسجد، وكبَّل النوم يديك عن رفع أكف الضراعة، افتضح أمرك ووصل خبرك إلى رسول الله ﷺ، فأطلق عليك وصف (أعجز الناس) غير ظالم لك أو متَجَنٍّ عليك.

كريم إذا يممت بالصدق بابه ... فإنك لا تلقى على الباب حاجبا
وإن كنت ذا ذنب فتب منه واعتذر ... كأنك لم تذنب إذا جئت تائبا



(2) شرح الحكم (24/1).
(3) الفوائد ص (46).
(4) رواه أبو يعلى عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (1519).



سئل على بن أبى طالب رضي الله عنه : كم بين الأرض والسماء ؟، قال : " دعوة مستجابة " (1)، ليست أميالاً وكيلو مترات بمقاييس المادة، وإنما دعوة مجابة بمقاييس الإيمان، ولكن ما هى شروط إجابة الدعاء ؟

(1) أشهر إفلاسك أولاً :

لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . .

صيحة استغاثة أطلقها يونس عليه السلام من أعماق قلبه الغارق فى دياجير الظلم : ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل، أطلقها وقد ملأته مشاعر الخوف والوحشة والوجل والرهبة، وقد تملكته حالات التضرع والخضوع والتذلل والخضوع ولذا استجيب دعاؤه.

فإذا رددت هذه الكلمات دون أن تغمرك هذه الظلمات فما حظك من دعائك غير تحريك لسانك وتضييع أوقاتك، ومعنى أن تغمرك : أن تنبض كل نبضة من قلبك بمعانى الضعف والفقر والذل والحاجة، وأن تشعر كما شعر نبى الله يونس أن أمواج محنتك محيطة بك من كل جانب توشك أن تغرقك، إلا أن يتداركك الله برحمة منه وفضل، وأن يبرز ذلك فى كلامك واضحاً، فإن كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذى منه برز، وعندها تصل إلى شاطىء الأمان كما وصل ذو النون وعد الله فى كتابه ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء : 88].

هذا الإفلاس سبق وطلبه منك ابن عطاء الله فى قوله :

" تحقّق بأوصافك يمدك بأوصافه، تحقق بذُلِّك يُمدّك بعزه، تحقّق بعجزك يُمدك بقدرته، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته " (2).

عزة الله يا سادة لا تتنزل على عزيز أو من يظن فى نفسه العزة، بل على الأذلاء

(1) البيان والتبيين (3/274، 275).

(2) حكم ابن عطاء ص (211) - ط دار الشعب.



تُمطر ، وقوة الله لا يقطفها إلا من ارتقى أعلى قمم الضعف ، وقدرة الله لا تمنح لقادر أو من يظن فى نفسه القدرة بل لمن نشيده العجز ، ولذا كان **بديع الزمان سعيد الدين النورسى** يردد دائمًا :

(عجـزى كنـزى)

وهذا من علمه وفقهه ونفاذ بصيرته الإيمانية رحمه الله .

(2) أحضر قلبك معك :

قال النبى ﷺ : «واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه» [1].

قال الإمام **الرازى** معلقاً :

" أجمعت الأمة على أن الدعاء اللسانى الخالى من الطلب النفسانى قليل النفع عديم الأثر " [2]، بل يجزم **يحيى بن معاذ** بأن (من جمع الله عليه قلبه فى الدعاء لم يرده) [3].

ولحضور القلب مؤشرات وعلامات ، إذا ظهرت فهى فرصة سانحة فاغتنمها ولا تضيعها وليلهج لسانك عندها بالدعاء فإنك مجاب بإذن الله .

قال **ثابت بن أسلم البنانى** : وإنى أعلم حين يستجيب لى ، فعجبوا من قوله وقالوا : تعلم حين يستجيب لك ربك ؟ ، قال : نعم ، قالوا : كيف تعلم ذلك ؟ ، قال : إذا وجل قلبى واقشعر جلدى وفاضت عيناى وفتح لى الدعاء فثم أعلم أن قد استجيب لى [4] .

فإذا لم يجب دعاؤك فاسأل نفسك وواجهها : هل وجل قلبك ؟ هل اقشعر جلدك ؟ هل فاضت عيناك ؟ فإن كان الرد بالنفى ، فعلى نفسك جنت نفسك فألق باللائمة عليها فهى المستحقة للتهذيب والتأديب لا غيرها .

ونظراً لأن شجرة الإيمان واحدة ونبع التلقى لا يتغير ، فقد فهم هذا الفهم المؤمنون الصادقون رجالاً كانوا أم نساءً . .

قالت **أم الدرداء** ـ رضى الله عنها ـ : إنما الوجل فى قلب ابن آدم كاحتراق السعفة أما

---

(1) رواه الترمذى والحاكم عن أبى هريرة وحسنه الألبانى فى ص ج ص رقم (245) .
(2) فيض القدير (229/1) .
(3) الفوائد ص (62) .
(4) صفوة الصفوة (148/3) .

تجد لهـا قشعريرة ؟، قـال أحدهـم : بلى، قالت : فادع الله إذا وجدت ذلك فإن الدعاء يستجاب عند ذلك.

سهـام الليل صـائبة المـرامـى إذا وُتـرتْ بـأوتـار الخشـوع
يُسَدِّدُهـا إلى المرمى رجـالٌ يطيلـون السجودَ مَع الرُكوع
بـألسـنة تُـهَـمـهـِمُ من دعـاء وأجفـانٍ تَفيـضُ مـن الدمـوع

(3) قدم العمل الصالح :

إن غـاب العـمل الصـالح لـم يرتفع الدعـاء فـوق رأس صـاحبـه شبـراً، وإن حـضـر استجاب الله دعاءه قبل أن يغادر لسانه، وتأمل معى فى الأعمال التى يصل ثوابها إلى الميت بعد موته لترى فيها (وولد صالح يدعو له)، فلولا صلاحه ما وصل دعاؤه وما حصل به نفع.

قـال بعـض السلـف : "الـدعـاء بلا عمل كالقوس بلا وتر" [1].

ولذا لما قال نفر **لأنس بن مالك** رضي الله عنه : يا أبا حمزة ادع الله لنا، قال : "الدعاء يرفعه العمل الصالح" [2].

فاسمع نصيحتى وجَرِّب أن تدعو عقيب دمعة من خشية الله ذرفتها، أو صدقة فى ظلام الليل بذلتها، أو جرعة غيظ تحملتها وما أنفذتها، أو حاجة مسلم سعيت فيها فقضيتها، وستذهلك سرعة الإجابة، فلا ينسينَّك فرحك بها اسم الفقير الذى أرشدك إلى هذه الوصية وأدِّ حقه عليك : اذكرنى بدعوة.

(4) كن على يقين من الإجابة :

قال النبى ﷺ : «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة» [3].

قال **المناوى** : "أى جازمون بالإجابة، لأن الداعى إذا لم يكن جازماً لم يكن رجاؤه صادقاً، وإذا لم يصدق الرجاء لم يخلص الدعاء، إذ الرجاء هو الباعث على الطلب، ولا

(1) نـزهة المجـالـس ومنتخب النفـائـس ص (128) - عبـد الرحمن الصورى الشـافعى - ط المكتبة التوفيقية.

(2) الزهد ص (390) - عبد الله بن المبارك - ط دار ابن خلدون.

(3) رواه الترمذى والحاكم عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (707).



يتحقق الفرع بدون تحقق الأصل، ولأن الداعي إذا لم يدع ربه على يقين أنه يجيبه، فعدم إجابته إما لعجز المدعو أو بخله أو عدم علمه بالابتهال، وذلك كله على الحق - تقدس - محال".

فإن اعتزلت الدعاء بحجة أنك مثقل بالآثام مكبل بالخطايا، فأنى لمثلك أن يستجاب له؟ سألناك وقلنا: أيهما خير أنت أم إبليس؟! ولا تستغرب سؤالنا واسمع إلى سفيان بن عيينة حين يقول: "لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فقد أجاب الله دعاء شر الخلق إبليس إذ قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: 36] وهو شر منك"[1]، قال: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: 37، 38].

(5) مر بالمعروف وانه عن المنكر:

قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم»[2].

فمن لم يبر سهام دعائه بسكين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جاءت سهامه باردة وطاشت، وليست السهام معيبة لكن العيب في الرامي، ومرد ذلك أن الله تعالى خلق أهل المنكر يبتلي بهم أهل المعروف، ويختبرهم ويبلو أخبارهم ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الفرقان: 20]، فإن تقدم الصالحون وبادروا فأمروا ونهوا فقد قدموا البرهان على امتلاء قلوبهم بالإيمان والغيرة على دين الله، فيفرح الله بهم أيما فرح، ويكافئهم على صنيعهم، فيلبي رغباتهم ويقضي حاجاتهم ويحقق أمانيهم ويستجيب دعاءهم، أما من سكت وتخارس وتعامى وتقاعد فهل يرجو مسيء مثل ثواب المحسنين؟! وهل يطمع بطال في منازل الأبطال؟! وهل يترقب كسول تسلم هدية الوصول؟!

(6) لا تستعجل:

قال النبي ﷺ: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: قد دعوت فلم يستجب لي»[3].

ولا تزال مظنة الإجابة قائمة إلى أن يستعجل فعندئذ يغلق باب الإجابة، والمستعجل

(1) المستطرف ص (540، 541).
(2) رواه أحمد والترمذي عن حذيفة، وحسنه الألباني في ص ج ص رقم (7070).
(3) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة كما في ص ج ص (8085).

(بمنزلة من بذر أو غرس غرساً فجعل يتعاهده ويسقيه فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله) [1].

ولتأخير الإجابة حكم لا تخفى على شيخ الحكمة أبى الفرج ابن الجوزى الذى قال: "اعلم أن دعاء المؤمن لا يرد غير أنه قد يكون الأولى تأخير الإجابة، أو يُعَوَّض بما هو أولى له عاجلاً أو آجلاً، فينبغى للمؤمن أن لا يترك الطلب من ربه فإنه متعبد بالدعاء كما هو متعبد بالتسليم والتفويض" [2].

فإذا نفذ صبرك فأنت الخاسر .. أسأت الأدب مع الله فصرت أحد رجلين: إما منان وإما بخيل.

قال ابن بطال معلقاً على الحديث السابق: "المعنى أن يسأم فيترك الدعاء فيكون كالمانّ بدعائه، أو أنه أتى من الدعاء ما يستحق الإجابة، فيصير كالمبخل للرب الكريم الذى لا تعجزه الإجابة ولا ينقصه العطاء" [3].

فلا يدُبّن اليأس إلى قلبك إذا تأخرت الإجابة، فإن حدث .. بدّده صوت الأمل ينبعث معلناً:

جدوا فى الدعاء فإن من يكثر قرع الباب يوشك أن يفتح له ..

أخى القارىء نأسف لهذا الخطأ المطبعى السابق، فمن قال إن الباب مغلق حتى يحتاج أحدٌ إلى فتحه ؟!

كان صالح المرى يقول كثيراً: من أدمن قرع باب يوشك أن يفتح له: فقالت له رابعة: إلى متى تقول هذا؟ متى أغلق الباب حتى ينفتح ؟، فقال صالح: شيخ جهل وامرأة علمت [4].

(7) جدد توبتك:

تشكل ذنوب العبد سداً منيعاً حائلاً دون إنفاذ دعائه، ولا يستبطئن أحدّ إجابة دعائه وقد سدّ طرقاتها بالذنوب، فإذا تخلص منها بتوبة أو غسلها بدمعة أو أحرقها بندم هُدم الجدار، ووصلت رسائله مباشرة وجاءه الرد والإجابة.

---

(1) الداء والدواء ص (24).

(2) فتح البارى (145/11).

(3) السابق.

(4) الرسالة القشيرية ص (268) - ط دار الخير.

ويعجب المرء من قوم يعصون المغيث ويستغيثون به، يبارزون المعين ويطلبون منه، يكفر أحدهم بنعمة ربه ليلاً ويصبح وقد طلب المزيد، ما هذا الإحساس البارد بل ما هذه الجرأة العجيبة ؟!

روى ابن قدامة فى كتاب التوابين أنه لحق بنى إسرائيل قحط على عهد **موسى** عليه السلام، فاجتمع الناس إليه فقالوا : يا كليم الله ادع الله لنا أن يسقينا الغيث، فقام معهم وخرجوا إلى الصحراء وهم سبعون ألفاً أو يزيدون، فقال **موسى** عليه السلام : إلهى اسقنا غيثك وانشر علينا رحمتك، وارحمنا بالأطفال الرضع والبهائم الرتع والمشايخ الركع، فما زادت السماء إلا تقشعاً والشمس إلا حرارة، فأوحى الله إليه : فيكم عبد يبارزنى منذ أربعين سنة بالمعاصى فناد فى الناس حتى يخرج من بين أظهركم فبه منعتكم، فقال موسى : إلهى وسيدى عبدَ ضعيف وصوتى ضعيف فأين يبلغ وهم سبعون ألفاً . . أو يزيدون؟ فأوحى الله إليه : منك النداء ومنى البلاغ، فقام منادياً وقال : يا أيها العبد الذى يبارز الله منذ أربعين سنة، اخرج من بين أظهرنا فبك مُنعنا المطر، فقام العبد العاصى فنظر ذات اليمين وذات الشمال فلم ير أحداً خرج، فعلم أنه المطلوب فقال فى نفسه : إن أنا خرجت من بين هذا الخلق افتضحت على رؤوس بنى إسرائيل، وإن قعدت معهم مُنعوا لأجلى، فأدخل رأسه فى ثيابه نادماً على فعاله وقال : إلهى وسيدى عصيتك أربعين سنة وأمهلتنى، وقد أتيتك طائعاً فاقبلنى، فلم يستتم الكلام حتى ارتفعت سحابة بيضاء فأمطرت كأفواه القرب، فقال موسى : إلهى وسيدى بماذا سقيتنا وما خرج من بين أظهرنا أحد ؟! فقال : يا موسى سقيتكم بالذى منعتكم به، فقال موسى : إلهى أرنى هذا العبد الطائع، فقال : يا موسى إنى لم أفضحه وهو يعصينى أأفضحه وهو يطيعنى؟!! [1].

(8) اشهد مجالس الخير :

فإن الله يستجيب دعاء شاهد مجالس الخير ويغفر له ببركة جلوسه معهم، فيقول لملائكته : «فأشهدكم أنى قد غفرت لهم»، فيقول ملك من الملائكة : "فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة"، فيقول : «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم» [2].

---

(1) كتاب التوابين ص (56، 57) بتصرف - ابن قدامة المقدسى - ط دار المنار ومكتبة فياض.

(2) رواه الشيخان وأحمد عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (2173).

فتأمل - حفظك الله - كيف أجاب الله دعاء هذا الرجل وغفر ذنبه ببركة مجالسة أهل الإيمان حتى وإن كان جلوسه معهم طمعاً فى مال، أو رغبة فى إنفاذ مصلحة، أو نزولاً على رغبة صديق ملحاح لم يجد مفراً من إجابته .

الملك العظيم إذا نزل عليه ضيوف أكرمهم غاية الإكرام فأسكنهم قصره، وقدّم لهم ما لذ وطاب من الطعام والشراب، وهيّأ لهم سبل الراحة والنعيم، ثم أمر بدوابهم أن تعلف وتوضع فى الحظيرة الملكية، فأكرمت البهائم بسبب الصحبة، ونعمت بالزاد والمبيت بسبب الرفقة، وفى هذا إشارة لك :

ارتد ثياب الصالحين تحسب منهم، وزاحم بمنكبيك مجالسهم تُرحم بسببهم، عفواً فلست أحقر من دابة، وربك حاشاه ليس الملك أكرم منه .

(9) تأدب :

كان بعض السلف يقول : إن استطعت أن لا تحك رأسك إلا بأثر فافعل، فالخير كله فى اتباع سنة النبى ﷺ والتأدب بآدابه، ومن ضمنها آداب الدعاء والتى نوجزها فيما يلى :

ادعُ الله وأنت على طهارة مستقبلاً القبلة، رافعاً يديك حذو منكبيك حتى يرى بياض إبطيك، وابدأ الدعاء بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله، ثم الصلاة على النبى ﷺ، وكرر دعاءك ثلاثاً، وألح فيه، ولا تدع بإثم ولا قطيعة رحم، ولا بأمر قد فُرغ منه، ولا بمستحيل وقوعه، واسأل الله بعزم فلا تقل : اللهم اغفر لى إن شئت أو أدخلنى الجنة إن شئت، وتجنب السجع فى الدعاء والتكلف فيه، وليكن صوتك فيه بين المخافتة والجهر، واحرص على جوامع الدعاء من القرآن الكريم ومن السنة المطهرة فهو أرجى للإجابة، واختم بالصلاة على النبى ﷺ كما بدأت، وانتظر بعد ذلك الإجابة فهى أقرب إليك مما تظن .

(10) كن من هؤلاء :

يستجيب الله للمضطر إذا دعاه، وللمظلوم ولو كان فاجراً أو كافراً، ولمن يدعو لأخيه بظهر الغيب وللوالدين على ولدهما وللإمام العادل وللمسافر حتى يرجع وللمريض حتى يبرأ، وللصائم حتى يفطر، فإذا استطعت أن تكون واحداً من هؤلاء فافعل .



(11) أدمن أكل الحلال :

لأن (مثل المجتهد فى الدعاء مع الاغتذاء بالحرام كمثل الرامى بالسهام فى هدف من رخام) [1]، ولقد ذكر النبى ﷺ (ارجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذى بالحرام فأنى يستجاب له) [2].

أشَبهُ من يتُوبُ علَى حـرامٍ ... كبيـضٍ فـاسد تحت الحَمَام
يطـول عنـاؤه فى غَير شُغْلٍ ... وآخـرهُ يَقـوم بـلا تَمـام
إذا كـان المُقـامُ علَى حَـرامٍ ... فـلا معَنى لتطـويل القيـام

وهى وصية النبى ﷺ لسعد بن أبى وقاص رضي الله عنه: « يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة »، والذى نعلمه من خلال كتب السير أن سعداً نفذ الوصية فكان رضي الله عنه لا ترد له دعوة.

شكا أهل الكوفة سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه إلى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، فأرسل عمر رجلاً إلى الكوفة يسأل عنه فلم يترك مسجداً إلا سأل عنه ويثنون معروفاً، حتى دخل مسجداً لبنى عبس فقام رجل منهم يقال له أسامة بن قتادة ويكنى أبا سعدة فقال : أما إذ نشدتنا - أى طلبت منا الشهادة - فإن سعداً لا يسير بالسرية ولا يقسم بالسوية ولا يعدل فى القضية، فقال سعد : أما والله لأدعون بثلاث : " اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً قام رياء وسمعة، فأطل عمره وعرضه للفتن " . قال عبد الملك ابن عمير راوى الواقعة : فأنا رأيته يتعرض للإماء فى السكك بعد أن سقط حاجباه على عينيه من الكبر، فإذا قيل له : كيف أنت يا أبا سعدة ؟ قال : "كبير مفتون أصابتنى دعوة سعد" [3].

وقد تشدد سلفنا الصالح فى التحذير من أكل الحرام ومصاحبة أهله، وما هو فى حقيقته بتشدد ولكنها حياة قلوبهم أرتهم الذنوب على حقيقتها دون تزيين، وموت قلوبنا صيَّر عيوننا حولاء.

قال واعظ الدنيا فى زمانه أبو الفرج ابن الجوزى : " من الحرام يتولد عمى البصيرة وظلام السريرة، فاكسب مالاً حلالاً، وأنفق فى قصد واجتنب الحرام فى أهله، ولا تجالسهم، ولا تأكل طعامهم، ولا تصحب من كسبه من الحرام إن كنت صادقاً فى

(1) التذكرة فى الوعظ ص (219، 220) - ابن الجوزى - ط دار ابن خلدون.
(2) رواه مسلم فى الزكاة رقم (1015)، والترمذى فى التفسير رقم (2992) عن أبى هريرة.
(3) كتاب مجابى الدعوة ص (44، 45) - أبو بكر بن أبى الدنيا - ط مؤسسة الرسالة.

وعدك، ولا تضيفن أحداً على الحرام فيأكله هو وتحاسب أنت عليه، ولا تعنه أيضاً على طلبه فإن المعين شريك، واعلم أنما يتقبل الله من الأعمال من أكل الحلال" [1].

وأشكال الحرام كثيرة منها :

أكل الربا والرشوة والاختلاس والغصب والغش، والاتجار فى المحرمات وأكل مال اليتيم والقمار، وغير ذلك من صور أكل أموال الناس بالباطل.

أعاذنا الله وإياكم من أكل الحرام ليس فقط لنكون مجابى الدعوات، لكن لأن الرسول ﷺ يخبرنا فى كلمات قصار وقعها مخيف وجرسها عنيف أن :

«كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به» [2].

(12) تخير وقت الطلب :

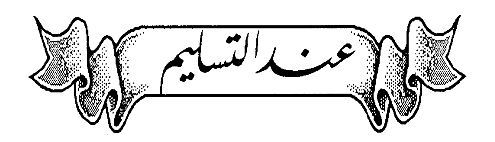
إن كان من توفيق الله لك أن يقيمك بين يديه، ويقذف فيك روح الإقبال عليه لتدعوه وتناجيه، فإن كمال التوفيق يتمثل فى معرفة الأوقات التى تُوزَّع فيها الأرباح بالجملة، وتتنزل فيها البركات والرحمة :

كيوم عرفة من أيام السنة، وشهر رمضان من بين الأشهر، ووقت السحر من ساعات الليل، كما يُجاب الدعاء أيضاً بين الأذان والإقامة، ودبر الصلوات المكتوبات، وأثناء السجود، وعند صعود الإمام المنبر يوم الجمعة، وآخر ساعة من نهار ذلك اليوم، وأثناء شرب ماء زمزم، وعند سماع صوت الديك، وعند التحام الصفوف فى القتال، وعند نزول الغيث.



(1) بحر الدموع ص (180) - ابن الجوزى - ط دار الصحابة.
(2) رواه الطبرانى وأبو نعيم عن أبى بكر، والدارمى وأحمد والحاكم عن جابر فى ص ج ص رقم (4519).





• تحفة شوكانية :

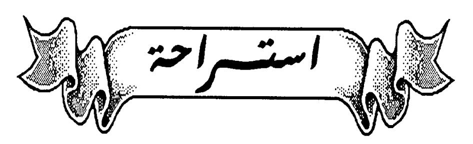
عدد **محمد بن على بن محمد الشوكانى** علامات استجابة الدعاء وجاد لنا بذكرها فقال :

" علامة استجابة الدعاء : الخشية والبكاء والقشعريرة ، وربما تحصل الرعدة والغشى والغيبة ، ويكون عقيبه سكون القلب ، وبرد الجأش وظهور النشاط باطناً والخفة ظاهراً ، حتى يظن الداعى أنه كان على كتفيه حملة ثقيلة فوضعها عنه ، وحينئذ . . **لا يغفل** عن التوجه والإقبال والصدقة والإفضال والحمد والابتهال ، وأن يقول : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات " [1] .



(1) تحفة الذاكرين ص (58) - محمد بن على بن محمد الشوكانى - ط دار الكتب العلمية .





♥ **تزود ثم انطلق..♥**

★النفس والشيطان والهوى أعداؤكم فأعلنوا الحرب عليهم ﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة : 123]، ولا تلقوا سلاحكم ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد : 4]، ودّ أعداؤكم ﴿لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء : 102]، ولا تقعد بكم الجراح عن المواصله فإنها علامة المجاهدة، وحذار من المهادنة فإنها دليل الذل ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ [محمد : 35].

★تذكروا نعم الله عليكم ﴿وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة : 237]، وإذا التفتّم إلى الدنيا ﴿فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ [النساء : 129]. . ألزموا نفوسكم حدودها، وقيّدوا شرودها ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾ [النساء : 34]، وداوموا على النصح ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ [النساء : 34].

★عقارب ساعتك عقارب . . تلدغ وقت ملئها بالذنوب وتأمن شرها عند ملئها بالطاعات، وتكون منها على حذر وقت الفراغ، عقرب الثوانى يحذر من التوانى، وعقرب الدقائق يشهد على الذنوب الدقائق، وعقرب الساعات كلما قطع فى مشواره ساعة قطع من عمرك ساعة.

★هل سمعت قط عن عبد شهوة استمتع بخلوة ؟ أو استأنس بطاعة ؟ أو التذّ بمناجاة ؟ الشهوة امرأة ولمسها بدون حائل ينقض الوضوء، فكيف تصح بعدها الصلاة ؟

★مثل من انشغل عن أداء الفرائض، مثل من هش الذباب من على وجهه وترك الثعابين تحت أقدامه ليجد القبر قدامه، أو كمن سفك دم الحسين وسأل عن حكم دم البراغيث . . أغثنا يا مغيث.

★إذا أجهدت نفسك بطاعة فأعطها راحة، فإن الله تعالى قال : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة : 228]، إن كسلت عن قيام الليل فليس أقل من استحضار نيته، إن لم تطلق يدك للصدقة فاكففها عن الظلم، إن لم تشغل لسانك بالذكر فاحبسه

عن الغيبة، إن لم تكن شمس هداية فليس أقل من قمر اهتداء، إذا لم تكن أبا عبيدة فلا تكن أباه، وإذا لم تشبه **مصعباً** فلا تشبه أخاه . . لك في المباح متسع فلماذا الحرام ؟!

★ من عجيب الأمر أنك تقدم حسن الجوار لجيران سكن، وتؤذي جيراناً ليس بينك وبينهم حائل ولا جدار ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار : 10، 11] ، إخواني . . . لا تنفروا الحفظة منكم بكثرة ذنوبكم وقبيح فعلكم فإن الملائكة لا تطيق رائحة الذنوب.

★ من الغريب أن الذي يخاف هو الذي يعمل، والذي يأمن هو الكسلان، الأول وسامه : ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون : 60]، والثاني عاره : ﴿زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر : 8]، وعند شم الرائحة يبين الفرق . .

واعجباً . . خاف عمر النفاق وهو المبشر بالجنة، وأمنه ابن أبيّ وقد حجز مكانه سلفاً في الدرك الأسفل من النار !!

★ كان السلف يوصون : اتخذ صاحباً يحصي عليك، فبدّل الخلف وقالوا : انصحوا غيرنا وارحلوا من هنا، والنتيجة : تراكم العيوب واتساع الخروق وغرق السفينة، كانت المعصية عندهم شذوذاً وأصبحت عندنا قاعدة، ولا يجمعنا بهم سوى الوضوح، فبقعة سوداء في الثوب الأبيض كبقعة بيضاء في الثوب الأسود.

★ إذا أعجبتك البضاعة فاشتر، وإن راقت لك الصحبة فالحق بها، فإن تأخرت عن سوق أرباحنا حتى قالوا : تخلّف فلان، قلنا : إن علم الله فيه خيراً ألحقه بنا وإن يك غير ذلك فقد أراحنا الله منه، ثم أوصيناك بقراءة الفاضحة [1]، قبل سماع أعذارك عند الرجوع.

★ إذا أظلم قلبك بذنب تسلل إليه شيطان دون أن تلمحه، وإذا أضاء بطاعة توارى لأن السارق لا يظهر في الليلة المقمرة، إذا سرق شيطانك شيئاً من إيمانك فأعدّ نفسك غداً لتمثل للمساءلة، فأنت شريكه في الجريمة.

★ كل إنسان يرى في منامه الأحوال التي ألفها سائر يومه، فإن قضى يومه في التجارة رأى في منامه أحوال التجارة والتجار، وإن قضى يومه في العلم رأى في منامه أحوال العلماء والمتعلمين، وسكرات الموت تشبه النوم فطول إلف المعصية يفرض تذكرها

(1) اسم من أسماء سورة التوبة، وسميت بذلك لأنها فضحت المنافقين.



عند الموت والتعلق بها، فإن قبضت روحه هذه الساعة ختم له بسوء، وكذلك الأمر بالنسبة للطاعة سواء بسواء، فحدّد لنفسك نوع أحلامك من الآن أو بالأحرى نوع خاتمتك.

★ يا من كلما نقص أجله زاد كسله، وكلما قرب من القبور قوى عنده الفتور، اسمع يا مصاب . . لو فقدت أحد أقاربك وشيعته إلى قبره لعَمَّك الحزن وذرفت عليه الدموع، وأنت تفقد كل يوم طاعة، وتُشيع كل ساعة أكواماً من الأجر والثواب، فأين البكاء يا صاحب المصيبة ؟! وأين الوجيعة يا صاحب الفجيعة ؟!

★ لو سافرت سفراً ولم ترجع منه بربح لبكيت فوات أرباحك وضياع أوقاتك، ورحلتك فى صفحات هذا الكتاب سفر إن لم ترجع منه بربح فابك ثواباً ضاع منك وجنة أوشكت أن تفلت من يديك، إن لم يكن فى الأسفار ربح فمن الحمق تكبد مشاقها، إن لم تنفعك كلمات الكتاب فلماذا أنفقت فيه وقتك ومالك ؟!

★ جامع العلم والعمل كمتحدث الفصحى فى قريش، وجامع العلم طارح العمل كالأعجمى يملى على العربى، لا العربى يكتب ولا الأعجمى يُبين، وما لا يُسجَّل فى الكتاب لا يوزن فى الميزان.

★ المُسوّف مرعاد مبراق بغير مطر، قعقعة بلا طحن، جعجعة بلا عمل، فلو ارتقى سلم عزيمة لخرج من مضيق الأقوال إلى ساحات الأفعال ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة : 46].

★ ليس العجب فى اشتياق بشر إلى الجنة، لكن العجب كل العجب فى اشتياق الجنة إلى بشر، أناس سمت أرواحهم وزكت سرائرهم حتى صاروا جزءاً من الجنة هبط إلى الأرض، فلا تسكن الجنة ولا تقر إلا أن يرجع الفرع إلى الأصل، لأن ألذ الأشواق ما كان بالتبادل (**ثلاثة تشتاق لهم الجنة : على وسلمان وعمار**) [1].

★ إذا انتفعت بالكتاب وعملت بما جاء فيه فهذا علامة الحياة، وإلا فأعطه لمن فيه الرمق، ولا تمسكه عندك إلى أن يعلوه التراب . . ألم تقرأ ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة : 229].

يا أخانا . . ليس من شيم الكرام إمساك الخير عن الجيران ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ [البقرة : 231].

(1) رواه الترمذى والحاكم عن أنس، وحسنه الألبانى فى ص ج ص رقم (1594).





الصفقة الخامسة

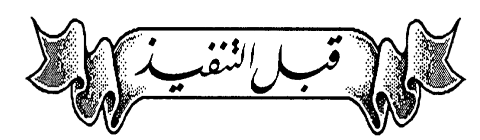
دقائق الليل غالية



سلَّ المجاهدون خنجر الخوف ، فذبحوا به كبش الكسل ، ففزع النوم وطار ، ودوى فى أسماعهم صوت الحق : (هل من داع) ، فلبوا النداء ، واستنشقت أنوفهم عبير الجنة ، حملته رياح الأسحار ، فاشتد الشوق وقوى العزم ، ونصبت الأقدام وهطلت الدموع ، إلى أن انتهى زمن الزيارة ، وحان وقت الفراق ، وآذن الأنس بالرحيل .. طلع الفجر







♥ لأنه مهم :

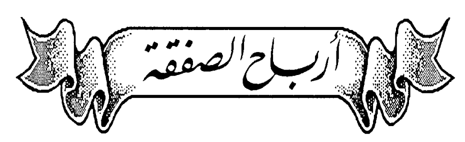
● فقد كان النبى ﷺ إذا فاته ورده من قيام الليل قضاه نهاراً، فصلى اثنتى عشرة ركعة .

● وكان رسول الله ﷺ لا يترك قيام الليل فى صحة أو مرض، فإن مرض أو كسل صلى قاعداً .

● وكان رسول الله ﷺ يوقظ أهله ليشهدوا هذا الخير، فيمر على ابنته فاطمة وزوجها على - رضى الله عنهما - ويطرق بابهما ليلاً، ويتعجب من إيثارهما النوم على القيام قائلاً لهما : « ألا تصليان ؟ ! » .

● وكان رسول الله ﷺ إذا سمع الصارخ (الديك) وثب، ليصرخ هو بدوره فى الناس، يترجم صرخة الديك إلى لغتهم قائلاً : «أيها الناس جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاءكم الموت بما فيه» .





كان **أبو الحسن سرىّ بن المغلس السقطى** يقول : " رأيت الفوائد ترد فى ظلم الليل " [1] ، ومن هذه الفوائد التى رآها سرىّ :

(1) دخول الجنة :

أوصى النبى ﷺ أبا هريرة قائلاً له : «أطب الكلام، وأطعم الطعام، وصل الأرحام، وصلّ بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام» [2] .

وفى وصف تفصيلى للغرف المعدة لاستقبال رهبان الليل يقول النبى ﷺ : «إن فى الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، أعدَّها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام» [3] .

(2) أفضل أنواع الصلاة :

وذلك لقوله ﷺ : «أفضل الصلاة بعد المكتوبة الصلاة فى جوف الليل» [4] .

وصلاة الليل أفضل من صلاة النهار . . عقد المقارنة بينهما **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه ثم أخبرنا بما وصل إليه قائلاً : " فضل صلاة الليل على النهار كفضل صدقة السر على العلن " [5]، بل يذهب **عمرو بن العاص** رضي الله عنه إلى أن (ركعة بالليل خير من عشر بالنهار) [6] ، وإنما فضلت صلاة الليل على صلاة النهار لأنها أبلغ فى الإسرار وأقرب إلى الإخلاص .

(3) نيل حب الله :

يقول النبى ﷺ : «ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم : الذى إذا انكشفت فئة

(1) لطائف المعارف ص (109) .

(2) رواه ابن حبان وأبو نعيم فى الحلية عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (1019) .

(3) رواه أحمد وابن حبان والبيهقى فى الشعب عن أبى مالك الأشعرى والترمذى عن على كما فى ص ج ص رقم (123) .

(4) رواه مسلم والنسائى وابن ماجة والترمذى عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (1116) .

(5) الزهد لابن المبارك ص (226)، وأخرجه أبو نعيم فى الحلية ورمز له الطبرانى بالحسن .

(6) لطائف المعارف ص (93) .

قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل، فإما أن يقتل وإما أن ينصره الله ويكفيه، فيقول : انظروا إلى عبدى هذا كيف صبر لى بنفسه ؟ والذى كان له امرأة حسنة وفراش ليّن حسن فيقوم من الليل، فيقول : يذر شهوته ويذكرنى ولو شاء رقد، والذى إذا كان فى سفر معه ركب فسهروا ثم صحوا فقام من السحر فى ضراء وسراء» [1] .

فانظر إلى هذه البشارة النبوية . . اثنان من الذين يضحك الله إليهم من قوّام الليل تركوا النساء والمائدة ليرتلوا النساء والمائدة، وحطمت أرواحهم أسوار الجسد لتحلق عالياً مع الملائكة السيارة حول العرش، فى إخاء إيمانى بديع وسمو روحانى رفيع، فأجسادهم بشرية، وأرواحهم ملائكية، بعثوها رسائل إلى الله فى الخفاء، مدادها الدموع وسائقها الخشوع، فأتاهم الربح سريعاً من رب كريم عظيم الأفضال : « يحبهم الله » .



(4) علامة حب وبشارة رحمة :

علامة حب . . دخل **السرى السقطى** سوق النخاسين قال : فرأيت جارية يُنادى عليها بالبراءة من العيوب فاشتراها بعشرة دنانير، فلما انصرفت بها - أى إلى المنزل - عرضتُ عليها الطعام، فقالت لى : والله يا سيدى ما رأيت أحداً فى دارنا أكل نهارا قط، قال : فخرجت، فلما كان العشاء أتيتها بطعام فأكلت منه قليلاً، ثم قالت : يا مولاى بقيت لك خدمة ؟ قلت : لا ، قالت : دعنى لخدمة مولاى الأكبر، قلت : أى وكرامة ، فانصرفت إلى بيت تصلى فيه ، وصليت أنا العشاء الآخرة ورقدت ، فلما مضى من الليل الثلث ضربت الباب علىَّ ، فقلت لها : ماذا تريدين ؟ قالت : يا مولاى أما لك حظ من الليل ؟ قلت : لا، فمضت، فلما مضى النصف منه ضربت علىّ الباب وقالت : يا مولاى، قام المتهجدون إلى وردهم، قلت : يا جارية . . أنا بالليل خشبة وبالنهار جلبة، فلما بقى من الليل الثلث الأخير : ضربت علىّ الباب ضرباً عنيفًا، وقالت : أما دعاك الشوق إلى مناجاة الملك، قم لنفسك وخذ مكانا فقد سبقك الخُدّام، فهاج منى كلامها خاطرا، وقمت فأسبغت الوضوء وركعت ركعات، ثم تحسست إليها فوجدتها ساجدة وهى تقول : بحبك لى إلا غفرت لى، فقلت لها : يا جارية ومن أين علمت أنه يحبك ؟ قالت : لولا محبته ما أنامك وأقامنى، فقلت : اذهبى فأنت حرة لوجه الله

(1) رواه الطبرانى فى الكبير وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب رقم (625) .

العظيم، فدعت ثم خرجت وهي تقول: هذا العتق الأصغر بقي العتق الأكبر [1].

بشارة رحمة.. قال النبي ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء» [2].

قال **المناوي**: "فقوله «رحم الله رجلاً» تنبيه للأمة بمنزلة رش الماء على الوجه لإيقاظ النائم، وذلك لأن المصطفى ﷺ لما قال ما قال بالتهجد من الكرامة، أراد أن يحصل لأمته حظ من ذلك وحثهم عليه عادلاً عن صيغة الأمر للتلطف" [3].

فهل أحسست ببرد الماء الذي نثره رسول الله ﷺ على وجهك؟ أم أن نوم أصحاب الكهف راق في عينيك فغرقت فيه؟ وامتثل أبو هريرة رضي الله عنه هذا الأمر فكان (يقوم ثلث الليل، وتقوم امرأته ثلث الليل، ويقوم ابنه ثلث الليل، إذا نام هذا قام هذا) [4].

(5) عقد زواج:

إذا قام المتهجد إلى تهجده فقد قام إلى مخطوبته، فإذا دخل إلى الصلاة فقد شرع في إعداد المهر، فإذا فرغ فقد استوفاه، ولا يزال في شوق إلى إتمام العقد حتى يقترب الموعد ويأذن الله، وعندها يلذ اللقاء ويطيب العناق، على فرش بطائنها من إستبرق ولسان المفهم يقول: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60].

نام أبو سليمان الداراني فأيقظته حوراء وقالت: "يا أبا سليمان تنام وأنا أربى لك في الخدور منذ خمسمائة عام" [5]، ويحكي مالك بن دينار تجربته قائلاً: سهرت ليلة عن وردي ونمت، فإذا أنا في المنام بجارية كأحسن ما يكون، في يدها رقعة فقالت لي: أتحسن تقرأ؟، فقلت: نعم، فدفعت إلى رقعة فإذا فيها:

ءألهَتْكَ اللّذائذُ والأماني ... عن البيْضِ الأوَانسِ في الجنَانِ
تَعيش مُخلَّداً لا موت فيه ... وتلهو في الجنان مع الحسانِ
تَنَبَّهْ من منامك إنَّ خيراً ... منَ النَّوم التهجُّد بالقُرآنِ

(1) الصلاة والتهجد لابن الخراط ص (392).
(2) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وأحمد وابن خزيمة عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم (3488).
(3) فيض القدير (4/25-26).
(4) الزهد لأحمد ص (221).
(5) لطائف المعارف ص (110).

(6) وقاية من النار :

عن **عبد الله بن عمر** رضي الله عنهما : " كان الرجل فى حياة النبى ﷺ إذا رأى رؤيا قصها على رسول الله ﷺ ، فتمنيت أن أرى رؤيا فأقصها على رسول الله ﷺ ، وكنت غلاماً شاباً وكنت أبيت فى المسجد على عهد رسول الله ﷺ ، فرأيت فى النوم كأن ملكين أخذانى فذهبا بى إلى النار ، فإذا هى مطوية كطىِّ البئر وإذا لها قرنان ، وإذا فيها أناس قد عرفتهم فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار ، قال : فلقينا ملك آخر فقال لى : لم تُراع ؟ فقصصتها على حفصة فقصتها على رسول الله ﷺ ، فقال : « نعمَ الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل » ، فكان بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً " .

قال **القرطبى** : " إنما فسّر الشارع من رؤيا عبد الله ما هو ممدوح لأنه عُرض على النار ثم عوفى منها ، وقيل : لا روع عليك ، وذلك لصلاحه غير أنه لم يكن يقوم من الليل ، فحصل لعبد الله من ذلك تنبيه على أن قيام الليل مما تتقى به النار والدنو منها ، فلذلك لم يترك قيام الليل بعد ذلك " [1] .

(7) الفائدة الخماسية :

قيام الليل شعار الصالحين ، وعلامتهم المسجلة بها يعرفون ويميزون ، أو هو عنوان أخوتهم الإيمانية والحبل الوثيق الذى يربطهم جيلاً بعد جيل ، أو هو روضتهم الزاهرة وفردوسهم المنشود وواحتهم الريانة على مر العصور والأزمان **(دأب الصالحين قبلكم)** ، امتطوا صهوته ليكون مركب الوصول بهم إلى أرض الأجر والثواب فازدادوا بذلك **(قربة إلى الله)** ، وزرع الوجل فى قلوبهم من ذنوب اقترفوها أو آثام ولغوا فيها فحصدوا ما زرعوا **(تكفير للسيئات)** ، وأورثهم الحياء من زلل يعرض أو معصية تلوح ، فالعين التى بكت من خشية الله كيف تلتذ بنظر محرم ؟! واللسان الذى رتل وسبح واستغفر كيف يتحول لساناً يغتاب ويكذب وينمّ ؟! والجسد الذى هوى ساجداً لله كيف يهوى ساجداً لملذاته وشهواته ؟! ويظل هذا الحياء ينمو إلى أن يصير إرادة نافذة وسلطة قادرة تشكل فى مجملها **(منهاة عن الإثم)** ، وبتكفير ما مضى والعصمة فيما بقى تبرأ الروح ، وإذا برئت الروح انتقلت العدوى إلى الجسد فبرء كما برء جاره من قبل ، أو إن شئت قل : لما برئت الروح كرَّم الله الجسد الذى يحملها لأجلها وعافاه لطهرها ، فلم يصبه داء ولم يمسه ضر **(مطردة للداء عن الجسد)** .

---

(1) فتح البارى (10/3) .

أجمل النبى ﷺ هذه الفوائد فى قوله : «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله عز وجل، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد» (1).

(8) جبر الكسر :

قيام الليل يجبر كسر الفريضة ويستدرك التقصير فيها، وهو لا بد حاصل من تضييع خشوع أو سهو أو تأخير وقت وغير ذلك مما لا يكاد يسلم منه أحد.

قال رسول الله ﷺ : «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله الصلاة، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، وإن انتقص من فريضة قال الرب : انظروا هل لعبدى من تطوع ؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ثم يكون سائر عمله بعد ذلك» (2).

(9) اختر اليقظة أو القنوت أو القناطير :

رحمات الله قريبة، قريبة فى متناول يدك تطلب إليك قطفها، قيام الليل بعشر آيات فحسب كاف ليخلع عنك ثوب الغفلة، فإن واصلت إلى المائة ألبسك ثوب القانتين، فإن ذقت حلاوة الوصال فأتممت الألف خلع عليك خلع المقنطرين .. سبحانه ما أعظم كرمه وما أسخى جوده، ألا فتعرضوا لنفحات الكرم والجود يا معاشر الفقراء.

قال النبى ﷺ : « من قام بعشر آيات لم يكن من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين » (3).

والمقنطرون هم من ينالون أجورهم بالقناطير، وخشية أن يتقالَّ أحد المقنطرين قدر قنطاره أخبرهم النبى ﷺ بقيمة القنطار الواحد فقال : «والقنطار خير من الدنيا وما فيها» (4).

ولا يخفى ما فى هذا الحديث من حث على التنافس بين المؤمنين والاستكثار من الطاعات عن طريق بيان جزاء كل واحد، وكل يبذل على قدر همته ويؤجر على قدر مشقته، فأى الفرق الثلاث أنت ؟!

---

(1) رواه الترمذى والبيهقى والحاكم فى المستدرك عن بلال، وابن عساكر عن أبى الدرداء كما فى ص ج ص رقم (3958).

(2) رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (2020).

(3) رواه أبو داود وابن حبان عن ابن عمر وكما فى ص ج ص رقم (6430)، والصحيحة رقم (642).

(4) رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب رقم (634).

(10) ذكر الله كثيرا :

قال النبى ﷺ : «من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا ليلتئذ من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»[1] .

ركعتان خفيفتان فى جوف الليل تعدل ذكراً كثيراً يستغرق وقتاً طويلاً، والفطن من عرف السبيل إلى أعظم الأجر بأيسر الجهد .

(11) الجائزة الخفية :

قال عز وجل : ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[السجدة : 16-17] .

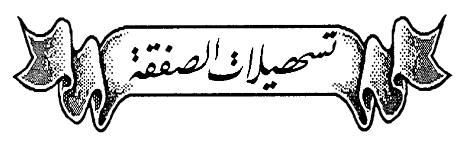
قال **مجاهد والحسن** : "تتجافى جنوبهم يعنى قيام الليل"[2] .

تأمل صاحب القلم السيال والسحر الحلال **ابن قيم الجوزية** فى هذه الآية، فقال : "تأمل كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذى أخفاه لهم مما لا تعلم نفس، وكيف قابل قلقهم واضطرابهم على مضاجعهم حين يقومون إلى صلاة الليل بقرة الأعين فى الجنة"[3] .

بعد أن يتسلم كل جائزته فى الجنة ويسكن درجته التى أعد الله له، تبقى الجائزة الكبرى مدخرة لهذه الثلة المباركة، مصونة لا تخدشها عين، مكنونة لا تعبث بها يد، خفية لا يطلع عليها أحد، وإذا كان نعيم الجنة الذى أعلنه لا يخطر على بال بشر فكيف بنعيمها الذى أخفاه ؟ وما أعظم كرمه إذ أخفى كرمه ، وما ألطف جوده عندما أخفى جوده ، إذ النفس دوماً تواقة إلى سبر أغوار ما أخفى عنها . . تطمح فى نيله وتسعى فى أثره وتستفرغ الجهد فى تحصيله، فكأنه عز وجل بإخفائه جزاء القائمين أعان على سلوك طريقهم وأمدنا بالزاد لنلحق بهم ونفخ فينا نفخة من عزمهم .

---

(1) رواه أبو داود عن أبى سعد وأبو هريرة كما فى ص ج ص رقم (6030)، وصحيح أبى داود رقم (1182) .
(2) تفسير القرآن العظيم (364/6) - أبو الفداء ابن كثير - ط دار الشعب .
(3) حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح ص (278) - ابن قيم الجوزية - ط م المدنى .



قال **ربيعة الجرسى** : "إن الله جعل الخير من أحدكم كشراك نعله، وجعل الشر منه مدّ بصره" [1].

(1) نم قيلولتك :

هذه فرصة ثمينة وغنيمة دفينة، فلئن اشتريت ساعة من ساعات الليل الغالية التى تتنزل فيها الملائكة بساعة من ساعات النهار التى تنشط فيها الشياطين تغوى، إنك إذن لمن الرابحين.

قال النبى ﷺ : «قيلوا فإن الشياطين لا تقيل» [2].

فلا تجعل الشيطان قدوة لك فتلعب وتصخب بالنهار، فتآخى نفراً مر عليهم **الحسن البصرى** فى السوق، فرأى صخبهم ولغطهم فقال : أما يقيل هؤلاء ؟، قالوا : لا، قال : إنى لأرى ليلهم ليل سوء [3].

(2) أقلل من طعامك :

جاء رجل إلى **محمد بن سيرين** فقال له : علمنى العبادة، فقال ابن سيرين : أخبرنى عن نفسك كيف تأكل ؟ قال : آكل حتى أشبع، فقال : ذلك أكل البهائم، ثم قال : كيف تشرب ؟ قال : أشرب حتى أروى، قال : ذلك شرب الأنعام، اذهب فتعلم كيف الأكل والشرب ثم جىء أعلمك العبادة.

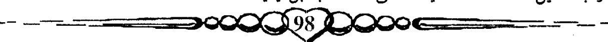
فإذا تعلمت الأكل والشرب توصلت إلى النتيجة التى توصل إليها **مسعر بن كدام** بعد طول عناء ولم يبخل بها عليك فقال :

وجدتُ الجوع يطرده رغيف ... وملء الكف من ماء الفرات
وقِلُّ الطُّعمِ عون للمصلى ... وكثر الطعم عون للسُّبات

(1) حلية الأولياء (106/6).

(2) رواه أبو نعيم فى الطب والطبرانى فى الأوسط عن أنس، وحسنه الألبانى كما فى ص ج ص رقم (4307) والسلسلة رقم (2647).

(3) رهبان الليل (461/2) - د سيد العفانى - ط مكتبة ابن تيمية.



وليس المراد بالجوع المقعد عن الحركة الذى يورث العجز والكسل، فهذا جوع استعاذ الرسول ﷺ منه، وإنما المراد قلة الطعام بحيث توافق سنة النبى ﷺ التى أخبرنا بها فقال: « **بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه** » (1).

وها هو **سفيان الثورى** يخاطب عُشّاق السحر بصيغة الأمر قائلاً: "عليكم بقلة الطعام تملكوا قيام الليل" (2)، فإن خالف سفيان وصيته ووقع فيما حذّرنا منه، أدب نفسه بطريقته الخاصة حيث شبع ليلة فقال: إن الحمار إذا زيد فى علفه زيد فى عمله، فقام تلك الليلة حتى أصبح (3).

(3) خشن فراشك:

وصف لنا **عمر بن الخطاب** فراش النبى ﷺ حين دخل عليه فقال: "فدخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير فجلست، فأدنى عليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر فى جنبه" (4).

ووصفت لنا **أم المؤمنين عائشة** وسَادَتَهُ ﷺ فقالت: "كانت وسادته التى ينام عليها بالليل من أدم حشوها ليف" (5).

وما كان يفعل هذا إلا ليكون أيسر له فى الاستيقاظ وأنشط له فى القيام، يفعل هذا وهو الذى غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو الذى كان إذا نامت عينه لم ينم قلبه، ويقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ويسجد حتى يظن أصحابه أنه قُبض، ويُلح على رب فى دعائه حتى يسقط رداؤه عن منكبيه، وما ترى أنه فعل ما فعل فى تخشين فراشه إلا ليعلّم أمته من بعده، وينصحها بلسان حاله كما نصحها بلسان مقاله.

وليس معنى هذا أننا نطلب منك أن تترك فراشك كل ليلة لتفترش الأرض أو أننا نحرم ما أحل الله لك، بل المعنى ما قاله **المناوى** فى نصيحته القيمة: "الأولى لمن غلبه الكسل

---

(1) رواه أحمد والترمذى وابن ماجة والحاطم عن المقدام بن معد يكرب كما فى ص ج ص رقم (5550).

(2) تنبيه المغترين ص (35).

(3) إحياء علوم الدين (1/419 - 420).

(4) رواه مسلم عن عمر رقم (1479).

(5) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجة عن عائشة كما فى ص ج ص رقم (4714).

والميل للدعة والترفه أن لا يبالغ فى حشو الفراش، لأنه سبب لكثرة النوم والغفلة، والشغل عن مهمات الخيرات" [1].

يا نائماً عن قيام الليل . . يا غارقاً فى ثنايا السيل . . ضجّ الليل من كثرة منامك، واشتكى الفراش من كثرة رقادك، وتعجبت الحور من قسوة جفاتك، وبكى الحفظة من فوات أرباحك، فأحب من يحبك، واشتغل بمن يشتاق إليك، وقف بين يدى مولاك وتعرض لنفحة من نفحاته ولو لحظة عساك تفلح ففى لحظة واحدة أفلح السحرة.

(4) رفيق الخير ينبهك :

عن **الحسن بن على بن أبى طالب** رضي الله عنهما أن أباه أخبره أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبى ﷺ ليلة، فقال : ألا تصليان ؟، فقلت : يا رسول الله أنفسنا بيد الله، إن شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك، ولم يرجع إلى شيئاً، ثم سمعته يقول وهو مُوَلٍّ، يضرب فخذه وهو يقول : «وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً »[2].

قال **الطبرى** معلقاً : "لولا علم النبى ﷺ من عظم الصلاة فى الليل، ما كان يزعج ابنته وابن عمه فى وقت جعله الله لخلقه سكناً، لكنه اختار لهما إحراز تلك الفضيلة على الدعة والسكون، امتثالاً لقوله تعالى : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ [طه : 132] [3].

لذا نقول : اجعل لك رفيق خير يعينك . . إذا سقطت فى بئر غفلة فناد بأعلى صوتك : واغوثاه واغوثاه . . فربما جاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه، فإذا وجدته فتعلق به تنجُ، وإلا فكم غرق فى آبار الغواية من سكت عن طلب النجدة والهداية، ويحك . . صَوِّت فى الأسحار بالمستغفرين لعلهم يحنّون عليك . . تعرَّض لجياد المتهجدين لعل بعضهم يستصحبك، ناد فى القائمين :

خذونى معكم . . احملونى معكم . . اصحبونى معكم . . اشفعوا لى معكم . . لا تتركونى طريداً . . لا تدعونى وحيداً . . ذنوبى أثقلتنى فساعدونى . . أهوائى حاصرتنى فلا تخذلونى . . نفسى ضيَّعتنى فلا تُسلمونى . . قد وجدتُّم قلوبكم فارحموا من لم يَجد . . وجُدْتُّم بأوقاتكم ولذاتكم فعلِّموا من لم يَجُدْ . . يا اخوتاه . .

(1) فيض القدير (180/5).

(2) رواه الشيخان عن الحسن كما فى اللؤلؤ والمرجان رقم (443).

(3) فتح البارى (15/3).

يا أغنياء الطاعة تصدقوا على الفقراء ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف : 88]. . يا أحباب الرحمن اعطفوا على عبد حبيبكم، فإن من صدقت محبته بذل حياته ارضاءً لحبيبه، واستفرغ وسعه فى خدمة إمائه وعبيده . . فهل من مجيب أثابكم الله ؟!

(5) لا تعصه يقمك :

قال رجل **لإبراهيم بن أدهم** : إنى لا أقدر على قيام الليل فصف لى دواءً، فقال له : "لا تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه بالليل، فإن وقوفك بين يديه فى الليل من أعظم الشرف، والعاصى لا يستحق ذلك الشرف" [1].

ويُثَنِّى القول وارث من ورثة النبوة هو **الفضيل بن عياض** فيقول : "إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم مكبل، كبلتك خطيئتك" [2].

ويأتيك بالثالثة علم القيام ورمز الصيام **الحسن البصرى** فيقول : "ما ترك أحد قيام ليلة إلا بذنب أذنبه، تفقدوا أنفسكم كل ليلة عند الغروب وتوبوا إلى ربكم لتقوموا الليل" [3].

كل محروم معاقب، والمعاقبة درجات لكن أعظم المعاقبة (أن لا يحس المعاقب بالعقوبة) [4].

يا معشر القوام اشفعوا فى النوام . . يا أحياء القلوب ترحموا على الأموات . . ماذا وجد من فقد قيام الليل ؟ وماذا وجد من فقده ؟

لا نور يشبه نور المتهجدين . . خلوا بالرحمن فكساهم من نوره . .

ولا ظلمة تشبه ظلمة الراقدين . . نفد عندهم زاد الليل فانطفأ سراجهم بالنهار، فإذا وجوههم مظلمة . .

يا حُسنهم والليل قد جَنَّهم — ونورهم يفوق نور الأنجمِ
أسحارهم بهم لهم قد أشرقت — وخُلَعُ الغفران خير القِسَمِ

(1) تنبيه المغترين ص (53).
(2) الحلية (91/8).
(3) تنبيه المغترين ص (34).
(4) صيد الخاطر ص (10) - ابن الجوزى - ط دار الفكر.

(6) اعرف قدر السلعة يهن عليك دفع الثمن :

كان **يزيد بن هارون** يقول : "نظرت فى قيام الليل فإذا الحارس يحرس الليلة كلها بدانقين، أو يطلب أحدكم الجنة بسهر ليلة واحدة، بعبادة لعلها لا تساوى دانقين وربما مَنَّ بهما على ربه" (1).

واعجبًا لمن باع قيام الليل بفضل لقمة، وضحى بنسيم السحر فى سبيل نومة، وأعلن انسحابه من نادى المتهجدين من أجل هجعة . . يا هذا . .

لو بعت لحظة تهجد بعمر نوح فى ملك سليمان لكنت من الخاسرين.

يا نفس ما هو إلا صبر أيام   كأن مدتها أضغاث أحلام

يا نفس هبِّى إلى الفردوس عازمة   وخَلِّ نوماً فإن العيش قُدّامى

واسمع إلى **يحيى بن معاذ** وهو يخبرك : "ما أمر الإنسان فى هذه الدار ولو طال إلا كنفس واحد فى جنب عيش الجنة، ومن ضيّع نفساً واحداً يعيش به عيش الأبد، إنه والله من الخاسرين" (2).

علم السلف ذلك بل أيقنوا به، فهان عليهم لعلمهم أين المقصد، فالشوق حاديهم، والسهر راحتهم، والنصب لذتهم، والله وجهتهم، ولا راحة لأمثال هؤلاء إلا حين يحطون رحالهم فى الجنة.

فاعرف قدر ما ضاع منك، وابك بكاء من يجرى مقدار ما فاته، واجتهد فى الاستدراك عساك تلحق بمن سبقوا، وتصل إلى مرادك بعد سلوك مسلك اللبلابة فى الوصول، فإنه (لما عشقت اللبلابة الشجر تسلقت لطلب الأعناق ولثم الخدود، فقيل لها : مع الكثافة لا يمكن فرضيت بالنحول فالتفَّتْ فالتَقَتْ) (3).

(7) اعرف سيرة السلف :

إذا بزغت شمس السلف غارت نجوم الخلف، سماع أخبارهم حياة، دعوا إلى الله فى حياتهم بألسنتهم وأحوالهم، فلما ماتوا سكنت الألسنة وبقيت الأحوال تتكلم فكانوا

---

(1) تنبيه المغترين ص (109)، والدانق سدس درهم.

(2) السابق ص (46).

(3) المدهش ص (329).

دعاة إلى الله أحياء وأمواتاً، لا تزال شجرتهم وارفة الظلال غزيرة الثمار عظيمة الفوائد، تؤتى أكلها إلى الآن : تؤنس من استوحش، وتهدى من ضل، وتثبت من اضطرب، ويأوى إلى ظلها كل ظمآن . .

♥ كان **السرىّ السقطى** إذا جن عليه الليل دافع أوله، ثم دافع ثم دافع فإذا غلبه الأمر أخذ فى النحيب والبكاء [1].

♥ وكان **على والحسن ابنا صالح بن يحيى وأمهما** قد جزءوا الليل ثلاثة أجزاء : فكان على يقوم الثلث ثم ينام، ويقوم الحسن الثلث ثم ينام، وتقوم أمهما الثلث، ثم ماتت أمهما، فجزءا الليل بينهما : فكانا يقومان به حتى الصباح، ثم مات على فقام الحسن بهن، فكان يقال : الحسن حيّة الوادى [2].

♥ ولما سألت **بنت جار منصور بن المعتمر** أباها، وقالت : "يا أبت أين الخشبة التى كانت فى سطح منصور قائمة ؟، قال : يا بنية . . . ذاك منصور كان يقوم الليل" [3].

(أى يظل منتصبًا كالخشبة من طول قيامه).

♥ ولا ندرى بأيهما نعجب ؟ **برياح القيسى** أم بامرأته وإليك الخبر : تزوج رياح القيسى امرأة فبنى بها، فلما كان الليل نام ليختبرها، فقامت ربع الليل ثم نادته : قم يا رياح، فقال : أقوم، فقامت الربع الثانى ثم نادته فقالت : قم يا رياح، فقال : أقوم، فلم يقم فقامت الربع الثالث ثم نادته فقالت : قم يا رياح، فقال : أقوم، فقالت : مضى الليل وعسكر المحسنون وأنت نائم ؟ ليت شعرى من غرّنى بك يا رياح، قال : وقامت الربع الباقى [4].

ما اكتسب السحر عطره الخاص إلا من أنفاسهم، وما توارت شمس الهجير عند الغروب إلا خجلاً من نورهم، وما غارت النجوم ليلاً إلا طمعاً فى قربهم، وما تنزل الله بجلاله إلى سمائه الدنيا فى ثلث الليل الآخر إلا من أجلهم، فأكرم بهم أكرم بهم أكرم بهم.

---

(1) حلية الأولياء (126/3).

(2) رهبان الليل (401/1).

(3) سير أعلام النبلاء (403/5).

(4) صفة الصفوة (27/4).

(8) اصدق الله يصدقك :

إذا صدقت نيتك وصحَّ عزمك، وطال شوقك إلى الوقوف بين يدى ربك، فتأكد أن أى شىء سيوقظك، اضطراب ريح أو عبث فأرة أو بكاء طفل، فإن لم يكن شيئاً من هذا، فأرق لا تعرف له سبباً .

فإن حدث ولم تقم بعد تصحيح النية والعزم والأخذ بالأسباب، فلا تحزن فإنما الله قد تصدق عليك . .

قال النبى ﷺ : « من أتى فراشه وهو ينوى أن يقوم يصلى من الليل، فغلبته عينه حتى يصبح كتب له ما نوى، وكان نومه صدقة عليه من ربه» [1] .

فوا عجباً لنائم أجره أعظم من قائم، ولمفطر أزكى عند الله من صائم، ولميت على فراشه بلغ منزلة ما بلغها صريع على أرض القتال . .

قال **أبو الدرداء** : " يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم، كيف يغبنون به سهر الحمقى وصيامهم ؟ لو مثقال ذرة من بر صاحب تقوى أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المغترين " [2] .

فإن فغرت فاك دهشة مما قرأت وأردت ترجمة لما أقول تركنا المجال **لابن القيم** فهو أقدر من يقوم بهذا الواجب، قال ـ رحمه الله ـ :

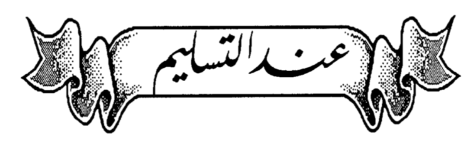
" فالكيِّس يقطع من المسافة، بصحة العزيمة وعلو الهمة وتجرد القصد وصحة النية، العمل القليل أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق ، فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتطيب السير والتقدم ، والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهم وصدق الرغبة والغزيمة ، فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل " [3] .

(9) تأدب :

تأدَّب بآداب النوم وارجع إليها فى صفقة (**الصلاة خير من النوم**) .

(1) رواه النسائى وابن ماجة وابن حبان والحاكم عن أبى الدرداء، وحسنه الألبانى فى ص ج ص رقم (5941) .
(2) حلية الأولياء (211/1) .
(3) الفوائد ص (186 - 187) .





• قاعدة السر والعلانية :

إذا فرغت من عملك الصالح فاستودعه خزانة الأسرار، وضع عليه قفل الإخلاص، فإنك لا تأمن الشيطان على عملك لعله سطا عليه، فأخرجه من ديوان السر إلى ديوان العلن، ولعله زاد فى الكيد لك حتى أخرجه من ديوان العلن إلى ديوان الرياء، فيسجل العمل فى السيئات وقد ظننت أنه فى الحسنات سُجِّل، فإن قصدت بإظهار عملك أن يقتدى بك الناس فى غياب القدوات، فعليك قبل أن تقرأ قاعدة السر والعلانية التى استنبطها **أبو حامد الغزالى** من منخولات تجاربه، وقدمها لك على طبق من ذهب موصياً كل مشترك :

" أن يراقب قلبه فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفى، فيدعوه الإظهار بغير الاقتداء، وإنما شهوته التعجل بالعمل وبكونه يقتدى به، وهذا حال كل من يظهر أعماله إلا الأقوياء المخلصين وقليل ما هم، فلا ينبغى أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر، فإن الضعيف مثاله مثال الغريق الذى يحسن السبَاحَة ضعيفاً، فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم، فأقبل عليهم حتى تشبثوا به فهلكوا وهلك، والغرق بالماء فى الدنيا ألمه ساعة وليت كان الهلاك بالرياء مثله، لا . . . بل عذابه دائم مدة مديدة، وهذه مزلة أقدام العباد والعلماء " [1].



(1) إحياء علوم الدين (335/3).





الصفقة السادسة

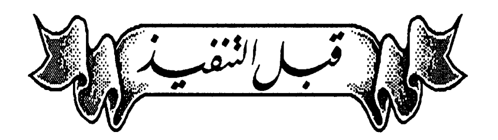
الصبر مفتاح الفرج



لما صبر الورد على الألم ، وتحمل مجاورة الشوك ووخز الإبر ، استحق أن يتصدّر مجالس الأمراء ، ويصبح رمز الحسن والبهاء ، ولا تكاد تجد هدية أرق من الورد .

ولما آثر الحشيش السلامة ، صار مرتع الحمير وعلف البهائم ، ورخص وداسته الأقدام ، حتى غدا رمز المهانة .



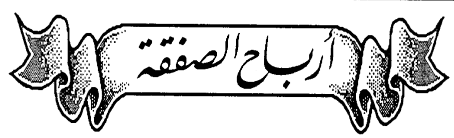


• مواجهة :

واجهك ابن القيم بقوله :

" شكرك لا يساوى قدر قوتك، ولا بارك الله فى دابة لا تعمل بعلفها، متى رأيت العقل يؤثر الفانى على الباقى فاعلم أنه قد مُسخَ، ومتى رأيت القلب قد ترحّل عنه حب الله والاستعداد للقائه، وحل بدلاً من ذلك الرَضا بالحياة الدنيا والاطمئنان إليها، فاعلم أنه قد خُسفَ به، ومتى رأيت العين قد قَحُطت فاعلم أن قحطها من قسوة القلب، وأبعد القلوب عَن الله القلب القاسى، ومتى رأيته يستزيد غيرك وأنت لا تطلب، ويستدنى سواك وأنت لا تُقرّب فاعلم أنه الحجاب والعذاب" .





* ما مثل البلاء إلا كمثل الضيف ينزل عليك، فإن رحبت بقدومه وتفقدت حوائجه مقدماً له قرى الصبر، دون أن يشكو اللسان ضجراً، أو ينقلب القلب تسخطاً، فيا لذة مدائحك على لسان الملائكة، ويا فرحة تسجيل وصفك بالكرم والجود فى صحفهم، وما أصدق قول القائل :

الصبر مثل اسمه فى كل نائبة   لكن عواقبه أحلى من العسل

* ومن هذه العواقب الحلوة هذه الأرباح :

(1) صبر يستوجب الحب :

قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران : 146]، وهل رأيت حبيباً يعذب حبيبه أو يقطع وده أو يؤثر هجره ؟ إنما هو سبحانه رؤوف رحيم بعباده المؤمنين، يبتليهم ليضع عنهم الأوزار ويصرف عنهم عذاب النار، يضعهم فى اختبار لحظة واحدة ليستحقوا به إن هم اجتازوه الخلد فى دار الخلد، والنعيم فى دار النعيم، وهل الدنيا غير لحظة واحدة ؟!!.

ولذا كان الصبر عطاء - وأى عطاء - لا يناله إلا من حاز الرضا وحظى بالقرب، قال رسول الله ﷺ : «وما أعطى أحد عطاءً خيراً أو أوسع من الصبر» (1).

تتلمذ الرافعى فى هذه المدرسة - مدرسة النبوة - حتى نضحت كلماته بمعانيها، لذا عجب غاية العجب من نفر ارتدوا ثياب الإيمان، حتى إذا نزلت بهم نازلة أو ألمت بهم ملمة، ارتدوا ثياب التشكى ورفعوا راية العصيان، فقال مستغرباً : "وأى شىء لا صبر عليه عند الرجل المؤمن الذى يعلم أن البلاء مال غير أنه لا يوضع فى الكيس بل فى الجسم !!" (2).


(2) اللا محدود فى عالم الثواب :

سبحانه سبحانه غارس شجرة الكرم فى قلوب الكرماء، وباذر الجود فى أكف الأسخياء، فكل كرم من كرمه، وكل جود من جوده.

(1) متفق عليه من حديث أبى سعيد كما فى رياض الصالحين رقم (27).
(2) وحى القلم (92/2) - مصطفى صادق الرافعى - ط دار المعارف.

من فيوضات كرمه أنه لما التزم الصالحون أمره فصبروا، كافأهم بمكافأة : ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل : 96] ، فأغدق عليهم ثوابه وأجزل لهم عطاءه، حتى جازى الواحد منهم على أعماله الصالحة بثواب أفضلها، وإن تفاوتت بضاعته وتغير منسوب الإيمان فى قلبه من وقت لآخر.

ومن فيوضات كرمه أن كل أجير أجره بحساب، أما أجر الصابرين فبغير حساب، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر : 10].

ترى ما قدر ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فى مقاييس الله؟ العقل البشرى يتيه فى تصور هذا الثواب، ويقف عاجزاً عن تصور ما لا طاقة له به، حتى يصل إلى أن النعيم الدنيوى من يوم خلق الله الدنيا إلى يوم فنائها، لا يساوى ذرة رمل فى صحراء ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .

[الزمر : 10].

ومن فيوضات كرمه أنه كلما صعب عليك البلاء أجزل لك العطاء، قال النبى ﷺ : «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء» (1).

(3) معية تورث السكينة :

قال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة : 153].

وهذه المعية المذكورة فى الآية ليس المراد منها معية الإحاطة والعلم فحسب، بل معية التأييد والنصرة والمنعة والغلبة، المعية التى تورث صاحبها سكينة النفس وطمأنينة القلب وراحة البال، والثقة الغامرة فى تأييد ذى العزة والجبروت والقوة والملكوت، ولما كانت معية الله متحققة للصابر بمقتضى هذه الآية كان النصر حليفه ولا شك، فالصبر والنصر رفيقا درب وفرعا غصن ورضيعا لبان، قال رسول الله ﷺ : « واعلم أن النصر مع الصبر» (2).



(4) وداعاً دنيا السيئات :

قال النبى ﷺ : «ما من مسلم يصيبه أذى : شوكة فما فوقها إلا كفّر الله بها سيئاته، وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها» (3).

(1) رواه الترمذى وابن ماجة عن أنس وحسنه الألبانى فى ص ج ص رقم (2110).
(2) رواه الترمذى عن ابن عباس من طريق حنش الصنعانى، وهو حديث حسن.
(3) متفق عليه عن ابن مسعود كما فى رياض الصالحين رقم (39).

فإذا صَبَّ الله البلاء على عبده صبًا فصبر فإنما أراد به خيراً كثيراً وفوزاً عظيماً، قال النبى ﷺ : «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة» (1) .

سمع **الفضيل** هذا الحديث فخرج منه إلى (أن الله عز وجل ليتعاهد بدن المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير) (2)، وعلى هذا يرى المؤمن المحنة منحة، والبلية هدية، والألم دواء مراً لا يحصل الشفاء إلا به، وبه وحده يعود (الفقر باباً من الزهد، والمرض نوعاً من الجهاد، والخيبة طريقاً من الصبر، والحزن نوعاً من الرجاء) (3) .

بل يرى المحنة تزرع فيه من الفضائل ما لم يكن يعلم، وتلقى فى روعه من الأخلاق ما كان لها هاجراً، فينمو خَلْقاً آخر . . قال **الشعبى** : " ما أشبه النكبة بالبيضة تحسب سجناً لما فيها وهى تحوطه وتربيه وتعينه على تمامه، وليس عليه إلا الصبر إلى مدة، والرضا إلى غاية، ثم تنقف البيضة فيخرج خلقاً آخر " (4) .

أرى البلايا تحيط المرء تُحصنه	حتى لئن صحَّ ذوب الصَّخر لم يذُب
أو صَحَّ أن قناة الصلب قد وهنت	فلا يلين إذا ما صُبَّ فى اللهب
ما حصحص الحق إلا بعد ما انسلخت	من عمر يوسف أعوام من النصب

ولا تنمو الفضائل التى تزرعها المحنة فى المؤمن إلا أن تُسقى بماء الصبر، أما محنة صاحبَها جزع وبلية لحقها ضجر، فإنها تقلع ولا تزرع . . تضر ولا تنفع . . تُفنى ولا تذر .

(5) استحقاق الإمامة فى الدين :

قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة : 24]، فجعل الله سبحانه الصبر شرط للإمامة فى الدين، وقد كان النبى ﷺ إمام الأئمة، كان جبل صبر يتحرك، بل لو كان الصبر رجلاً لغار من النبى ﷺ ، صبر على الفقر والجوع حتى يربط على بطنه الحجر والحجرين، وصبر على فقد الزوج والولد، وصبر على إيذاء قومه له سباً وضرباً، وصبر على إخراجه من بلده، وصبر على فقد أصحابه أمام عينيه والتمثيل بهم، وصبر على قذفه فى عرضه ،واتهامه فى أحب الخلق إليه عائشة ـ رضى الله عنها ـ، صبر

(1) رواه الترمذى عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (5815) .
(2) الإحياء (139/4) .
(3) وحى القلم (94/2) .
(4) السابق (113/2) .

على كل هذا وترك لنا رسول الله ﷺ هذه التركة، ولكل من ورثته فيها نصيب بحسب قربه منه، فعلى قدر صبرك تحدد درجة قرابتك.

كان الإمام **أحمد بن حنبل** رحمه الله آية من آيات الله فى الثبات على الحق والصبر على البلاء أثناء محنة خلق القرآن، حتى قيل: نصر الله هذا الدين بأبى بكر يوم الردة وبأحمد يوم المحنة، واستحق بهذا الصبر أن ينصب إماماً للعامة، ولئن حال بطش الظالمين دون ظهور ذلك فى حياته فقد ظهر جلياً فى مماته، إذ شيَّعه إلى قبره أربعة ملايين نفس، وتوقفت عقارب الزمن آنذاك، وسكنت عجلة الحياة فى بغداد يومها، واستمرت الصلاة عليه من الفجر حتى مغيب الشمس، وعلا النواح والصراخ فى أربع طوائف من الأمة: المسلمين واليهود والنصارى والمجوس - ولا غرو - فالإمام كان خيراً للبشرية جمعاء، وهذا والله لهو شرف الدنيا قبل شرف الآخرة، ولم تكن جنازة الإمام جنازة ساقها مشيِّعوها إلى قبرها، بل موكب عرس زفَّ فيه المحبون محبوبهم إلى الجنة المنتظرة له على شوق، فالمح آخر طريق الصبر تسلك أوله، وتصل إلى ما وصل إليه أحمد وإخوان أحمد.

(6) النائحة الثكلى أصدق:

فمن الناس من لا يعبد الله إلا فى المواسم، ولا تعرفه المحاريب إلا فى الجمعات، فتنزل المحنة على أمثاله لتسوق الشارد عن الله إلى الله، ولترد الهارب منه إليه، ولترسم الطريق بوضوح إلى بيت الملك، فإن رفع أكف الضراعة، ولزم مقام الرضا، وارتدى ثياب الصبر أذن له بالدخول على مولاه، فيقف بين يديه مقراً بذنبه، مقتنعاً بفقره، معترفاً بعجزه، ملحاً فى مسألته، باعثاً دعاءً قد خضبته الدموع، وعطَّره الأسف، وأنفذته الحاجة، وزينه الوجل، وعندها فقط تجوز عليه الصدقة مصداقاً قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة: 60].

(7) علامة حب وخيرية:

ولما كان الله يغار وغيرته أن تنتهك محارمه، أو تضيع حدوده فقد أوجب على الخائض فيها عقوبة ولابد، وهذه قد تكون فى الدنيا فيتسلى عنها بغيرها ويخف وقعها، أو فى الآخرة وهذه تدوم وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلى إذ أسباب التسلى هناك منقطعة، فإن تركك وأخَّرك فقد كرهك وأبغضك، وإن آخذك وعجَّلك فقد أحبك وقرَّبك.

قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة فى الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يُوافى به يوم القيامة» [1]، وإذا كان أعظم نعيم الدنيا تمسحه

(1) رواه الترمذى والحاكم عن أنس والطبرانى عن عمار بن ياسر فى ص ج ص رقم (308).

غمسة فى النار فهل يسمى هذا نعيماً؟ وإذا كان أشد بؤس الدنيا تنسيه غمسة فى الجنة فهل يسمى هذا بؤساً؟ .

(8) الجنة :

قال النبى ﷺ : «إن الله تعالى يقول : إذا أخذت كريمتى عبدى (عينيه) فى الدنيا، لم يكن له جزاء عندى إلا الجنة» [(1)] .

وقال ﷺ مخبراً عن ربه : «ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة» [(2)] .

ولربما كان ميزان حسناتك يوم القيامة لا يثقل عن ميزان سيئاتك إلا أن يوضع فيه مثقال صبر صبرته فتستحق بذلك دخول الجنة . .

واسمع إلى ما قاله لك النبى ﷺ : «إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة لم يبلغها بعمله أبلاه الله فى جسده أو فى ماله أو فى ولده» [(3)] .

والحق أن النعمة وتحولها طريقان لدخول الجنة إذا تعامل معهما المؤمن كما أراده الله، ومعنى هذا أنه . .

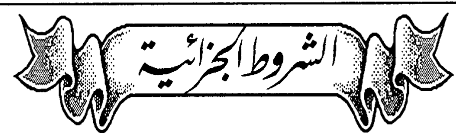
(تأتى النعمة فتدنى الأقدارُ من يدك فرع الثمرة الحلو وأنت لا تدرى جذره ولا تملكه، ثم تتحول النعمة فإذا يدك كذلك على فرع الثمر المر وأنت كذلك لا تدرى ولا تملك، ألا فاعلم أن **الإيمان هو اليقين** بأن الفرعين كليهما يصلانك بالله، فالحلو فرع عبادته بالحمد والشكر وهو الأحلى عندك حين تذوقه بالحس، والمرُّ فرع عبادته بالصبر والرضا وهو الأحلى حين تذوقه بالروح) [(4)] .

وفى الجنة تنسى كل مصيبة ومصاب وكل بلية وبلاء فما هناك غير السعد والهناء . .

كان **أبو معاوية الأسود** إذا قام من الليل يستقى الماء يذكر هذا المعنى فيقول : "ما ضرّهم ما أصابهم فى الدنيا، جبر الله لهم كل مصيبة بالجنة" [(5)] .

(1) رواه الترمذى عن أنس كما فى ص ج ص رقم (1904) .
(2) رواه البخارى عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (33) .
(3) رواه أحمد وأبو داود كما فى صحيح أبى داود (2649)، والصحيحة (2599) .
(4) السحاب الأحمر ص (104) - مصطفى صادق الرافعى - ط الشركة المصرية العالمية للنشر .
(5) حلية الأولياء (273/4) .



(1) ضياع الإيمان :

الصبر على الضراء مثله مثل الشكر على السراء سيماء يحتكرها المؤمنون، قال رسول الله ﷺ : «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته ضراء فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له» (1).

وعلى هذا (من لم يكن صابراً على بليته فقد تخلّق بأخلاق الكافرين، بل نقول : إن وصف الإيمان ينزوى حينئذ عن قلبه ويكون على رأسه كالظلة حتى يراجع نفسه) (2).

ومن مظاهر انزواء الإيمان عن القلب الشكوى إلى غير الله، وهى ذنب عرفك عقوبته شقيق البلخى، فقال : "من شكا مصيبة إلى غير الله لم يجد حلاوة الطاعة" (3).

فالصبر إذن روح الإيمان، وكما أنه لا حياة للجسد بغير روح فكذلك لا حياة للإيمان بغير صبر، قال على بن أبى طالب رضي الله عنه : "الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا قطع الرأس مات الجسد" (4).

وإذا رفع الصبر حل محله الجزع الذى تُفقد مرارته طعم حقيقة الإيمان، نطق بهذا الصحابى الجليل عبادة بن الصامت رضي الله عنه فى وصية مودع، أوصى بها ولده قبل موته فقال : «يا بنى إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك» (5).



(2) الرسوب فى الامتحان :

الدنيا دار ابتلاء ومن جهل هذا فقد نسى الغاية التى خلقها الله لها ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك: 2]، ومن جزع ونفد صبره عند نزول البلاء، فقد جنى على نفسه وكتب اسمه بيده فى سجلات الخائبين.

---

(1) رواه مسلم عن صهيب بن سنان كما فى رياض الصالحين رقم (28).

(2) المختار من كنوز السنة ص (144) - د. محمد عبد الله دراز - ط دار الأنصار.

(3) سير أعلام النبلاء (315/9).

(4) قوت القلوب (394/1).

(5) سنن أبى داود (225/24) - ط مصطفى محمد.

هو الامتحان إذن أو التجربة بلغة لقمان الحكيم حين أوصى ابنه قائلاً: «يا بنى إن الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء، فإذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا ومن سخط فعليه السخط» [1] .

وإذا نظر المؤمن إلى الدنيا من زاوية الابتلاء كان على حذر فيها من الخير والشر على السواء، قال العلامة الفيروزآبادى صاحب القاموس:

«اختبار الله تعالى لعباده تارة بالمسار ليشكروا، وتارة بالمضار ليصبروا، فصارت المنحة والمحنة جميعاً بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فصارت المنحة أعظم البلاءين، ولهذا قال عمر رضي الله عنه : بلينا بالضراء فصبرنا، وبلينا بالسراء فلم نصبر، وقال على رضي الله عنه : من وسع عليه فى دنيا فلم يعلم أنه قد.

مكر به فهو مخدوع عن عقله، وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [2] [الأنبياء: 35].

ولعلمه باقتران الإيمان بالابتلاء قال الرافعى:

«فمن آمن بالله فكأنما قال له: امتحنى، وكيف تراك إذا كنت بطلاً من الأبطال مع قائد الجيش؟ أما تفرض عليك شجاعتك أن تقول للقائد: امتحنى وارم بى حيث شئت، وإذا رمى بك فرجعت مثخناً بالجراح، ونالك البتر والتشويه أتراها أوصافاً لمصائبك، أم ثناء على شجاعتك؟!» [3] .

وتظهر قوة الإيمان فى النكبات لا فى الركعات، وعند الرزايا لا فى الزوايا، قال الحسن البصرى: «استوى الناس فى العافية فإذا نزل البلاء تباينوا» [4] .

(3) الانهيار

قال ﷺ : «مثل المؤمن كمثل الزرع، من حيث أتتها الريح كفأتها، فإذا سكنت اعتدلت، وكذلك المؤمن من يكفأ بالبلاء، ومثل الفاجر كالأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء»[5] .

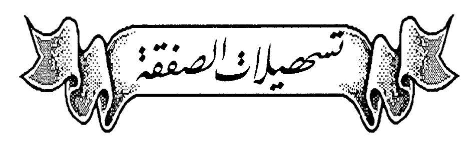
---

(1) إحياء علوم الدين (130/4).
(2) بصائر ذوى التمييز (274/2)- ط شركة الإعلانات الشرقية.
(3) وحى القلم (2/92-93).
(4) صيد الخاطر ص(216).
(5) رواه الشيخان عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (5843).

أو هى شجرة الصنوبر والدُّبّاء فى لغة أبى الفرج ابن الجوزى الذى نقل هذا الحوار: «شجرة الصنوبر تتم فى ثلاثين سنة وشجرة الدباء تصعد فى أسبوعين فتدرك الصنوبر، فتقول شجرة الدبّاء: إن الطريق التى قطعت فى ثلاثين سنة قطعتها فى أسبوعين، فيُقال لك شجرة ولى شجرة، فتجيبها: مهلاً إلى أن تهب ريح الخريف» [1] .



(1) اللطائف ص (83) - ابن الجوزى - ط دار الهجرة.



لأن من لم يعمل بعلمه لم يزد ما معه، ولأن حامل المسك إذا كان مزكوماً لا حظَّ له فيما حمل، ولأن هذه الصفحات حجة لك أو عليك، فقد قدمنا لك هذه التسهيلات سائلين المولى عز وجل أن يعينك على تنفيذها:



(1) تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة (1)

من بذر بذرة طاعة فى ظل رخاء استظل بشجرتها فى هجير شدة، ومن قاسى حر مجاهدة فى سراء وجد فى قلبه برد يقين فى ضراء.

شرح عبد الرؤوف المناوى هذه الوصية النبوية فقال: «يعرفك فى الشدة بتفريجها عنك، وجعله لك من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هم فرجاً بما سلف من ذلك التعرف، كما وقع للثلاثة الذين آووا إلى الغار، فإذا تعرفت إليه فى الرخاء والاختيار جازاك عليه عند الشدائد والاضطرار بمدد توفيقه وخفى لطفه كما أخبر تعالى عن يونس ﷺ بقوله: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: 143]، يعنى قبل البلاء، بخلاف فرعون لما تنكر إلى ربه فى حال رخائه لم ينفعه اللجوء عند بلائه، قال: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ [يونس: 91] (2).

ولنا رجعة مع الإمام أحمد بن حنبل الذى عرف الله فى العافية فأيّده الله وثبته ساعة الشدة، وانظر - حفظك الله - إليه حين ضرب بالسياط ضرباً لو ضرب لفيل لهدَّه، حتى لم يبق بين سرواله وقميصه سوى خيط لو انقطع لبانت عورة الإمام، وعندها انقطعت أسباب الأرض وحضرت أسباب السماء، وتمتم الإمام بكلمات فى سره، وتوالى الضرب على الخيط واشتد واشتد.. وتعاقب الجلادون.. تسعة يضربه كل واحد منهم سوطين ليسلم السوط إلى الذى يليه.. كل هذا والخيط لا ينقطع، وكأنَّ الحق بصلابته قد تجمع فى هذا الخيط فانقلب خيطاً من حديد!! وستر الله إمامنا وحفظه، وظل الأمر لغزاً عند جلاده لا يجد له حلاً حتى قابل الإمام بعد أيام، فسأله عن هذه

(1) رواه أحمد والطبرانى وأبو نعيم فى الحلية والحاكم عن ابن عباس كما فى ص ج ص رقم (958).
(2) فيض القدير (3/251).

الكلمات التى رددها، فقال له الإمام: «قلت: اللهم إنى أسألك باسمك الذى ملأت به أرجاء العرش، إن كنت تعلم أنى على الصواب فلا تهتك لى ستراً» [1] .

وحين انصرف جُلُّ العلماء إلى جمع الأموال والسعى على العيال والحرص على إرضاء الزوجات، جاءه التأييد والتثبيت على الحق والتصبير على البلاء والعذاب فى سبيل الله من اللصوص والنشالين . .

قال ابنه **عبد الله**: كنت كثيراً أسمع والدى -**أحمد بن حنبل**- يقول: رحم الله أبا الهيثم، غفر الله لأبى الهيثم، عفا الله عن أبى الهيثم، فقلت له: يا أبى من أبو الهيثم؟ قال: ألا تعرفه، قلت: لا، قال: **أبو الهيثم الحداد**، اليوم الذى أخرجت فيه للسياط، ومددت يداى للعُقَّابَيْن -هما خشبتان يشبح الرجل بينهما ليجلد- إذا أنا بإنسان يجذب ثوبى من ورائى ويقول: أتعرفنى؟ قلت: لا، قال: أنا أبو الهيثم العيّار (أى النشيط فى المعاصى)، اللص الطرّار (أى النشال من الجيوب)، مكتوب فى ديوان أمير المؤمنين أنى ضُربتُ ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق، وصبرت فى ذلك على طاعة الشيطان لأجل الدنيا، فاصبر أنت فى طاعة الرحمن لأجل الدين» [2] .



(2) مشاهدة النعم:

ما أكثر نعم الله على العباد وأجلها، والناس عمى عن هذه النعم فإذا فقدوا إحداها رجعت إليهم أبصارهم، والعاقل يعرف أن الله إذا سلب منه نعمة فما هى إلا قطرة فى بحر نعم الله المعلومة عنده، بل إن نعم الله المعلومة عنده ليست سوى قطرة فى بحر ما لا يعلم من النعم، وما مثل من جزع لفقد نعمة من النعم إلا كمثل من أنعم عليه الملك بما لا يُعدّ ولا يُحصى من الأموال، ثم سلبه ديناراً واحداً ليختبره فى منحته وليبرهن على معدنه وأصالته، فإذا بصاحبنا ويجزع وينوح ويفزع كالطفل إذا نزعت منه لعبته فهو يبكى حتى ترجع إليه . .

هذا فهم **يونس بن عبيد** الذى برز جلياً حين تكلم مع الثرى الموسر صاحب الملايين، فماذا قال له؟

جاء رجل إلى **يونس بن عبيد** فشكا إليه ضيقاً من حاله ومعاشه واغتماماً لذلك،

---

(1) صفة الصفوة (212/1) .

(2) مناقب الإمام أحمد ص(333-334) - أبو الفرج ابن الجوزى - دار الآفاق الجديدة .

فقال: أيسرك ببصرك مائة ألف؟ قال: لا، قال: فبسمعك؟ قال: لا، قال: فبلسانك؟ قال: لا، قال: فبعقلك؟ قال: لا، وذكَّره نعم الله عليه، ثم قال يونس: أرى لك مئين ألوفا وأنت تشكو الحاجة!! [1].

وقد كان **الإمام الشافعي** حاد البصر، فكان له من مشاهدة النعم نصيب، حتى قال عند موت ابنه: «اللهم إن كنت قد ابتليت فقد عافيت، وإن كنت أخذت فقد أبقيت، أخذت عضواً وأبقيت أعضاء، وأخذت ابناً وأبقيت أبناء».

ومن قبله حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنه حين أصابه العمى انطلق ينشد:

إن يأخذ الله من عيْنيَّ نورهما ... ففى لسانى وسمعى منهما نور

قلبى ذكى وعقلى غير ذى عوج ... وفى فمى صارم كالسيف مأثور



(3) اقتفاء الأثر يهدي:

قيل **للحسن**: سبقنا القوم على خيل دُهم، ونحن على حُمُرٍ مُعَقَّرة، فقال: «إن كنتم على طريقهم فما أسرع اللحاق بهم» [2].

* هذه **أم طلحة** لما مات ابنها سمت فوق أحزانها حتى لم يبق فى المصيبة معنى المصيبة، ولا مع النكبة حزن النكبة بل الأجر والثواب فحسب، فآنستها حلاوة أجرها مرارة ألمها وفاضت، حتى جعلتها تتزين لزوجها وكأنها عروس ليلة الزفاف، فأصاب منها ولما فرغ قالت له: يا أبا طلحة لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ فقال: لا، قالت: فاحتسب ابنك، فغضب العريس وشكاها إلى النبى ﷺ فوجده يقدم التهنئة له على صورة دعاء: «**اللهم بارك لهما**»، فأخلف الله عليهما ورزقهما ولداً غيره.

* وهذا **عمران بن حصين** كان صابراً على البلاء ثلاثين سنة، كان عظاماً ممتدة على سريرها، ولما دخل عليه أخوه مع **الإمام الشعبى** رأياه ممدداً على سرير كأنما شُدّ بالحبال، وما شد إلا بانتهاك أعصابه وذوبان لحمه ووهن عظامه، فبكى أخوه فقال عمران: لا تبك فإنّ أحبَّه إلى الله أحبُّه إليَّ.

(1) سير أعلام النبلاء (292/6).
(2) الفوائد ص(57).

* وهذا بشير الطبرى أغارت الروم على جواميس له نحوًا من أربعمائة جاموس، فلقى عبيده الذين كانت معهم الجواميس، فقالوا: يا مولانا ذهبت الجواميس، فقال: وأنتم أيضا فاذهبوا معهم فأنتم أحرار لوجه الله، فقال له ابنه: يا أبت أفقرتنا، قال: اسكت يا بنى، إن الله اختبرنى فأحببت أن أزيده.

* وهذا ابن عباس رضي الله عنه نعيت له ابنته فاسترجع وقال: عورة سترها الله، ومؤونة كفاها الله، وأجر قد ساقه الله، ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال: قد صنعنا ما أمر الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: 45].

(4) تلمح فجر الأجر:

الحيوان الأعجمى الذى لا عقل له يدربه صاحبه، فيصبر على السير على الحبال واقتحام حلقات النيران وخوض الصعاب طمعًا فى قطعة لحم يحظى بها عند إتمام فقرته يوم العرض، فاصبر أنت يا صاحب العقل على ما هو دون ذلك من محن الزمان، طمعا فيما أعده الله للصابرين من جزاء يوافيهم به يوم العرض.

ولأن شمس الأجر فوق رؤوس الصالحين بازغة لا تغيب، ساطعة لا تحجبها غمامة شك أو سحابة هوى فقد كانوا كما وصفهم النبى ﷺ: «ولأحدهم كان أشد فرحاً بالبلاء من أحدكم بالعطاء» [1].

فرح حقيقى من أعماق القلب من علاماته عدم الشكوى قال مغيرة: ذهبت عين الأحنف فقال: «ذهبت من أربعين سنة ما شكوتها إلى أحد» [2].

ومن علامته تقديم الشكر عليه، صدع بهذا فتح الموصلى فقال: «يارب ابتليتنى ببلاء الأنبياء، فشُكْرُ هذا أن أصلى الليلة أربعمائة ركعة» [3].

ومن علاماته الاستسلام لقدر الله وتفويض الأمر إليه عند نزول البلاء، واعتقاد أن الخير كل الخير فيما اختاره لعبده، قال أحدهم عن الحمى وقد نزلت به وأعيته:

زارت مُكفّرة الذنوب ديارنا   فسألتها بالله أن لا تُقلعى

(1) رواه ابن ماجة وأبو يعلى فى مسنده والحاكم فى المستدرك عن أبى سعيد كما فى ص ج ص رقم (231).
(2) سير أعلام النبلاء (92/4).
(3) حلية الأولياء (292/8).

(5) منع الله عطاء:

قــال شيبــان الــراعــى لسـفيــان الثــورى : «يــا سفيان عُـدّ منع الله إياك عطاء منه لك، فإنه لم يمنعك بخلاً إنما منعك لطفاً» [1].

حرق الخضر السفينة لكى تنجو، وقتل الغلام لكى ينقذ أبويه من طغيانه وكفره، وبنى الجدار لكى ينتفع الغلامان بكنزهما المدفون تحته عند الكبر.

حدثنى من أثق فى صدقه، أن أحد أصحابه سجن ظلماً عام 1965، وكان ضابطاً فى الجيش، فلما حلت النكسة عام 1967 أبيدت فرقته بالكامل، فحمد الله الذى حفظه فى سجنه وحماه من موت محقق.

وحدثنى أحد مشايخى، أن أخًا له أراد سفراً وتأخر عن موعد الحافلة ففاته ركوبها، فتملكته الحسرة إذ كان على موعد هام يخشى فواته، ولما ركب الحافلة التى تليها وجد الحافلة الأولى غارقة فى النيل وقد هلك جميع ركابها، ألسنة العامة تفيض بوقائع تؤكد هذا المعين، وإذا نظر المؤمن إلى مصائبه من هذه الزاوية عرف معنى قول الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216].

وإذا استقر هذا المعنى يقيناً فى القلب أورث التسليم الكامل والرضا التام بما قدره الله، لأن العبد جاهل كل الجهل بما ينفعه والرب عالم كل العلم بذلك.

قال عمر رضي الله عنه: «ما أبالى على أى حال أصبحت أعلى ما أحب أم على ما أكره؟ ذلك أنى لا أدرى الخير فيما أحب أو فيما أكره؟ [2]».

لا تكره المكروه عند نزوله	إن الحوادث لم تزل متباينة
كم نعمة لا يُستهان بشكرها	لله فى طَىّ المكاره كامنة

(6) استرجع:

قال تعالى مادحاً عباده المؤمنين: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 156]، وهذا من فضل الله تعالى وكرمه.. ابتلانا ليكفر آثامنا ويرفع درجاتنا، وأعاننا على سلوك طريق الصبر بإرشادنا لترديد هذه الكلمات المباركات.

(1) صيد الخاطر ص (253).

(2) رواه أحمد فى العلل (149/1) نقلاً عن رسالة المسترشدين.

غاص الإمام **ابن القيم** فى أعماقها واستخرج منها درر المعانى تتلألأ فى ضوء البصرية الإيمانية فقال: «وهذه الكلمة من أبلغ العلاج للمصاب، وأنفعه له فى عاجلته وآجلته فإنها تتضمن أصلين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته:

أحدهما: أن العبد وأهله وما له ملك لله عز وجل حقيقة، وقد جعله عند العبد عارية، فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير، وأيضاً فإنه محفوف بعدمين عدم قبله وعدم بعده، وملك العبد له منحة معارة فى زمن يسْر، وأيضاً فإنه ليس الذى أوجده من عدمه حتى يكون ملكه حقيقة، ولا هو الذى يحفَظه من الآفات لعلمه وجوده ولا يبقى عليه وجوده، فليس له فيه تأثير ولا ملك حقيقيين، وأيضاً فإنه متصرف فيه بالأمر تصرف العبد المأمور، ولهذا لا يباح له من التصرفات إلا ما وافق أمر مالكه الحقيقى.

والثانى: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق، ولابد أن يخلف الدنيا وراء ظهره ويجيء ربه فرداً كما خلقه أول مرة، بلا أهل ولا مال ولا عشيرة ولكن بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بداية العبد وما هو له ونهايته فكيف يفرح بموجود أو يأسى على مفقود؟! ففكره فى مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء» (1)

(7) عند اشتداد الكرب تبدو مطالع الفرج:

لم يجعل الله اليسر بعد العسر أو عقبه بل معه فقال ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: 5-6] وذلك ليؤكد على أمرين:

الأول: قرب تحقق اليسر عند العسر حتى كأنه معه ومتصل به، وفى هذا قال بعض السلف: لو دخل العسر جحراً لتبعه اليسر.

الثانى: إن مع السعر بالفعل يسراً، ومع المنع عطاءً، ومع الفقر غنى قد يكون ظاهراً ملموساً، وقد يكون خفياً مكتوماً، وهذا هو اللطف، ففى كل قدر لطف وفى كل بلاء نعمة، ومن ظن انفكاك لطف الله عنه فذلك لقصور نظره عن مشاهدة آثار قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف: 100].

إذا ضاق بك الأمر ففكّر فى ألم نشرحْ
فعسر بين يسرين لذا لابد أن يبرحْ

(1) زاد المعاد (3/125-126).

وهـذه أم المؤمنين عـائشـة تـوقـد فيك جذوة الأمـل، إن كانت عـواصف البـلاء قـد أخمدتها، وتمحو فـي نفسك آثـار اليأس والقنوط عن طريق قولها : «كن لما لم ترجُ أرجى منك لما ترجو، فإن موسى بن عمران خرج يقتبس ناراً فرجع بالنبوة»[1] .

فإن أردت المزيد معك أتيناك بشعر الفقيه الأديب الثارى :

اشتـدى أزمة تنفرجى	قـد آذن ليلـك بـالفـرج
مهما اشتدت بك نازلة	فاصبر فعسى التفريج يجى

يريد أن يقـول لك إذا ضـاق الأمـر اتسع، وإذا اشتـد الحبل انقطع، واعلم (أن وراء الظلام فجراً، وخلف الغمام بدراً، أن ضحك الرياض فى بكاء السحاب، وحياة النبات فى شق التراب، وأنها الغمرات ثم ينجلين، والظلمات ثم يولين، وإن حالها لا يدوم أبداً، وأن مع اليوم غداً)[2] .

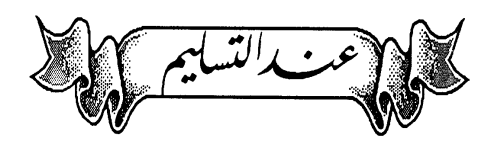


(1) الفرج بعد الشـدة ص(52) - جلال الدين السيوطى - ط دار الشهيد.

(2) النفحات ص(134) - د/ عبد الوهاب عزام - ط مكتبة النور.







♥ **هل شكرت ؟:**

قال أبو حامد الغزالى:

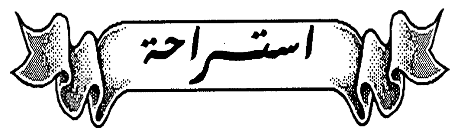
«ومما ينبغى أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر : أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد، ولذلك كان **الفضيل بن عياض** يقول : عليكم بملازمة الشكر على النعم ، فَقَلَّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم، وقال بعض السلف: النعم وحشية فقيِّدُوها بالشر» (1).

فإذا عقدت هذه الصفقة وكنت من أصحابها ، فاستمسك بهذه النعمة وعض عليها بالنواجذ، واحمد الله الذى استعملك فى طاعته بينما حقت كلمته على غيرك من العاصين، وأعزك بالقرب منه بينما طرد غيرك عن جنابه فكان من الغاوين، وخصك بفضله ورحمته والمحرومون كثير، فليلهج لسانك بشكر هذه النعمة، ثم عَضِّد شكر اللسان بشكر الجوارح، فلا تستعملها فى معصية وهى حديثة عهد بطاعة، بل أتبع الحسنة بمثلها، وآنس الطاعة بأختها.



(1) إحياء علوم الدين (132/4).





من عبير الرعيل الأول

* إخلاص محمد ﷺ حوَّل كل بقعة حل بها إلى طهر «وجُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً»، ونفاق المنافقين حوَّل المسجد إلى نجاسة والصلاة فى موضع النجاسة حرام بالإجماع ﴿ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: 108].

* دراهم **أبى بكر** أصلية ضرب عليها ﴿وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: 37]، ودراهم **ابن أبى زائفة** نقش عليها: ﴿ لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ [التوبة: 53] وعند الشراء ينكشف الزيف.

* **سعيد بن عامر** رضي الله عنه والى حمص وأفقر فقرائها بعث له أمير المؤمنين عمر مالا يصلح به شأنه فأصلح به شأنه.. تاجر مع الله فربحت تجارته.. بذلك على فاقة ليغنم يوم الفاقة.. وأنفق فى تجهيز محل الإقامة ليطيب اللقاء يوم الوصول..

سعيد لما جاءه المال قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.. لسان حاله: ما أصنع بهذا البلاء، وشقى لما أتاه المال قال: إنا والله فى لهونا غارقون.. لسان حاله: مرحى مرحى بالفحشاء.. سعيد أجره عالى لأن بذله غالى، وشقى سيره غاوى فهو للنارى غاوى.

* أرهب عمر رضي الله عنه شيطانه، فكان عمر إذا سلك فجًا غير الشيطان طريقه وسلك فجًا غير فجه، لأن عمر ورث قوته المرعبة من نبى قال عن نفسه: «نصرت بالرعب مسيرة شهر».

* رأى **عبد الله بن رواحة** رضي الله عنه مصرع أخويه أمام عينيه يوم مؤتة بعد حملهما راية الموت، وجاء دوره فتردد ثم استنزل نفسه فقاتل حتى قتل، علم الذى لا تخفى عليه خافية الفارق فأعلن على لسان حبيبه «لكنى رأيت ازورارا [1] فى سرير ابن رواحة»، العدالة حتمية لأن الدقة خردلية ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

* نزع **حنظلة** رضي الله عنه نفسه من أحضان عروسه ليلة الزفاف لأن الحور نادته، وهو يعلم جيداً الفارق بين هذه وتلك، وعند إراقة دمه أعلنت الملائكة حالة الطوارىء: فريق يُغَسِّله، وفريق يطيبه، وفريق يَزُفُّه إلى عروسه الجديدة.

(1) ازورارا: ميلا يدل على نقصان فى المرتبة.



* فى طريقـهم إلى تبـوك مر أصحـابة على آبار عـاد وثمود، فـمنعـهم النبى ﷺ من الشرب منها رغم شدة عطشهم لأن سؤر الكلاب نجس.

* لما دنت قافلة المحبين من أحد لاحت لهم من بعيد ديار الحبيب، وما إن خالطت أنفاس انس بن النضر أنفاس معشوقته حتى هبت النسمات فزفر بالأنات: واهًا لريح الجنة إنى لزجد ريحها خلف أحد..، ثم دخلها بعد أن دفع رسم الدخول: بضعاً وثمانين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم.

* تنافس معاذ ومعوذ على ذبح رأس الكفر أبى جهل على الطريقة الإسلامية، ليقدما رأسه هدية إلى النبى ﷺ، فهذا ضربة وذاك أخرى حتى قتلاه، وعند قبض الثمن اختلفا فتخاصما إلى النبى ﷺ فطلب رؤية دليل الإثبات (السيوف)، وبعد المعاينة قضى باقتسام الأجر مناصفة قائلاً: «كلاكما قتله».

* اشتد الجوع على المسلمين فى حصار يهود خيبر فلجأوا إلى أكل الحمر الأهلية، وعند التسمية والهم بالبدء جاء الأمر صارماً من النبى ﷺ: «حُرِّمَت عليك الحمر الأهلية»، صدر الأمر بعد تجشم مشقة جخع الحطب، وتكبد أثمان الحمر ليكون اختبار الإيمان أصعب وبرهان المحبة أوضح.

تقدم إلى الامتحان 1400 من تلامذة النبى ﷺ، ونظر لكفاءة المعلم فقد جاءت نسبة النجاح 100%.

* عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح رضي الله عنه، صحابى له من اسمه نصيب، عصمه ربه وثبته فأفلح، حفظ الله فحفظه الله، أقسم ألا يمس مشركًا ولا يمسه مشرك فثار الكون كله من أجله يوم استشهد: الدبابير خرجت نهارًا تحميه، والسيل انهمر ليلاً يفديه، فما استطاع أحدٌ من المشركين مس شعره منه، غاظ عاصمَ أعدائه لأنه فى الجملة فاعلٌ وليس مفعولاً به، والفاعل دومًا مرفوع لا يكسره شىء.





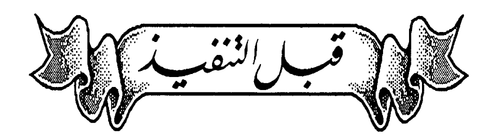


الصفقة السابعة

اسكب العطر الحلال



لك مقدار دمع .. إن لم تكفك الدنيا لتذرفه ، ذرفته في الآخرة ، وعندك مخزون حزن .. إن استنفدته فى دنياك ، انمحى من ذاكرتك معنى الحزن فى أخراك ، وكنت من الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ، ادفع الثمن كاملاً اليوم فلا مجال هناك للمساومة .



♥ ابدأ مستغفراً:

• **قال ابن قيم الجوزية:**

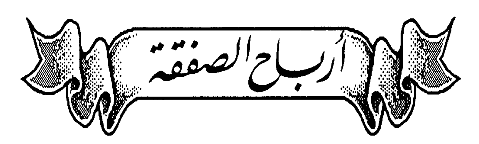
«وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ يوماً : سئل بعض أهل العلم : أيهما أنفع للعبد : التسبيح أو الاستغفار؟ فقال : إذا كان الثوب نقياً فالبخور وماء الورد أنفع له، وإذا كان دنسًا فالصابون والماء الحار أنفع له، ثم قال لى رحمه الله : كيف والثياب لاتزال دنسة؟!»[1] .

• **أخى المشترك:**

امنح نفسك دقيقة واحدة قبل بداية القراءة، أغمض فيها عينيك، وأحضر قلبك وأحرق خبث ذنبك بنار ندمك، ثم الهج بالاستغفار ليطهر القلب، فتلاقى الموعظة فى قلبك موضع قدم، وتحُدِث أثرها فتنجح الصفقة وتجنى أرباحها.



(1) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص(85) .



♥ **لأن عبد الله بن عمر** رضي الله عنه اطلع على هذه الأرباح فقد قال: لأن أدمع من خشية الله أحب إلى من أن أتصدق بألف دينار، وكان رفيقه فى المشاهدة وأخوه فى التفكر **أبو الفرج ابن الجوزى** الذى قال: قطرة من الدمع على الخد أنفع من ألف مطرة على الأرض، ومن هذه الأرباح غير المبالغ فيها أن الباكى من خشية الله:

(1) فى ظل العرش:

فإن الباكى من خشية الله قد وعده النبى ﷺ بأن يكون من السبعة الذى يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

هذا رجل امتلأ قلبه خشية لربه حتى فاض على عينيه بالعبرات، وعامل الله سراً فأثابه الله جهراً، بل وسلّمه جائزته على رؤوس الخلائق يوم القيامة، ولما قاسى حرارة الخوف من الله فى الدنيا، كان جزاؤه من جنس عمله، فعافاه الله من حر يوم القيامة وأظله فى ظل العرش.

(2) فى مأمن من عذاب الله:

عن **ابن عباس** ـ رضى الله عنهما ـ قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس فى سبيل الله»(1).

إن عينًا ذرفت الدمع خشية من الله لهى عين ناجية، ولو كان هذا الدمع طفرة ثم ولت، أو مرةً فى العام ثم أدبرت.

قال **سفيان الثورى**: «البكاء عشرة أجزاء فواحد منها لله والتسعة كلها رياء، فإذا جاء ذلك الجزء الذى لله تعالى فى السنة مرة واحدة، نجا صاحبه من النار إن شاء الله»(2).

ويسمى **القشيرى** ذلك الباكى (عتيق الله بشعرة)، ويحكى قصته قائلاً:

«إن عبداً شهد عليه أعضاؤه بالزلل، فتطايرت شعرة من جفن عينيه فتستأذن

(1) رواه الترمذى عن ابن عباس وأبو يعلى فى مسنده عن أنس كما فى مشكاة المصابيح رقم(3829).
(2) تنبيه المغترين ص(44).

بالشهادة، فيقول الحق: تكلمي يا شعرة جفن عبدى واحتجي عن عبدى، فتشهد له بالبكاء من خوفه، فيغفر له وينادى مناد: هذا عتيق الله بشعرة» [1]، فتقوم الشعرة بمهمة الشاهد الذى حسمت شهادته القضية وجلبت الحكم بالبراءة.

هى الدموع المباركة إذن تقى صاحبها من عذاب الله، ولا تمس موضعًا إلا حمته، ولا عضواً من أعضاء الجسد إلا حرمت عليه النار، قال أبو معشر: «رأيت **ابا حازم** (سلمة بن دينار الأعرج) يقص فى المسجد ويبكى ويمسح بدموعه وجهه، فقلت: يا أبا حازم، لم تفعل هذا؟ قال: «بلغنى أن النار لا تصيب موضعًا أصابته الدموع من خشية الله» [2].

وقد يحتاط تقى ورع أو عابد مجاهد فيحضر شهود إثبات غير شعر جفن العين، كما هو فى حالة **ثابت البنانى** الذى قال: « ما تركت فى المسجد سارية إلا ختمت القرآن عندها وبكيت عندها» [3].

وإن كان الكثيرون ينظرون إلى البكاء على أنه عبادة فردية، إلا أن **للحسن البصرى** رأى آخر حيث يراه عبادة متعددة النفع، فيقول: «لو بكى عبد من خشية الله لرحم من حوله ولو كانوا عشرين ألفا» [4].

(3) فى كنف المحبة الإلهية:

عن **أبى أمامة** رضي الله عنه، عن النبى ﷺ قال: « **ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين: قطرة دموع من خشية الله، وقطرة دم تهرق فى سبيل الله، أما الأثران فأثر فى سبيل الله (الجهاد)، وأثر فى فريضة من فرائض الله** » [5].

والسر فى هذا أن البكاء من خشية الله أبلغ دليل على أن خوف الله فى القلوب طرد الخوف ممن سواه، وصار متربعاً على عرش القلب لا ندَّ له ولا شريك، فلا خوف ولا وجل ولا رجاء ولا توكل ولا رغبة ولا تعلق إلا باللهَ وحده الذى تتصدع الجبال إذا نزل عليها كلامه، وتوجل القلوب وتنفطر إذا تليت عليها آياته، وتسرى هذه القشعريرة من القلب إلى العين، فتترجمها دموعاً جارية أصدق ما توصف به:

(1) لطائف الإشارات (223/3).
(2) صفة الصفوة (92/2).
(3) صفة الصفوة (149/3).
(4) المدهش ص(436).
(5) رواه الترمذى والضياء عن أبى أمامة كما فى الجامع الصغير رقم(7600) ورمز له السيوطى بالصحة.

وليس الذى يجرى من العين ماؤها ولكنها روحــى تذوب فتقـــــطر

ويصوغ هذا المعنى سيد الزهاد **يحيى بن معاذ** فى كلمات مذاقها أشهى من العسل فيقول: «من كان يريد القرب من المحبوب فليكثر البكاء على المحبوب» [1].

ولأن الله يحبهم يحبب فيهم خلقه.. إنسهم وجنهم.. حيهم وجمادهم.. فالزهر يحن إلى شجوهم.. والكون يطرب لشدوهم.. والأرض عطشى إلى دمعهم..

بكى الباكون للرحمــن ليــلا وباتوا ليلهم لا يســـــأمونا

بقاع الأرض من شــوق إليهم تحنُّ متى عليها يسجــــدونا

(4) غفران الذنوب:

قرر **أبو يحيى مالك بن دينار** أن البكاء على الخطيئة يحط الخطايا كما تحط الريح الورق اليابس، وإن كان الحافظان يحصيان أنفاسك ويسجلان همساتك ويستعينان فى ذلك بذاكرة لا يعرف النسيان إليها سبيلاً، فإن الوضع فى حالة البكاء مختلف.. قال **يزيد الرقاشي:** بلغنى أن من بكى على ذنب من ذنوبه نسى حافظاه ذلك الذنب..

كتبت بأدمعى فى صحن خدى كتـــاباً بالتـــذلل والخضـــوع

فقـــالوا قد عفـــونا عنـــك لما محوت قبيح فعلك بالدمـــوع

(5) علامة التوبة الصادقة:

من مشاهداته وتفرساته فى أحوال المؤمنين رأى **يحيى بن معاذ** أن (علامة التائب إسبال الدمعة وحب الخلوة، والمحاسبة تنفس عنه كل همة) [2]، بل جزم بعضهم أنه ما ارتوى زرع توبة قط إلا من جداول الحدق، وتعليل هذا أنه لما كثر الزيف وعم البهرج، وتسلل إلى الصالحين أدعياء الصلاح، ولبس المراؤون لباس الأبرار، وأتقن بعضهم فن التصنع واحترف التمثيل احتاج أمر التوبة إلى دليل، والاعتراف سيد الأدلة، فإن صاحب الاعتراف قرينة تؤكده كالدموع، جاء العفو شاملاً وقضى القاضى بالبراءة.

لتذرف دمعك المدرار حتــى تعود الصحف بيضاءً نقيـة

فإن سقوط دمع العين سَحًا دليــل العفــو من رب البرية

(1) تنبيه المغترين ص(178).
(2) صفة الصفوة (61/4).

(6) شعار القلب الحي:

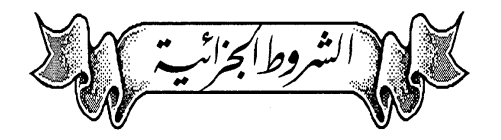
لأن (الخشبة اليابسة إذا دخل طرفها الواحد في النار عرق طرفها الآخر، وكذلك القلب إذا كانت فيه حرقة ندامة الذنوب جادت العينان بوابل الدموع، ولانت الجوارح بالخضوع، والقلب بالإنابة والخشوع)[1].

يا أخي.... إن المسافر إذا طالت غيبته ترحّموا عليه وعَدّوه في الأموات، فيا من طالت غيبته عن المجلس: إن كان قلبك وقت المواعظ يخشع وعينك تدمع فهناك أمل، وإلا فعظّم الله أجرك وأحسن عزاءك.



(1) بستان الواعظين ورياض السامعين ص(178) - ابن الجوزي - ط دار الريان.





* لعلمه بفضل البكاء من خشية الله وفداحة مصاب من فاته ثوابه، فقد نفى **أبو محمد ثابت البنانى** الخيرية عن العين المجدبة، وحين رق الناس لحاله لما رأوا كثرة بكائه، قالوا: لا تبك، قال: «وما خير فى عين لا تبكى»(1) .

(1) قسوة القلب:

لما قدم أهل اليمن زمان **أبى بكر الصديق** رضي الله عنه وسمعوا القرآن جعلوا يبكون، فقال **أبو بكر**: «هكذا كنا ثم قست القلوب»(2) .

هكذا عدّ الصديق قحط العينين وعدم جودهما بالبكاء من علامات قسوة القلب، وإحاطته بطبقات الران، وفقدانه لحساسيته الإيمانية فلا يستقبح ذنباً ولا ينكر منكراً ولا يستوحش خطيئة، ويصير فى قسوته كالحجارة أو أشد قسوة، ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 74] .

بل سمّى **أبو سليمان الدارانى** قحط العينين علم الخذلان والعياذ بالله، فقال: «لكل شىء علم، وعلم الخذلان ترك البكاء»(3) .

بخلت عيونك بالبكا فلتستعر ... عيناً لغيرك دمعها مدرار
من ذا يُعيرك عينه تبكى بها ... أرأيت عيناً للدموع تُعار

فإذا ارتبطت قسوة القلب برجحان كفة السيئات على كفة الحسنات كان من العقوبات فى الآخرة :

(2) البكاء فى النار:

قال النبى ﷺ مخبراً عن رب العزة: «وعزتى وجلالى لا أجمع لعبدى أمنين ولا خوفين،

(1) صفة الصفوة (148/3) .
(2) حياة الصحابة(173/3) .
(3) سير أعلام النبلاء (183/10) .



إن أمننى فى الدنيا أخفته يوم أجمع عبادى، وإن هو خافنى فى الدنيا أمنته يوم أجمع عبادى» [1].

ويتناول واعظ الآفاق أبو الفرج ابن الجوزى هذا الحديث معلقاً وشارحاً فيقول: «لابد من قلق ومن حرقة: إما فى زاوية التعبد أو فى هاوية الطرد، إما أن تحرق ثيابك بنار الندم على التقصير والشوق إلى لقاء الحبيب، وإلا فنار جهنم أشد حراً» [2].

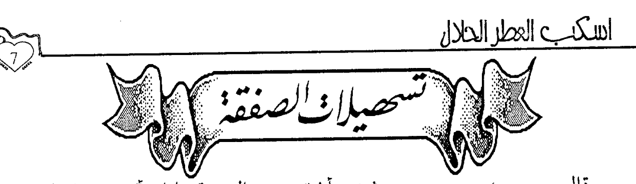
وعن صفة هذا البكاء يحدثنا النبى ﷺ فى كلمات، لولا أن رسول الله ﷺ هو الذى أخبر بها لحسبناها لوناً من الخيال أو ضرباً من الأوهام، فيقول وكأنه يرى هذا المشهد أمام عينيه: « يرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع، ثم يبكون الدم حتى يصير فى وجوههم كهيئة الأخدود، ولو أرسلت فيه السفن بحرت » [3].



(1) رواه ابن حبان وأبو نعيم عن شداد بن أوس وحسنه الألبانى فى ص ج ص رقم (4208).

(2) المدهش ص(264).

(3) رواه ابن ماجة عن أنس كما فى ص ج ص رقم (8087) والسلسلة الصحيحة رقم (3179).



* قال سلام بن أبى مطيع : متى شئت أن ترى من النعمة عليك أكثر منها على غيرك رأيته . قال سلام : «أى والله ، إن أغلقت عليك بابك جاءك من يدق عليك بابك يسألك ، ليعرفك نعمة الله عليك» (1).

أغلق الباكى عليه بابه يسكب العبرات ويطلق الزفرات فإذا بالباب عليه يطرق ، ليجد معاشر المحرومين وجموع المطرودين يسألون ، ولفضله يطلبون ، وبهداه يسترشدون ، فما بخل عليهم بإرشاد ، وما ضن عليهم بنصح ، وأمر كل واحد منهم إن هو أراد بلوغ ما بلغ بتسعة أوامر أولها :

(1) تفكر فى ذنوبك :

من أعظم بواعث البكاء إلى العين ، لأن الذنب هو علامة هوان العبد عند الله ولو عز عنده لعصمه ، ولأنه يبعد الملك ويدنى الشيطان ، ويُبكى الحفظة ، وينفِّر الصالحين ، ويقرب المذنبين ، ويمنع الرحمات ، وينزع البركات ، ويوجب اللعنات ، ويدنى من النار ، ويصرف عن الجنة ، ولو مات العبد فور ارتكابه له لختم له بسوء ، كل هذا يدفع العبد إلى أن يغسل الحوبة بدمع ، ويرفع الزلل بندم ويحرق الذنب بوجل .

دخل أبو داود الحفرى على كرز بن وبرة فإذا هو يبكى ، فقيل له : ما يبكيك؟ قال : «إن بابى لمغلق ، وإن سترى لمسبل ، ومُنعت جزئى أقرأه البارحة ، وما هو إلا بذنب أحدثته» (2).

وانظر إلى الحسن البصرى الذى وصفه بعضهم فقال : كأن النار لم تخلق إلا له ، كان له من التفكر فى ذنوبه باع ، لذا كان غزير الدمع ، فلما قيل له فى ذلك قال : «وما يؤمننى أن يكون اطلع على فى بعض ذنوبى ، فقال : اذهب لا غفرت لك » (3).

وبجواب مشابه أجاب أبو سليمان داود الطائى من استغرب حزنه وبكاءه ، بقوله : «كيف لا يحزن فى الدنيا من تتجدد عليه المصائب فى كل ساعة؟! » (4). (يعنى : الذنوب) .

(1) حلية الأولياء (189،188/6).
(2) صفة الصفوة (59/3).
(3) صيد الخاطر ص(102).
(4) تنبيه المغترين ص(114).

(2) جُل فى الحشر بقلبك:

ما ظنك بيوم ينادى فيه المصطفى آدم والخليل إبراهيم والكليم موسى والروح عيسى، وهم على سلم الكرامة على الله وقمة جبل المحبة، ومع هذا كل ينادى: نفسى نفسى شفقاً من شدة غضبه وهول عذابه، ويذهل فيه رسل الله وتطيش عقولهم، لما رأوا ما لا طاقة لهم به، ويتلعثمون فى إجابة سؤال ربهم ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ﴾ [القصص: 65] فيقولون فى وجل وذهول: ﴿لا عِلْمَ لَنَا﴾ [البقرة: 32]، فما ظننا بهم ذلك اليوم الذى يقف الناس فيه خمسين ألف سنة، لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون شربة، حتى تنقطع أعناقهم من العطش وأجوافهم من الجوع، ويتمنون الانصراف ولو إلى النار التى يرتفع عنقها، لتنطق بلسان فصيح يسمعه بوضوح كل من شهد الموقف، وتنادى على من وُكِّلت بأخذهم من الخلائق، فتلتقطهم التقاط الطير للحب، والناس يشاهدون ولأدوارهم ينتظرون، وبسبب هذا الخوف بكى بديل بن ميسرة العقلى حتى قرحت مآقيه، فكان يعاتب فى ذلك فيقول: «إنما أبكى خوفاً من طول العطش يوم القيامة» (1)

ولما دخل على بن محمد بن إبراهيم على أسود بن سالم ليلة، أنشأ يقول:

أمامى موقف قُـــدَّام ربى ... يسائلنى وينكشف الغطـاء

فحسبى أن أمر على صراط ... كحدَّ السـيف أسفله لظاء

فصرخ أسود ولم يزل مغشياً عليه حتى أصبح (2).



(3) أحضر جهنم أمام عينيك:

ينادى أهلها بأعلى صوتهم: يا مالك قد حق علينا الوعيد... قد أثقلنا الحريق.... يا مالك قد نضجت منا الجلود.. يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود، فيرد عليهم بعد أربعين سنة فى رد يشبه الصاعقة: إنكم ماكثون، لا ينجيهم الندم.. ولا ينفعهم الأسف.. فهم غرقى فى النار.. طعامهم نار.. وشرابهم نار.. ولباسهم نار.. ومهادهم نار.. فهم بين عذاب النار وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل، تغلى بهم النار كما تغلى باللحم القدور، ويهتفون فيها بالويل والعويل

(1) صفة الصفوة (3/151).
(2) صفة الصفوة (2/186).

والثبور، يصب من فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به ما فى بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد، يهشم بها جباههم، فينفجر الصديد من أفواههم، وتنقطع من العطش أكبادهم، ويسيل على الخدود الحدق، كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، غُلّت أيديهم إلى أعناقهم، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم، يمشون على النار بوجوههم، ويطأون أشواك الحديد بأحداقهم، فلهيب سار فى بواطن أجزائهم، وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم.

فبالله هل لأحد منا طاقة على تحمل لحظة واحدة من اللبث فيها؟ أو ما تفتدى نفسك من لحظة واحدة فيها بنعيم الدنيا بأسره؟ أو ما تشترى البعاد عنها بسهر الليل كله وعطش النهار كله إن كان يصلح ثمناً؟

هذا هو الذى أبكى **يزيد بن مرثد**، لما سأله أحد أصحابه: ما لى أرى عينك لا تجف؟ قال: وما مسألتك عن ذلك؟ قلت: عسى الله أن ينفع بى، قال: «يا أخى إن الله توعّدنى إن أنا عصيته أن يسجننى فى النار، ولو توعّدنى أن لا يسجننى إلا فى حمام، لكان حرياً أن لا تجف لى عين» [1].

كان **إبراهيم الخواص** يكثر البكاء أواخر عمره ويقول: «يارب.. قد كبرت وقد ضعف جسمى وقلت عبادتى، فأعتقنى بفضلك من النار، فإنى لا أقدر على أن أمكث فيها لحظة» [2].

إن الملوك إذا شــابت عبيدهـــمُ ... فى رقهم عتقـــوهم عِتـــقَ أبرار
وأنت ياســيدى أوْلى بذا كرمـــا ... قد شِبْتُ فى الرّق فأعتقنى من النار

(4) ما أقل الزاد وأبعد الطريق:

كان **فضالة بن صيفى** كثير البكاء، دخل عليه رجل وهو يبكى فقال لزوجته: ما شأنه؟، قالت: «زعم أنه يريد سفراً بعيداً وما له زاد» [3].

كيف لا أبكى على عيش مضى ... بعــت عمـرى بحقير الثمن
كيف أرجو البرء من داء الهوى ... وطبـيبى فى الهوى أمرضـنى

(1) الزهد لابن المبارك ص(105)- ط دار ابن خلدون.
(2) تنبيه المغترين ص(118).
(3) المدهش ص (204).

هذا طريق القائم فيه على خطر فكيف بالنائم؟ الوقت يكفى المُجدّ بالكاد فكيف بمن أصابته نزلة فتور؟ من انقطعت به راحلته عن إتمام السفر فلا يلومن إلّا نفسه، ومن هلك من شدة العطش فعلى نفسها جنت براقش، لو جئت بعبادة الثقلين خفنا عليك، فكيف إذا لم يكن فى جعبتك غير نفس معيبة، وقلب قاس، وروح آسنة، وفكر عاطل، وإيثار الدنيا على الآخرة ؟!.

(5) احذر فوات الجنة:

قام رجل من الصالحين يصلى من الليل فمر بقوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران: 133]، فجعل يرددها ويبكى حتى أصبح، فقيل له: لقد أبكتك آية ما مثلها يبكى، إنها جنة عريضة واسعة، فقال: «يا ابن أخى، وما ينفعنى عرضها إذا لم يكن لى فيها موضع قدم» (1).

وما أحد أحوج إلى البكاء أقرب إلى الحسرة، من رجل ظن أن الجنة منتهاه والنعيم مثواه ثم بدا له خلاف ذلك، أو رجل فقد طاعة كانت ستمهد سبيله إلى الجنة وتدنيه منها، كبكاء **يونس بن عبيد** حين نظر إلى قدميه عند موته وبكى، فقيل له: ما يبكيك؟، قال: «قدماى لم تغبرا فى سبيل الله» (2).

قام **أبو عبد الله محمد بن المنكدر** ليلة يصلى، فكثر بكاؤه حتى فزع له أهله، فسألوه: ما الذى أبكاك؟، فاستعجم عليهم فتمادى فى البكاء، فأرسلوا إلى **أبى حازم** وأخبروه بأمره، فجاء **أبو حازم** إليه فإذا هو يبكى، فقال: يا أخى ما الذى أبكاك؟ قد رعت أهلك، فقال له: إنى مرَّت بى آية من كتاب الله عز وجل، قال: وما هى؟، قال: قول الله عز وجل ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾[الزمر: 47] فبكى أبو حازم معه واشتد بكاؤهما، فقال بعض أهله لأبى حازم: جئناك لتفرج عنه فزدته» (3).

ولذات السبب كان **عمر بن عبد العزيز** لا يجف له دمع من هذا البيت (4):

ولا خير فى عيش امرىء لم يكن له ... من الله فى دار القـرار نصـيب



(1) الصلاة والتهجد لابن الخراط ص(277).

(2) الحلية (19/3).

(3) صفة الصفوة (83/2).

(4) سير أعلام النبلاء (138/5).

(6) ابك تعجيل الحسنات:

هذا **عبد الرحمن بن عوف** رضي الله عنه يؤتى بطعام وكان صائماً، فقال: «قُتل **مصعب بن عمير** وهو خير منى، فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة، إن غُطِّى بها رأسه بدت رجلاه، وإن غُطِّى بها رجلاه بدا رأسه، ثم بُسط لنا من الدنيا ما بسُط، قد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلت، لنا، ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام» [1].

مصعب بن عمير رضي الله عنه . . الذى كان يرتدى الثوب مرة واحدة فإن تواضع فمرتين، ثم يخلعه لا ليلبسه بل ليرميه، ويسبل إزاره حتى يكاد يتعثر به، ويضع عطراً يعرف بين الناس باسمه، ويمشى مشية يحسده عليها الطاووس، فى سباق دائم مع أصحاب النعيم عفواً بل مع النعيم نفسه، بذر هذا الخوف فى قلب عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، وهو المبشر بالجنة، أفلا يبذر الخوف فى قلبك؟!.

(7) خف سابق علم الله فيك:

كان **الفضيل بن عياض** - رحمه الله - إذا لقى **سفيان الثورى**، يقول له: «تعال حتى نبكى فى علم الله فينا. . هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى وهؤلاء إلى النار ولا أبالى» [2].

وكان **أبو بكر الشبلى** يقول: «ليت شعرى ما اسمى عندك يا علام الغيوب، وبم تختم عملى يا مقلب القلوب» [3].

وكان **بلال بن سعد** يقول: «رب مسرور مغبون، يأكل ويشرب ويضحك وقد حق له فى كتاب الله أنه من وقود النار» [4].

(8) تناغم مع الكون:

البكاء من خشية الله هو المنظومة التى يسير عليها الكون بأسره، والنشيد الذى يشترك الخلق كل الخلق فى ترديده، فإذا لم تذرف دموع الخشية فقد شَذَذْتَ عن الناموس وخالفت النظام.

مر رجل على **عبد الله بن عمر** رضي الله عنه وهو ساجد فى الحجر ويبكى، فقال: أتعجبون

(1) رواه البخارى.
(2) الفتح الربانى ص(37).
(3) صفة الصفوة (277/2).
(4) صفة الصفوة (150/4).

أن أبكى من خشية الله وهذا القمر يبكى من خشية الله؟! ، قال : «ونظر إلى القمر حين شف أن يغيب (كـاد أن يغيب) ولـم يبق منه إلا القليل» [1].

ما أقسى قلبك يا ابن آدم . . وما أعظم جحودك . . وما أعصاك على الله . . وصدق رسول الله ﷺ حين قال : «ليس شيء إلا وهو أطوع لله تعالى من ابن آدم» [2].

(9) ارتفاع بنقصان:

إذا قحطت عينك عن البكاء فابك على مصيبة قلبك المصاب، وإذا بكيت فابك مرة ثانية على عدم صدقك فى بكائك، فكلما ازدرى العبد عمله ازداد قرباً إلى الله، وكلما استعظم عمله لم يزدد من الله إلا بعداً.

سألت عائشة - امرأة أبى حفص النيسابورى - زوجها عن البكاء، فقال : «بكاء الصادق أن يبكى، ويبكى على بكائه أنه غير صادق فى بكائه، لعل الله تعالى ألا يرضى منه ذلك البكاء، فبكاؤه على قلة صدقه فى بكائه أنفع له من ابتداء بكائه، لأنه لا يرفع للعبد حال إلا بنقصانه عنده» [3].

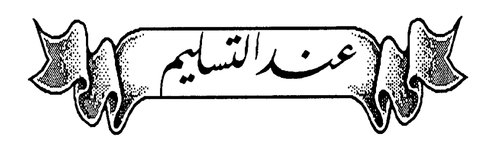


(1) تاريخ دمشق (46/37) - الحافظ ابن عساكر - مؤسسة الرسالة.

(2) رواه البزار عن بريدة، وحسنه الألبانى فى ص ج ص رقم (5269).

(3) ذكـر النسـوة المتعبدات الصـوفيـات ص (75) - أبو عبد الرحمن السلمى - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.





♥ من ترك لله عوّضه الله:

– لما عقر سليمان ﷺ الخيل غضباً لله إذ شغله ذلك عن ذكره . . أعاضه الله عنه متن الريح وتسخير الشياطين . .

– لما ترك الصحابة ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاته . . أعاضهم عنها أن ملكهم الدنيا بأسرها . .

– لما احتمل يوسف الصديق ﷺ ضيق السجن . . شكر له ذلك بأن مكّن له فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء . .

– لما تغيَّرت أفواه الصائمين له . . كان خلوف فم الصائم أطيب عنده فى الآخرة من ريح المسك . .

– لما عطش أولياؤه فى صيامهم . . كان جزاؤهم دخولهم من باب الريان لا يدخله غيرهم .

– لما بذل الشهداء أرواحهم فى سبيله كافأهم بالخلود فى نعيمه . . ولما تركوا زوجاتهم فى الدنيا أبدل الله كل واحد منهم باثنتين وسبعين زوجة من الحور العين .

– لما بذل رسله أعراضهم فيه لأعدائهم فنالوا منهم وسبوهم . . عوّضهم الله عن ذلك بأن صلى عليهم هو وملائكته .





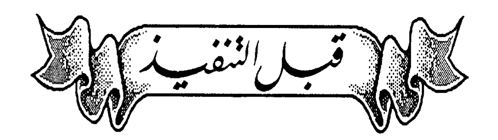
الصفقة الثامنة

خير الناس أنفعهم للناس



كلمة الرجال عقد ، فلا تكن سحابة الصيف أثبت من قولك ، ولا يكونن الخط على الماء أبقى من عهدك ، لا تكن ممن وقع العقد ، ثم لا هو يمضى البيع ، ولا هو ينوى الفسخ ، احزم أمرك وخاطب نفسك قائلاً لها : إن كان محمد صادقاً فأجيبى المؤذن ، وإلا فراعى الكنيسة يدق أجراسها صباح مساء .





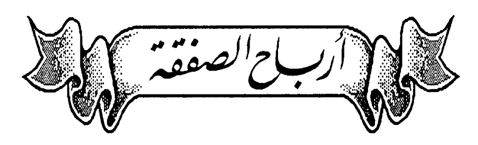
♥ الغريق الأحمق:

من الغباء أن يتمنى الإنسان شيئاً دون دفع الثمن ليحصل عليه، ولا يختلف اثنان على حماقة الذى يرفع يديه إلى السماء منتظراً أن تمطر عليه ذهباً وفضة، والأحمق منه الذى يطلب النجاة فى الآخرة ولا يبذل أسبابها، يصفه الرافعى وهو وسط الموت قائلاً: «ويحه من غريق أحمق.. يرى الشاطىء على بعد منه فيمكث فى اللجة مرتقباً أن يسبح الشاطىء إليه، ويثبت الشاطىء ويدع الأحمق تذوب ملحة روحه فى الماء.

اسبح ويحك وانج.. فإن روح الأرض فى ذراعيك، وكل ضربة منهما ثمن ذرة من هذا الشاطىء، كذلك ساحل الخلد، عاملاً لا وادعاً، يلهث تعباً لا ضحكاً، ويشرق بأنفاسه لا بكأسه، وينضح من عرق جهاده لا من عطر لذاته»[1].



(1) كتاب المساكين ص(63).



♥ لضخامة هذه الأرباح فقد قدم **الماوردى** توطئة لذكرها، تدفع المرء إلى التشبث بكل فرصة معروف تظهر أو بادرة خير تلوح فقال:

«ينبغى لمن قدر على ابتداء المعروف أن يجعله فإنه من فرص زمانه، وغنائم إمكانه، ولا يمهله ثقة بالقدرة عليه، فكم من واثق بقدرة فاتت فأعقبت ندماً، ومعوّل على مُكْنَة زالت فأورثت خجلاً، ولو فطن لنوائب دهره، وتحفَّظ من عواقب فكره لكانت مغارمهُ مدحورة، ومغانمه محبورة، وقد قيل: من أضاع الفرصة عن وقتها، فليكن على ثقة من فوتها»[1].

إذا هبّــت رياحك فاغتنمها	فإن لكــل خافقــةٍ ســكون
ولا تغفل عن الإحســان فيها	فــلا تدرى السكون متى يكون
وإن درّت نياقك فاحتــلبها	فـلا تـدرى الفصيل لمن يكـون

(1) فائدة رباعية:

قال النبى ﷺ: «أحب الناس إلى الله أنفعهم،وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة، أو تقضى عنه ديناً أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشى مع أخى المسلم فى حاجة أحب إلى من أن أعتكف فى المسجد شهراً، ومن مشى مع أخيه المسلم فى حاجته حتى يثبتها له ثبَّت الله قدمه يوم تزل الأقدام»[2].

أخى المتعاقد على هذه الصفقة.. لا تكن ممن تعجبه الكلمات وتغمره السكرات، أو ممن أعظم المهر وأساء الخطبة، أو ممن رام السفر إلى الشام فسلك طريق اليمن، بل كن من أهل العمل بهذا الحديث، العاقدين العزم على أن تكون كلماته أوامر تطاع وتعليمات تنفذ بعد أن أيقظت فيهم مشاهدة أرباحه الرغبة فى فعل الخير، وأوقدت فى ضمائرهم جذوة المعروف يأوى إليها كل ملهوف ويهتدى بها كل حيران.

(1) فيض القدير (206/4).

(2) رواه ابن أبى الدنيا فى قضاء الحوائج والطبرانى عن ابن عمر، وحسنه الألبانى فى ص ج ص رقم (176).

لأنهم شاهدوا هذه الأرباح كان أحدهم يرى لصاحب الحاجة الفضل عليه، كما كان **الليث بن سعد** يقول: «من أخذ منى صدقة أو هدية فحقه علىّ أعظم من حقى عليه، لأنه قبل منى قربانى إلى الله عز وجل» (1).

بل يرى **الفضيل بن عياض** أن المعروف لا يكتمل إلا (أن ترى المنة لأخيك عليك، إذا أخذ منك شيئاً، لأنه لولا أخذه منك ما حصل لك الثواب، وأيضاً فإنه خصك بالسؤال ورجا فيك الخير دون غيرك) (2)، وفوق ذلك.. كان بعضهم يجعل الصدقة التى يريد التصدق بها فى يده، ويدعو الفقير لتناولها لتكون يد الفقير هى العليا، ويد المتصدق هى السفلى، إذ الفقير بقبول صدقتك يصلح لك دينك، وأنت بإعطائه صدقتك تصلح له دنياه فيصبح له الفضل عليك.

(2) غفران الذنوب:

قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل يمشى بطريق، وجد غصن شوك على الطريق فأخّره، فشكر الله له فغفر له» (3).

هذا رجل حرّكه حب الخير لا حب الثناء، إذ لن يراه أحد ممن عبر الطريق التى مهدها ليشكره، لكن ذلك لن يضره، لأن الله جل جلاله بنفسه بعث له شهادة تقدير باسمه فحواها (**شكر الله له**)، ووقّع عليها بصك الغفران وخاتم القبول (**فغفر له**)، فهنيئاً له، هنيئاً له، هنيئاً له.

لما فهم ذلك **الحسن البصرى** صار يتزلف إلى الله مع كل صدقة ينفقها، ومع كل معروف يصنعه ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إن هذا يسألنا القوت، ونحن نسألك الغفران، وأنت بالمغفرة أجود منا بالعطية» (4).

(3) فقير يتصدق على فقير:

لأن الغنى ليس غنى المال فحسب، وإنما كل ما ملكته وفقده غيرك فأنت به غنى وغيرك إليه فقير، صحة كان أن علماً أو حكمة أو غير ذلك من النعم، فليتصدق الصحيح من صحته والعالم من علمه والبصير من حكمته، ولينفق كل ذى فضل من فضله، وتتغير

(1) تنبيه المغترين ص(138).
(2) السابق ص (142).
(3) رواه مالك وأحمد والشيخان عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (2874).
(4) تنبيه المغترين ص(150).

المقاييس عند ذلك ليصبح مانع فضله هو البخيل المقيت، وباذل خيره هو الجواد الكريم، ويعود فعل المعروف هو العملة المتداولة فى سوق الصالحين، ورأس مالهم الذى به يتاجرون، وبحماه يحتمون، وإليه يركنون.

قال النبى ﷺ: «تبسمك فى وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك لك صدقة» [1].

(4) من أهل الجنة:

أخبرنا النبى ﷺ أن صانع المعروف صاحب القلب الرحيم من أهل الجنة، فقال فى تقريره وتحديده لأهل الجنة: «وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال» [2].

وتتنوع أساليب النبى ﷺ ليرسخ هذا المعنى فى جذور قلوب أصحابه، فتراه يسألهم يوماً: «من أصبح منكم اليوم صائماً؟» قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال ﷺ: «من اتبع منكم اليوم جنازة؟» قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال ﷺ: «فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟» قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال ﷺ: «ما اجتمعن فى رجل إلا دخل الجنة» [3].

وتأمل.. ثلاثة أسئلة من أصل أربعة تتعلق بأداء المعروف إلى الغير، كأن رسول الله ﷺ يطل برأسه من وراء الأسطر والحروف، يسألك بنفسه هذه الأسئلة، ويقول لك: بذور الخيرات ثمار الجنات، ومن قاسى هجير صنع المعروف فى الدنيا استراح فى ظلال النعيم فى الآخرة، وكم ستقر عينه ﷺ فى قبره لو كانت عزماتك خيرية وإجاباتك صديقية.

(5) صنائع المعروف تقى مصارع السوء [4]:

كم بلية غائبة فى رحم الغيب أجهضها معروف بذلته أو هم فرجته أو حاجة قضيتها أو محنة أزحتها، واسمع إلى محمد بن الحنفية حين يجزم بأن (صانع المعروف لا يقع، ولو وقع لا ينكسر) [5].

---

(1) رواه البخارى فى الأدب المفرد والترمذى وابن حبان عن أبى ذر كما فى ص ج ص رقم (2908).
(2) رواه أحمد ومسلم عن عياض بن حمار كما فى ص ج ص رقم(2637).
(3) رواه مسلم فى كتاب فضائل الصحابة رقم (12).
(4) رواه الطبرانى عن أبى أمامة وحسنها الألبانى فى ص ج ص رقم (3797).
(5) تنبيه المغترين ص(140).

بل يقسم على بن أبى طالب رضي الله عنه فى كلمات تلمح فيها بريق الوحى وتشم فيها رائحة النبوة، فيقول: «والذى وسع سمعه الأصوات. . ما من أحد أودع قلباً سروراً إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفاً، فإذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء فى انحداره، حتى تطردها عنه كما تطرد غريبة الإبل»[1].

فإذا أعياك مرضك وحار الأطباء فى علاجك، وبدأ اليأس زحفه المريع نحو قلبك فتذكر هذا الدواء الناجح، وجَرِّبه كما جَرَّبه عبد الله بن المبارك مع أحد مرضاه فعوفى وشُفى.

سأل رجل ابن المبارك فقال: يا أبا عبد الرحمن، قرحة خرجت من ركبتى من سبع سنين، وقد عالجت بأنواع العلاج، وسألت الأطباء فلم أنتفع به، قال: فاذهب فانظر موضعاً يحتاج الناس للماء فاحفر هناك بئراً، فإننى أرجو أن ينبع هناك عين، ويمسك عنك الدم، ففعل الرجل فبرأ[2].

وإن طلبت مثلاً من العصر الحديث فاسمع منا:

يذكر رجل يُسمى ابن جدعان فيقول: خرجتُ فى فصل الربيع، وإذا بى أرى إبلى سمانًا يكاد الربيع أن يفجر الحليب من ثديها، فقلت: والله لأتصدقن بهذه الناقة وولدها لجارى، فالله يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92]، وأحب حلالى هذه الناقة، يقول: فأخذتها وابنها، وطرقت الباب على الجار وقلت: خذ هدية منى لك، فرأيت الفرح فى وجهه كان يرى ماذا يقول، وجاءه منها خير عظيم.

فلما انتهى الربيع وجاء الصيف بجفافه وقحطه، شددنا الرحال نبحث عن الماء فى الدحول - والدحول هى حفر فى الأرض توصل إلى محابس مائية لها فتحات فوق الأرض - يقول: فدخلت فى هذا الدحل حتى أحضر الماء لنشرب - وأولاده الثلاثة خارج الدحل ينتظرون - فتاه تحت الأرض وانتظر أبناؤه يوما ويومين وثلاثة حتى يئسوا، وكانوا - عياذاً بالله - ينتظرون هلاكه طمعًا فى تقسيم المال، فذهبوا إلى البيت وقسموا، وتذكروا أن أباهم قد أعطى ناقة لجارهم الفقير، فذهبوا إليه وقالوا له: أعد الناقة خيراً لك، وخذ هذا الجمل مكانها وإلا سنسحبها عنوة ولن نعطيك شيئاً.

---

(1) المستطرف فى كل فن مستظرف ص(125) - شهاب الدين الأبشيهى - ط دار الكتب العلمية.
(2) رواه البيهقى عن العلى بن الحسن بن شقيق كما فى صحيح الترغيب والترهيب رقم (953).

قال: أشتكيكم إلى أبيكم.

قالوا: اشتك إليه، فإنه قد مات.

قال: مات!! وكيف مات؟ ولم لم أعلم بذلك؟

قالوا: دخل دحلاً في الصحراء ولم يخرج.

قال: ناشدتكم الله اذهبوا بي إلى مكان هذا الدحل، ثم خذوا الناقة وافعلوا ما شئتم ولا أريد جملكم، فذهبوا به، فلما رأى المكان الذي دخل فيه صاحبه الوفي ذهب وأحضر حبلاً، وأشعل شمعة، ثم ربطه خارج الدحل، ونزل يزحف ويشم رائحة الرطوبة تقترب، ويتلمس الأرض حتى وقعت يده على الرجل، فإذا هو يتنفس بعد أسبوع، فقام وجرّه، وربط عينيه حتى لا تنبهر بضوء الشمس، ثم أخرجه معه خارج الدحل، وأطعمه وسقاه، وحمله على ظهره، وجاء به إلى داره، ودبت الحياة في الرجل من جديد وأولاده لا يعلمون، فقال: أخبرني بالله عليك، أسبوعا كاملاً وأنت تحت الأرض ولم تمت؟ قال: سأحدثك حديثًا عجبا، لما نزلت ضعت وتشعبت بي الطرق، فقلت: آوى إلى الماء الذي وصلت إليه، وأخذت أشرب منه، ولكن الجوع لا يرحم، فالماء لا يكفي.

يقول: وبعد ثلاثة أيام، وقد أخذ الجوع مني كل مأخذ، وبينما أنا مستلق على قفاي، قد أسلمت وفوّضت أمري إلى الله، وإذا بي أحس بدفء اللبن يتدفق على فمي، فاعتدلت في جلستي، وإذا بإناء في الظلام لا أراه يقترب من فمي فأشرب حتى أروى، ثم يذهب، فأخذ يأتيني ثلاث مرات في اليوم، ولكنه منذ يومين انقطع ما أدرى ما سبب انقطاعه؟ يقول: فقلت له: لو تعلم سبب انقطاعه لتعجّبت، ظن أولادك أنك مت، وجاءوا إليّ وسحبوا الناقة التي كان الله يسقيك منها، والمسلم في ظل صدقته، ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 3,2] [1].

(6) دنياك مرآة آخرتك:

قال النبي ﷺ: « إن أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة» [2].

وأهل المعروف في الآخرة وحدهم هم من يكسوهم الله ويطعمهم الله ويسقيهم الله

(1) الجزاء من جنس العمل ص(519-520).

(2) رواه الطبراني عن سلمان وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم (2031).

ويغنيهم الله، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «يُحشر الناس يوم القيامة أعرى ما كانوا قط، وأظمأ ما كانوا قط، وأنصب ما كانوا قط، فمن كسا لله كساه الله، ومن أطعم لله أطعمه الله، ومن سقى لله سقاه الله، ومن عمل لله أغناه الله»[1] .

(7) علامة الإيمان:

تقول العامة : الإحساس نعمة، وهذا حق فمن فقد الإحساس بغيره فقد فقد الإيمان وأخمد جذوته ، قال النبي ﷺ : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[2] .

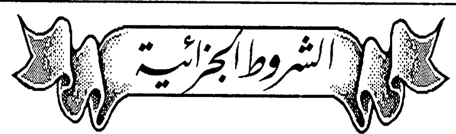
فالمؤمن الحق تلمح في بريق عينيه بوارق البذل، وتسمع من فلتات لسانه كلمات البر، وتشم بين ثنايا أفعاله رائحة احتراق النفس ليسعد الآخرون وفناءها ليحيا البائسون، ودفنها في التراب لينبت على أثرها المحرومون .

والإحساس بالمؤمنين والمواساة لهم أنواع : (مواساة بالمال، ومواساة بالجاه، ومواساة بالبدن والخدمة، ومواساة بالنصيحة والإرشاد، وموساة بالدعاء والاستغفار لهم، ومواساة بالتوجع لهم، وعلى قدر الإيمان تكون هذه المواساة، فكلما ضعف الإيمان ضعفت المواساة، وكلما قوى قويت، وكان رسول الله ﷺ أعظم الناس مواساة لأصحابه بذلك كله، فلأتباعه من المواساة بحسب اتباعهم)[3] .

فواس المؤمنين بأي من هذه الأنواع، نعلم أن في جسدك بقية حياة وفي قلبك بعض إيمان، ولبلوغ هذا الإحساس ذروته علامات منها : بكاؤك إذا طُلبَ إليك أن تحسن كما بكى **أبو بكر محمد بن سوقة** ، فإنه لما طلب إليه ابن أخيه شيئاً فقال له : يا عم لو علمت أن مسألتي تبلغ منك هذا ما سألتك، قال : «ما بكيت لسؤالك، إنما بكيت لأني لم أبتدئك قبل سؤالك»[4] .



(1) قضاء الحوائج ص(41-42) - ابن أبي الدنيا - ط مكتبة القرآن .
(2) رواه أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير كما في ص ج ص رقم (5849) .
(3) الفوائد ص(222) .
(4) صفة الصفوة (57/3) .

* من نُزع الرحمة من قلبه فقد رمى بنفسه إلى هاوية :

(1) الخيبة والخسران:

نطق بهذا النبى ﷺ فقال :

«خاب عبد وخسر من لم يجعل الله تعالى فى قلبه رحمة للبشر» [1]. وهذه الخيبة والخسارة مردهما إلى طرده من رحمة الله، فجزاؤه من جنس عمله ومصيره من نسج يده . .

ألم تسمع حديث النبى ﷺ : « من لا يَرحم لا يُرحم » [2].

كان الإمام الزمخشرى فى طفولته بجلس طائراً فى بيته، فأتى هذا الطائر وقطع الحبل فنشبت رجله، فانقطعت مع الحبل، وذهب الطائر برجل واحدة، فقالت له أمه : قطع الله رجلك كما قطعت رجل هذا الطائر، فذهب فوقع فى الثلج فى طريقه إلى مكة، فكسرت من فخده، وأصبح على رجل واحدة [3].

ديننا يا إخوة هو الدين الذى أدخل امرأة النار فى هرة حبستها، وأدخل رجلاً الجنة فى كلب سقاه، هو دين الرحمة جاء به نبى الرحمة من رب يرحم من عباده الرحماء، ويثيب من زرع سنبلة رحمة بين عباده بجنيها حقل رحمات يوم الحصاد، ويُجازى من عرّض زرع رحمته للبوار يوم القيامة بالبوار .

(2) زوال النعم:

قد قيل : «النعمة وحشية فقيدوها بالشكر» [4].

لذا أوصى على بن أبى طالب رضي الله عنه جابراً فقال : «يا جابر، من كثرت نعم الله عليه

(1) رواه الدولابى فى الكنى وأبو نعيم فى المعرفة وابن عساكر عن عمرو بن حبيب وحسنه الألبانى فى ص ج ص رقم (3205).

(2) رواه الطبرانى عن جرير كما فى ص ج ص رقم(6600) والصحيحة رقم (483).

(3) الجزاء من جنس العمل (118/2).

(4) إحياء علوم الدين (132/4).

كثرت حوائج الناس إليه، فإن قام بما يجب لله فيها عرّضها للدوام والبقاء، وإن لم يقم بما يجب لله عرضها للزوال» [1].

ويلفت **الحسن البصرى** أنظارنا إلى أن كل نعمة تحمل بين ثناياها اختباراً يتعرض له كل من يتمتع بها فيقول: «إن الله ليخوِّل العبد فى نعمته وينظر ماذا يصنع فيها مع عباده، فإن وفّاهم ما طلبوا وإلا حوّلها عنهم» [2].

هل علمتم الآن لماذا كان السلف يعزمون على أصحابهم ويشددون عليهم فى عدم رد ما أعطوه إليهم؟

(3) عصابة الأشقياء الثلاثة:

قال النبى ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بفلاة يمنعه ابن السبيل يقول الله له: اليوم أمنعك فضلى كما منعت فضل ما لم تعمل يداك» [2].

يستحق هذا العذاب أصحاب القلوب الحجرية الذين ظنوا أنهم استحقوا نعم الله بكدهم وتعبهم، وأنهم حازوها بذكائهم وعبقرياتهم، وغاب عنهم أنها عارية هم بها ممتحنون، وأمانة هم لها مؤدون، فمنعوا عيال الله مال الله، فانتقم الله لعياله وحرم من حرمهم وعذّب من عذّبهم، والموقع على العقد يعلم أن الأمر ليس مقصوراً على قوله (فضل ماء) بل الأمر أوسع وأشمل، فيدخل فيه: فضل علم، وفضل صحة، وفضل مال، وفضل نجدة، وغير ذلك من الأفضال التى لا يخلو منها أى مسلم مهما كان فقره أو بلغت فاقته.

(4) عتاب يورث حياء وحسرة:

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى، قال يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى، قال: يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان

(1) المستطرف ص(125).
(2) تنبيه المغترين ص(149).
(3) رواه الشيخان وأبو داود والنسائى وابن ماجة عن أبى هريرة كما فى صحيح الترغيب والترهيب رقم (955).

فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى؟ يا ابن آدم استسقيْتك فلم تسقنى، قال: يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدى فلان فلم تسقه أما أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى» (1).

♥ **وهو عتاب** . . لو سمعه أحد أهل الجنة من غير أهل العمل به لامتلأ حسرة وندامة، فكيف لو كان من أهل النار؟

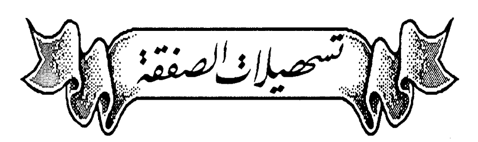
♥ **وهو عتاب** . . لو كان فى الدنيا حيث العمل ولا حساب لآلم أشد الإيلام، فكيف وهو يوم القيامة حيث الحساب ولا عمل؟

♥ **وهو عتاب** . . لو وجهه إليك أخوك المريض أو الجائع أو العطشان لكسى وجهك بحمرة الخجل، فكيف وقد وجهه إليك صاحب الأمر بالإحسان إلى هؤلاء؟ .

♥ **وهو عتاب** . . من رب رحيم يريد به أن يقول لك: قد فتحت لك باباً من أبواب الجنة فلا تغلقه، ومهَّدت لك الطريق إليها فلا تسلك غيره، ونقلت لك ما يكون يوم القيامة لتتلافى أسباب العتاب وتَعُبّ من كأس الثواب، ومن لم يهزه يسير الإشارة لم ينفعه كثير العبارة.



(1) رواه مسلم عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (1916).



(1) زر أهل البلاء:

زر داراً للأيتام، واعطف على قسم الحالات الحرجة والحروق بأحد المستشفيات، واملأ عينيك بالرؤية لمن ابتلاهم الله يظهر لك أن لين القلوب وامتلاءها بالرحمة، نتيجة عملية ورد فعل طبيعى لهذه الزيارات، لأن حرارة نار الإشفاق تذيب قسوة القلب، والدموع المترقرقة فى عيون هؤلاء تعظم وتعظم إلى أن تصير بحراً تغمس فيه القلوب القاسية غمسة، لو سئلت بعدها: هل رأيت قساوة قط؟، لقالت: والله ما رأيت قساوة قط، فتعود خلقاً جديداً.. تقطر رقة، وتفيض رحمة، وتمتلىء حناناً.

هى وصية النبى ﷺ فينا ما ابتدعناها، قال: «أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح على رأسه، وأطعمه من طعامك، يلن قلبك، وتدرك حاجتك» [1].

(2) فبهداهم اقتده:

كان سلفنا الصالح رياحين من رياحين الجنة، إذا شمها المؤمنون اشتاقت نفوسهم إليها، قال عنهم **مجاهد**: «ما المجتهد فيكم اليوم إلا كاللاعب فيهم» [2]، مجتهد القرن الثالث الهجرى كاللاعب فيهم، فكيف بمجتهد القرن الخامس عشر؟!!

* كان **عامر بن عبد الله التميمى** إذا فصل غازياً يتوسم من يرافقه، فإذا رأى رفقة تعجبه، اشترط عليهم أن يخدمهم ويؤذن فيهم وأن ينفق عليهم طاقته [3].

* وبعث **معاوية بن أبى سفيان** رضي الله عنه إلى **أم المؤمنين عائشة** رضى الله عنها بمائة ألف ففرقتها من يومها، فلم يبق منها درهم، فقالت لها خادمتها: هلا أبقيت لنا درهماً نشترى به لحماً تفطرى عليه؟ فقالت: «لو ذكرتنى لفعلت» [4].

(1) رواه الطبرانى عن أبى الدرداء كما فى السلسلة الصحيحة رقم (852).
(2) الزهد لابن المبارك ص(40) - ط دار ابن خلدون.
(3) سير أعلام النبلاء (117/4).
(4) البداية والنهاية(136/8-137) - ابن كثير - ط دار الكتب العلمية.



* ومن رحمة **عثمان بن عفان** رضي الله عنه مع كبر سنه وعلو مقامه رحمته مع خدمه، فقد كان عثمان بن عفان يأخذ الوضوء لنفسه إذا قام من الليل، فقيل له: لو أمرت الخادم فكفتك، قال: «لا، الليل لهم يستريحون فيه» (1).

* وبلغت الرحمة من **أويس القرني** مبلغاً كان معه إذا أمسى تصدق بما في بيته من الفضل من الطعام والثياب، ثم يقول: «اللهم من مات جوعاً فلا تؤاخذني به، ومن مات عرياناً فلا تؤاخذني به» (2)، وكان مع فقره وحاجته يلتقط الكسرة من المزابل، فيغسلها ويتصدق ببعضها ويأكل بضعها، ويقول: «اللهم إني أبرأ إليك من كل كبد جائع» (3).

(3) معرفة النعمة طريق شكرها:

فمن نظر ببصر لا غشاوة عليه إلى نفسه رأى نعم الله عليه سابغة، فأنفق منها وجاد كما أنفق عليه الكريم منها وجاد، ولم يبخل. كيف وهو يقرأ قول ربه ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92]، ويبلغه تفضيل النبي ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا هي المنفقة، واليد السفلى هي السائلة» (4).

أراد **أبو ذر الغفاري** رضي الله عنه معرفة أنواع هذه النعم لتكون يده هي اليد العليا، فألح على النبي ﷺ في السؤال، حتى يعرفها ويعرف ما لديه منها فينفق بقدر استطاعته ويبذل مد طاقته..

قال رضي الله عنه: سألت رسول الله ﷺ: ماذا ينجي العبد من النار؟ قال: «الإيمان بالله» قلت: يا نبي الله، مع الإيمان عمل؟، قال: «أن ترضخ (تعطى) مما خوّلك الله، وترضخ مما رزقك الله» قلت: يا نبي الله، فإن كان فقيراً لا يجد ما يرضخ؟، قال ﷺ: «يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر» قلت: إن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر؟، قال ﷺ: «فليعن الأخرق»(5)، قلت: يا رسول الله: أرأيت إن كان لا يحسن أن يصنع؟ قال: ﷺ: «فليعن مظلوماً» قلت: يا نبي الله أرأيت إن كان ضعيفاً لا يستطيع أن يعين

---

(1) تاريخ دمشق (236/39).
(2) صفة الصفوة(27/3).
(3) السابق.
(4) رواه الشيخان وأحمد وأبو داود عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم (8197).
(5) الأخرق: الجاهل الذي لم يكن بيده صنعة يكتسب بها.

مظلوماً؟ ، قال : «ما تريد أن تترك لصاحبك من خير ؟ ليمسك أذاه عن الناس» قلت : يا رسول الله ، أرأيت إن فعل هذا يدخله الجنة؟ ، قال ﷺ : «ما من مؤمن يطلب خصلة من هذه الخصال ، إلا أخذت بيده حتى تدخله الجنة»[1] .

نبينا ﷺ يقول لك : إن الغنى غنى القلب والجود منبعه القلب ، والقلب راع والأعضاء رعية ، وهو ملك والجوارح أتباع ، فإن نبض بالجود جادت اليد بالمال ، وجاد اللسان بالنصح والبيان ، وجاد العقل بالفكر والرشاد ، وجاد الساعد بالعون والإمداد ، وكذا في سائر النعم .

وقد علمنا أن النعم وحشية وتقييدها بالشكر ، وشكرها الإنفاق منها على من فقدها ، فحدد نعمتك أولاً ثم أنفق منها ثانيا ، يبارك الله فيها ويزدك منها . . ألم يقل ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم : 7] .

(4) انزع شوك الكبر بملقاط التواضع :

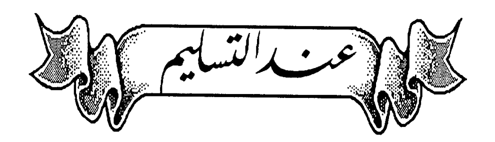
فإن الكبر عقبة كؤود في طريق خدمة الناس والتذلل لهم بإنفاذ حاجاتهم ، ولذا أخرج الإمام أحمد ، من خبر عبد الله بن حنظلة ، أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه مر في السوق وعليه حزمة من حطب ، فقيل : أليس الله أعفاك من هذا؟ ، قال : بلى ، ولكني أردت أن أدفع به الكبر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر»[2] .

وهذا سليل بيت النبوة علي بن الحسين ، كان إذا تصدق في العلن قبّل السائل ثم ناوله ، وإذا تصدق في السر خفي خبره عن الناس ، حتى كشف أمره أثر جرب الدقيق والذي كان على ظهره يحملها بالليل للمساكين[3] .

ومن تواضعهم أن الرجل منهم يصحبه تلميذه يخدمه ، فيعكس الأدوار ويأخذ البدار ، قال مجاهد : «صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني»[4] .

تراحموا لأنهم تواضعوا ، وتواضعوا لأنهم تدبّروا ، ولما تدبّروا قدّم أحدهم عصارة تدبره فقال : «تواضع . . فإن التراب لما ذَلَّ لأخمص القدم صار طهوراً للوجه»[5] .

(1) رواه البيهقي عن أبي ذر كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم (869) .
(2) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والطبراني عن عبد الله بن سلام كما في ص ج ص رقم (7674) .
(3) الزهد ص(208) – أحمد بن حنبل – ط دار الريان .
(4) البداية والنهاية(235/9)
(5) اللطائف ص(66) .



♥ **بالتمام والكمال:**

أنت صاحب همة عالية وعزيمة ماضية، تأبى معها أن تُخدش سلعتك وتصبح معيبة، فيزهد فيها المشترى ويردها، بل تنشد فيها التمام والكمال لتستوفى الأجر عند تسوية الحساب بالتمام والكمال، ومثلك يجد ضالته فى أمثال **قول جعفر الصادق** :

«لا يتم المعروف إلا بثلاثة : بتعجيله وتصغيره وستره»[1] .



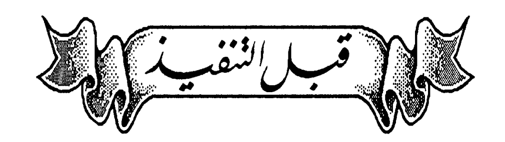
(1) حلية الأولياء(3/198) .

الصَّفقةُ التَّاسِعَةُ

الدَّالُ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِه



ما أحلى أن يجد الأنسان فى صحيفته حسنات لم يتعب فيها، وأن يملأ ميزانه بطاعات عملها غيره، وأن يرتقى درجات الجنة بعد أن يواريه التراب، وذلك بأن يعمل أجيراً عند الله يدل التائهين ليتسلم أجرته فى الآخرة: سكنى الفراديس فى جوار نبى أو صحابى أو شهيد.



بين الديك والدجاجة:

أيهما أفضل: الداعية فى ميدانه أم الزاهد فى محرابه؟

التقى ديك ودجاجة فى حظيرة وتحاورا . .

الدجاجة: كف عن صياحك أيها الديك، فإن صوتك قبيح .

الديك: ويحك!! صوتى هو الذى يوقظ النائمين، ويؤنس العباد والقائمين ويبعث الروح فى الكسالى والخاملين فكيف يكون قبيحًا؟!

الدجاجة: كفاك فخراً بنفسك فلى صوت كصوتك .

الديك: وهل يقظة كغفلة؟ فى الأسحار أصيح وأنت فى الأحلام، وأهتف والناس نيام، ويكفينى فخرًا أن خير الخلق ﷺ كان إذا سمع صوتى وثب .

الدجاجة: لكن قومًا أزعجهم صوتك فانهالوا عليك بالشتم والسباب .

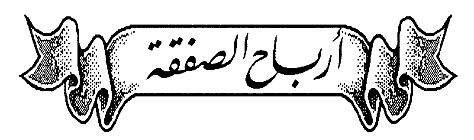
الديك: أموات غير أحياء، أما سمعوا أمر الرسول ﷺ: «لا تسبوا الديك فإنه يوقظ للصلاة»؟! .

الدجاجة: فما بال طلب الناس على أكثر؟

الديك: تخدمين دنياهم فيكافئونك بالذبح، وأخدم آخرتهم فيكرمونني بالمدح، وعند مس النار يبين الفرق!!







(1) الأجور المضاعفة:

عن **أبى هريرة** رضي الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا»[1].

لو فكر أحدنا قليلاً وسأل نفسه: إلى من يرجع ثواب هدايته إلى الإسلام؟ لتبادر إلى الذهن فورًا آباؤنا وأمهاتنا، ومن بعدهم الأجداد والجدات، ثم من بعدهم من وراءهم، وصولاً إلى الصحابى الجليل **عمرو بن العاص** رضي الله عنه فاتح مصر وناشر الإسلام فيها، والذى ما نحن إلا بعض حسناته، وما من حسنة يعملها أهل الإسلام فى مصر إلا وضع له مثلها فى ميزانه وميزان أصحابه، وكذا حال أهل العراق مع **سعد بن أبى وقاص** رضي الله عنه، وحال أهل المغرب مع **عقبة بن نافع** رضي الله عنه.

مات هؤلاء الكرام وبليت أجسادهم، ومع ذلك لازال ملك حسناتهم يكتب ويسجل فى صحائف أعمالهم ما لا يحصى من عظيم أجر وارتفاع درجة، وسيظل يسجل ويسجل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهل هؤلاء الفاتحون وأشباههم إلا بعض حسنات رسول الله ﷺ؟!

وأنت إذا أردت أن تنال بعض ما نالوا، فابذل كلمة طيبة تنبت لك شجرة طيبة، أصلها ثابت فى جذر القلب، وفرعها بازغ فى سماء الأجر، تؤتى أكلها كل حين فى الدنيا قبل الآخرة بإذن ربها.

إذا علَّمت أخًا لك آية من كتاب الله، ظل ثوابها يسجل فى صحيفتك كلما قرأها، فكيف لو تدبرها؟! وإذا حضر معك مجلسًا إيمانيًا أو صلى معك صلاة ليل، فكانت سببًا فى صلاحه كُتب لك مثل ما عمل من صالحات بقية حياته، فكيف لو دعا غيره؟ وإذا أهديته كتابًا أو شريطًا فعمل بما فيه نلت مثل أجره، فكيف لو أسمعه أهل بيته؟

فبالله كيف يغفل عاقل عن مثل هذا الثواب؟ أم كيف تقر عين نائم عن مثل هذا

(1) رواه أحمد ومسلم والنسائى والترمذى عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (6234).

الكنز؟ يا فوز فوز من وجده، ويا ضيعة ضيعة من فقده، أين داع إلى ربه؟ أين دال عليه؟ أين مرشد إليه؟ راموا الأجر فسلكوا الدرب، وتبعوا الصحب فحازوا القرب، وعند الصباح يحمد القوم السُّرى.

(2) علامة إيمان:

قال عز وجل: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: 71].

كما المطر يدل على السحاب، والشرر يدل على النار، والأثر يدل على المسير، كذا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يدلان على الإيمان، فإذا اندرست آثارهما فى قلب عبد، دل ذلك على فقده شرطًا من شروط الإيمان وصفة لازمة له وعلامة دالة عليه، وعندها تخمد جذوة الإيمان فى القلب ويصير صورة لا حقيقة، وحروفاً لا روحًا، وخيالاً لا واقعًا، ويظل يتضاءل ويتضاءل حتى يصل فى المقدار إلى صفر.

قال ﷺ: «ومن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» [1].

ومردُّ ذلك إلى أن المؤمن الحق يغضب لمحارم الله إذا انتهكها المنتهكون، ولحقوقه إذا تهاون بها المتهاونون، والإسلام كله حث على تأجيج نار الغيرة على محارم الله، ولما كان الأنبياء أشد الناس غيرة على هذه المحارم، كانوا أشد الناس قيامًا بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعلى قدر غيرتك يكون إنكارك، وعلى قدر إنكارك يكون إيمانك، فاعلم حقيقة إيمانك قبل أن تصدح فى الآفاق بأنك مؤمن.



(3) الغربة اللذيذة:

قال عز وجل: ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ [هود: 116].

وقد استشهد شيخ الإسلام ابن تيمية بهذه الآية فى باب الغربة، وهذا يدل على رسوخ قدمه فى العلم والمعرفة، قال ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوى

(1) رواه مسلم وأحمد عن ابن مسعود كما فى ص ج ص رقم (5790).

للغرباء»، قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال ﷺ: «الذين يصلحون إذا فسد الناس»[1].

ويعلق صاحب المدارج قائلاً:

«فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون ولقلتهم في الناس جدًا: سموا (غرباء) فإن أكثر الناس إلى غير هذه الصفات، فأهل الإسلام في الناس غرباء، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السنة الذين يميزونها من الأهواء والبدع فهم غرباء، والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين هم أشد هؤلاء غربة، ولكن هؤلاء هم أهل الله حقًا، فلا غربة عليهم، وإنما غربتهم بين الأكثرين الذي قال الله فيهم: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 116][2].

أخذ هذا المعنى **عبد الوهاب عزام** فنظمه في بيتين من الشعر قائلاً:

قال لي صاحب أراك غريبا	بين هذا الأنام دون خليل
قلت كلا بل الأنام غريب	أنا في عالمي وهذى سبيلي

هذى سبيلي: هتاف المؤمنين في كل عصر ومصر، لا يحيدون عنه ولا ينخدعون بغيره ولا يرتجون سواه..

هذى سبيلي: سبيل الأنبياء وورثة الأنبياء، ومن رام مرافقة الأنبياء في جنات السماء..

هذى سبيلي: مهما اشتد الظلم، وهل يضير المصباح حلكة الظلمات حوله؟ وهل يعيب الجوهرة وجودها في كوم من الخرز؟ وهل ينقص قيمة الكنز دفنه بين التراب؟

هي غربة تميز إذن لا غربة وحشة، ، إذا لا وحشة مع الأنس بالله، ولا وحدة مع مؤاخاة الصالحين، من لدن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قطرة الزيت يا سادة علت سطح الماء لما صبرت على العصر وطحن الرحا، كثيفة بما يوحى بغناها، متماسكة بما يدل على تميزها، وكذلك الداعية إلى الخير علا قدره لما صبر على التزام الحق والثبات عليه، وعلا بإيمانه فلم يهبط إلى القاع، وسما بصلاحه فلم

(1) رواه الآجري في الغرباء وأبو عمر الداني في السنن الواردة في الفتن، وله شاهد من حديث سهل بن سعد عن الطبراني رقم (5867)، وهو حديث صحيح.
(2) تهذيب مدارج السالكين ص(578).

ينشغل بالسفاسف، وأغناه ما بذل فيه من تربية وجهد ومجاهدة ورشد، وارتقى مدارج السالكين ليقبس من أنوار الهدى، ويضيء ظلمات الورى.

(4) هذه بضاعتكم ردت إليكم:

المصلحون هم سبب تنزل الرحمات وحلول البركات التي تعم الخلق كل الخلق والحياة بما حوته الحياة، وهو فضل لا يُنسى ويد لا تُنكر فكان رد الجميل واجبًا: دعاء لهم بالرحمة وطلب بالمغفرة جزاء وفاقا.

قال النبي ﷺ: «إن الله سبحانه وملائكته حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير»[1].

(5) وريث شرعي:

قال ﷺ: «وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[2].

فمن ورث هذا العلم ودعا إليه فهو عريق في نسب النبوة، وإن لم تربطه بالأنبياء رابطة الدم واللحم ووشائج القربى والنسب، قال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33].

فهي وظيفة الأنبياء، ولذا فهي أشرف وظيفة وأعظم مهمة وأسمى رسالة وأنبل غاية، والآمرون النهاة يقتفون الأثر ويلزمون النهج، فبهم يقتدي السالك، ويهتدي الحائر، ويوقظ النائم، ويشفي العليل، ويسير الواقف، ويقبل المعرض، ويكمل الناقص، ويرجع الناكص، ويقوى الضعيف، وينهض المتعثر، زاد لكل محتاج، وعون لكل عاجز، ونور لكل تائه، آخذين بحجز الناس عن النار والناس يتدافعون، دافعين إياهم إلى الخير إذ هم في غفلاتهم معرضون، قبضوا أجرهم من الله سلفًا فارتضوا ما أصابهم من الناس تلفًا، أدعيتهم نبوية على رأسها: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، محاسبتهم عمرية مفادها: لو ضلت نفس على شط الفرات لسألنا الله عنها لِمَ لَمْ تهدوها الطريق؟ معاملتهم شجرية: يرميهم الناس بالحجر فيرمونهم بالثمر.

---

(1) رواه الترمذي والطبراني والضياء عن أبي أمامة كما في ص ج ص رقم (1838).

(2) رواه أحمد والنسائي وابن ماجة وابن حبان عن أبي الدرداء كما في ص ج ص رقم (6297).

ولأنها درجة ترنو إليها كل نفس ويهفو إليها كل قلب فقد استثناها الله من تحريم الحسد فقال ﷺ : «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها» [1].

(6) صمام أمان:

عن **النعمان بن بشير** رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «مثل القائم على حدود الله والمدهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر، فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذونا، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا» [2].

فالمصلحون هم سبب نجاة السفينة، هم قدر الله الذي يدفع قدر الله، قدر الإصلاح الذي يدفع قدر الإهلاك، هم أجسام المناعة المضادة التي تحاصر جرثومة الفساد ولا تهدأ أو تستريح حتى تقضي عليها، فيبرأ العليل ويشفى السقيم ويزول المرض بإذن الله، وهم صمام الأمن للمجتمع يحول دون غرقه في بحر الرذائل والذي معناه الغرق في عذاب الله، وانغماسه في برك المنكرات والمرادف لانغماسه في حمم النار ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117].

وقد يقول قائل عن حسن نية وسلامة قصد: وهل أنا وحدي سأصلح المجتمع؟ هل أنا حين أؤمن وآمر وأنهى، سأنقذ السفينة الهاوية إلى القرار أو الأمة الغارقة في الأوزار؟ كلا . .

فحين توجد في مجتمع يوشك أن يتحطم، في سفينة توشك على الهلاك، فلن توقفها وحدك عن النهاية المحتومة، ولن تنقذها وحدك من الهلاك.

نعم . . ولكنك تنقذ نفسك، فحتى حين تتحقق السنة التي لا تتخلف، حتى حين ينفذ الوعد الحق وتتحطم السفينة، حتى حينئذ فشتان بين غريق وغريق . . غريق في جهنم لأنه فاجر، وغريق في الجنة لأنه شهيد، فمن ذا الذي يبيع الآخرة بالدنيا ويسعى إلى

(1) رواه الشيخان وأحمد وابن ماجة عن ابن مسعود كما في ص ج ص رقم (7488).

(2) رواه البخاري وأحمد والترمذي عن النعمان بن بشير كما في ص ج ص رقم (5832).

النار، وهو يغرق في حين يملك ـ حتى وهو يغرق ـ أن يسعى إلى النعيم [1].

(7) علامة قرب من الله:

هذا ما سبق ولخصه **ابن الجوزي** حين اصطاد إحدى خواطره التي نصحك فيها فقال: «ألست تبغي القرب منه؟ فاشتغل بدلالة عباده عليه، فهي حالات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أما علمت أنهم آثروا تعليم الخلق على خلوات التعبد لعلمهم أن ذلك آثر عند حبيبهم؟» [2].

وهذا الفهم تواتر عند سلفنا، فهمه **عبد القادر الجيلاني** كما فهمه من قبله **ابن الجوزي**، وعندما قسم الناس أربعة أقسام في كتابه القيم **(فتوح الغيب)**، جعل في غرتهم من منحه الله القلب واللسان والذي (اصطفاه واجتباه وجذبه إليه ورقاه، وإلى باب قربه هداه، وجعله جهبذاً وداعيًا للعباد، ونذيرًا لهم، وحجة فيهم، هاديًا مهديا شافعًا مشفعًا صادقًا صديقًا، بدلاً لرسله وأنبيائه عليهم صلواته وسلامه وتحياته وبركاته، فهذه هي الغاية القصوى في بني آدم، لا منزلة فوق منزلته إلا النبوة) [3].

فبسلوكك طريق الدعوة إلى الله تُقرَّب من صاحب الجلال والإكرام، وتدخل عليه فيخلع عليك خلع الغفران، ويفيض عليك بفيوضات الإحسان، وتستمتع في نعيمه بمصاحبة النبي ﷺ، ومجالسة الصديق، ومؤانسة الفاروق، ومرافقة ذي النورين، ومعانقة علي، ومشاهدة صحابة النبي ﷺ رضي الله عنهم أجمعين، فإن أردت أن تحجز مقعدك معهم فلا تتأخر عن دفع الثمن، اشتغل نفسك بشغلهم الذي أفنوا فيه أعمارهم، وأنضوا أجسادهم، وبذلوا مهجهم، من دعوة الخلق، وانتشالهم من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة، ومن دروب الهوى إلى سبل الهدى، ومن غواية الشيطان وحزبه إلى ولاية الرحمن وجنده. . هذا هو الثمن. . وهذا هو السبيل. . وأنت صاحب همة عالية تأبى معها إلا أن تكون في المقدمة والصدارة والنبلاء والقادة.

(8) وطريق إلى حسن الخاتمة:

علَّمنا مشايخنا أن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه،

(1) قبسات من الرسول ص (171) - محمد قطب - ط دار الشروق.
(2) صيد الخاطر ص(26).
(3) شرح فتوح الغيب ص(118)- عبد القادر الجيلاني - ط دار القادري.

من أنضى جسده طوال الرحلة أكرم عند الوصول، ومن رق لها فلم يتعبها فاته حتى القبول، من كدَّ كدّ العبيد فى مبتداه تنعم تنعم الأحرار فى منتهاه، شجر المكاره يثمر المكارم، من كانت بدايته محرقة كانت نهايته مشرقة.

هذه النهاية المشرقة كانت من نصيب أحد دعاتنا الأفذاذ الصادعين بكلمة الحق ولو كان ثمنها حياتهم، **أبو بكر النابلسى**. كان هذا هو اسم الرجل الذى كان إمامًا فى الحديث والفقه، وكان قبلة الناس ووجهتهم يقصدونه يتعلمون منه ويقتدون.

لما حكم بنو عبيد مصر غيّروا شريعة الله، وأحلوا الحرام، وجاهروا بشرب الخمر فى نهار رمضان، وأباحوا نكاح المحارم، وأفسدوا غاية الإفساد، فانبرى لهم أسد السنة يأمروينهى ويبين ويغير، يرث بذلك الأنبياء فى مهمتهم، ويباشر دورهم الذى ابتعثهم الله له، فسجنوه ثم صلبوه ثم أمروا يهوديًا فسلخه، فسُلِخَ من مفرق رأسه حتى بلغ الوجه، فكان يذكر الله ويصبر حتى بلغ الصدرفرحمة السلاخ، فوكزه بالسكين موضع قلبه فقضى عليه.

كان **الدارقطنى** يذكره ويبكى ويقول: «كان يقول وهو يُسلخ: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ [الأحزاب: 6]» (1).

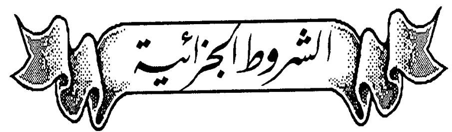
تأمل ـ حفظك الله ـ يذكر الله وهو يُسلخ لأن شغله الشاغل فى الدنيا كان ذكر الله، وتعليم ذكر الله، والحث على ذكر الله، بل كانت رؤية وجهه تبعث الناس على ذكر الله، فكوفىء بأن تنزع روحه لحظة ذكره ليرث بذلك الفراديس ويزف إلى الحور.

وكان موته على تلك الحال أعظم خطبة خطبها منذ ارتقى المنابر، لكن منبره اليوم كان خشبته التى صُلب عليها، وكلماته كانت دماءه التى تسيل منه قطرة قطرة، وزمان خطبته هو مدة تعليقه مصلوبًا ينظر إلى قاتليه من عل، نعله فوق رؤوسهم، دمه الذى أراقوه سر شقائهم، لكنه فى ذات الوقت سبب هنائه.

وليس العجب فى موته وهو يذكر الله، إنما العجب كل العجب فى أن أبا بكر ظل يدعو إلى الله بعد خروج روحه من جسده!! كان الناس يمرون بجسده فيسمعون منه صوت تلاوة القرآن، كرامة من الكرامات حازها من قدم روحه رخيصة فى سبيل الله، فأبى الله إلا أن يكافىء من ضحى فى سبيله، وأن يعطيه أجره على رؤوس الأشهاد وأن يجعله ممن دعا إلى الله حيًا وميتًا!!

(1) سير أعلام النبلاء، (16/148-149).





(1) جنازة قلب:

سئل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن ميت الأحياء فقال: «الذى لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه»[1]، وهى كلمة لها وزنها نطق بها صحابى خبير بعلامات النفاق وآيات أهله، وائتمنه النبى ﷺ على أسماء المنافقين.

وبانتشار الموتى فى الأمة يؤول حالها إلى ما تخوف منه حذيفة حين قال: «يأتى على الناس زمان لأن تكون جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم»[2]، ولذا أرسل ابن القيم صواعق كلامه على هؤلاء فأحرق سترهم وكشف زيفهم وفضح خبثهم فقال:

«وعلى القادر على الأمر بالمعروف النهى عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز فيهما، وقد غرّ إبليس كثيراً من الخلق بأن حسّن لهم القيام بنوع من الذكر والقيام والصلاة والصيام والزهد فى الدنيا والانقطاع، وعطلوا هذه العبوديات فلم يحدثوا قلوبهم بالقيام بها، وهؤلاء عند ورثة الأنبياء - أى العلماء الصادقين - ممن لا غناء فيهم للدين، فإن الدين هو القيام لله بما أمر به.

وأى دين وأى خير يرى محارم الله تنتهك، وحدوده تضيع، ودينه يترك، وسنة رسوله ﷺ يرغب عنها، وهو بارد القلب ساكت اللسان، شيطان أخرس.

وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم، قد بُلوا فى الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون وهى موت القلوب، فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه له ولرسوله أقوى وانتصاره للدين أكمل»[3].

(2) دعاء مردود:

تولد كلمات الدعاء على أطراف اللسان فينفخ فيها القلب من روحه، فتصعد الروح

(1) إحياء علوم الدين(338/2).
(2) السابق.
(3) زاد المعاد.

إلى بارئها ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10] ، وهل عمل الداعية إلا كلم طيب يدل به على الله وعمل صالح يُصدِّق هذا الكلم، فإن مات القلب بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولدت كلماته ميتة لتدفن فى باطن الأرض بدلاً من أن ترتقى مدارج السماوات، ولتوارى التراب بدلاً من مجاورة السحاب.

قال ﷺ : «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعو نه فلا يستجاب لكم» (1) .

(3) الهلاك:

ينص القانون الإلهى على أن نزول العذاب وهلاك الأمم، مرتبط بارتفاع نسبة الخبث لقلة المصلحين، سألت **أم الحكم زينب بنت جحش** - رضى الله عنها - النبى ﷺ فقالت: أنهلك وفينا الصالحون؟ ، قال: «نعم إذا كثر الخبث» (2) .

ومن مظاهر انتشار الخبث إظهار المعصية وعدم إخفائها، بل والتبجح بفعلها، لذا قال **بلال بن سعد** : «إن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها، فإذا أعلنت ولم تغير أضرت بالعامة» (3) .

وقد ذكر **الإمام أحمد** وغيره أثراً أن الله سبحانه أوحى إلى ملك من الملائكة أن اخسف بقرية كذا وكذا، فقال: يارب كيف وفيهم فلان العابد؟ ، فقال: «به فابدأ فإنه لم يتمعر وجهه - أى لم يتغير - فىَّ يوماً قط».



(4) أول النقص:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم» ثم قال ﷺ : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا

---

(1) رواه الترمذى عن حذيفة كما فى رياض الصالحين رقم (198) .

(2) متفق عليه كما فى رياض الصالحين رقم (194) .

(3) إحياء علوم الدين .

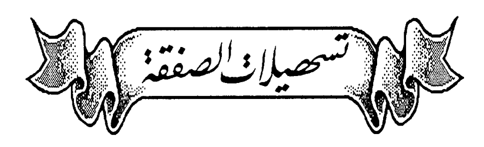
يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾، [المائدة: 78-81]. إلى قوله: ﴿فَاسِقُونَ﴾»(1)

هذه خطة إبليس وهذا أول النقص: يبعث المنكر على العباد فإذا كانوا مصلحين فأنكروه فقد قطعوا عليه الطريق، وإذا لم ينكروه نزع الشيطان من قلوبهم كراهية المنكر - التي جُبلوا عليها بالفطرة - شيئاً فشيئا ثم استبدل به حب هذا المنكر، فيأمرون به وينهون عن المعروف.

وبين الخطوة الأخيرة وأول خطوة: كيد ومكر وخديعة وغي، قد يستغرق زمنًا طال أو قصر، لكن مفتاح الدخول لا يملكه الشيطان إلا أن يُسلِّمه له العبد بيده ليفتح به، وهذا هو أول النقص.



(1) رواه أبو داود والترمذي، وضعفه في ص ج ص رقم (1822).



♥ أقصد بهذه التسهيلات أن أبين لك وجوب الدعوة إلى الله، وكونها من فروض الأعيان:

(1) هذا التشريف فأين التكليف؟!:

شرّف الله هذه الأمة بما لم يشرف به غيرها من الأمم، وخصها بفضائل النعم وفيوضات الكرم، كان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعث نبينا ﷺ إلى الناس عامة، وكانت معجزة النبى فيما مضى تنقضى بموته، وظلت معجزته ﷺ خالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأدى الرسول ﷺ الأمانة وبلغ الرسالة ونصح الأمة وكشف الغمة، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها ونهارها سواء، ونفذ ما أراد الله منه ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة143]، بل وأشهد أصحابه على ذلك فى حجة الوداع فقال: « ألا هل بلغت اللهم فاشهد ».

أدى دوره وبقى دورنا، حمل الراية ثم سلمها لنا، شهد علينا وبقيت شهادتنا على الناس: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: 78]، ورحل بعد أن ألقى بالأمانة الثقيلة على أعناقنا، والمسئولية الجسيمة على كواهلنا، والتكليف الصارم الرهيب الذى لا مفر لأحد من أدائه، فالله من ورائه فلا يمكن التفلت منه ولا التردد فيه ولا النكوص عنه، فهل كنا عند حسن ظن رسول الله ﷺ ؟!

تركنا رسول الله ﷺ وودّعنا وهو يبتسم آخر ابتسامة له، حين رأى أصحابه فى المسجد يصلون، ابتسم لأن الراعى اطمأن على رعيته قبل الرحيل، والأستاذ اطمأن على تلامذته قبل الامتحان، وتركهم على الدرب سائرين وبه مستمسكين، حتى إذا ما بعثه الله يوم القيامة ظن أن أمته سارت على ما ترك أصحابه عليه، فيقول مشفقًا حين يرى نفرًا من أمته يصرف عن حوضه: يارب أمتى أمتى، فيقال له: يا محمد إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك.

أتدرى يا محمد ﷺ ما أحدثوا بعدك؟!

اشتروا بهديك ضلال الكفار، استبدلوا بشريعتك شريعة الأغيار، واستبدلوا بأكل الحلال التعامل بالربا وأكل الحرام، وبمراعاة إخوان العقيدة موالاة أعداء العقيدة، وبالحض على الفضيلة والدعوة إليها الحث على الرذيلة والدعوة إليها، وهجروا كتاب ربهم الذى وصلهم مضمَّخا بدماء الشهداء من أصحابك، وزهدوا فى سنتك التى فنيت فى حفظها أعمار أتباعك.

يا رسول الله ﷺ

لو رَدَّ الله عليك روحك، وخرجت من قبرك تتفقد أحوال أمتك، لهالك ما استشرى فيهم من تبرج النساء، وضلال الأدباء، وتفشى الداء، وتفرق الزعماء، وفساد الشباب، واتباع الهوى، والمجاهرة بالفسق، والإعلان بالخطيئة، والمباهاة بالحرام، والتبجح بمبارزة الرب بالمعصية.

يا رسول الله ﷺ

صار قدواتهم فساقهم، ونجومهم فجارهم، وشرارهم أئمتهم، وتحققت فيهم نبوءتك فكثرت الرويبضات[1]، وصاروا أصحاب الصوت والضوء، وامتلكوا البر والبحر والجو، فرغباتهم أوامر، وإفسادهم إصلاح، وضلالهم إرشاد، وظلمتهم نور، وأمتك.. آه من أمتك.. تُغوى فتغوى، وتُضل فتضل، تُساق إلى حتفها كما تساق الشاة، لا تدرى أن السكين ينتظرها آخر الطريق، حتى أن الكثير من الصالحين انتقلت إليهم العدوى وسرى فيهم الوباء، فصاروا حبيسى الصومعة ومرتع الدعة، وأيقظوا فى نفوسهم العزلة والتوارى، وأناموا الدعوة إلى المعروف وبذل الغالى، فروا من البلوى زعموها تقوى، وانسحبوا من معارك الحياة حسبوها نجاة، الفكر عندهم موجود، لكن الروح ميتة، والعزائم خائرة، والهمم فى سبات، صدق فيهم قول **إقبال**:

أرى التفكير أدركه خمول	ولم تعد العزائم فى اشتعال
وأصبح وعظنا من غير سحر	ولا نور يُطل من المقال
وعند الناس فلسفة وفكر	ولكن أين تلقين الغزالى

(1) الرويبضة: هو الرجل التافه يتكلم فى أمر العامة، كما جاء فى الحديث الذى رواه أحمد وابن ماجة عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم (3650).

وجلجلة الأذان بكل صوت ولكن أين صوت من بلال

منابركم علت في كل حي ومسجدكم من العُبّاد خال

أليس هذا حالنا؟ أليس هذا عارنا؟ أليست هذه تهمتنا؟ والله . . إن قعودنا عن تغيير هذه المنكرات لهو جريمة قتل متعمدة، نقتل فيها الأمانة التى حمّلنا الله إياها، واستودعها رسول الله ﷺ أمانة عندنا ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج : 78] ، فإن تذرع البعض بأن الدعوة الله من فروض الكفايات قلنا لهم : وهل تحققت الكفاية فى هذا الزمان؟ نظرة واحدة إلى مجتمعنا . . ويأتيكم الرد .

يا أتباع محمد ﷺ :

أؤمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر . . كل شمعة تضيء تعنى ظلامًا يتبدد . كل تقدم بمعروف يساوى انسحابًا لمنكر . . أقيموا الدين يا أتباع الدين . . أحيوه فى قلوبكم . . فى بيوتكم . . فى أعمالكم . . فى حركاتكم . . فى سكناتكم . . فى حياتكم كل حياتكم . . بل حتى فى الممات .

يامن مَنَّ الله عليهم بالصلاح . . أين الإصلاح؟!

يا من أغناهم الله بالهداية . . أين زكاة الهداية؟!

يا من خرجوا من متاهة الضلال إلى نور الهدى . . أين حق الصحبة؟!

يا من جاهد نفسه . . أنفق يُنفق عليك، ألم تقرأ : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: 69] ارحموا من ضل الطريق، وافتقد الرفيق . . أفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقكم الله، بالله . . لا تبخلوا ولو بكلمة . . نصيحة . . لفظة . . نظرة . . فالأرض عطشى تنشد غوثكم، والناس هلكى ترقب روحكم، الزهر ينتظر لمحة من نوركم ليتفتح، والجمر يترقب نفخة من هداكم ليتوقد، والله من وراء ذلك يحصى أعمالكم ليُجزل ويتفضل .

اخوتاه..

لا تطووا هذه الصفحة حتى تعلموا بما جاء فيها، ولا تعودوا بعدها كما بدأتم، لبوا نداء الله بقولكم : ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة : 285] ، ولا تكونوا ممن صموا آذانهم عن سماع الحق ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال : 23] .

(2) فطرة هدهدية:

هذا هدهد سليمان لما غاب فى جولة من جولاته، فاجأه منظر منكر من أفظع المنكرات، وغواية من أضل الغوايات: أناس يسجدون للشمس من دون الله، فيرجع إلى سليمان منكر بقلبه ولسانه، طالبًا إلى ولى الأمر أن يغير بيده، عرض الفساد الاجتماعى فقال: ﴿ وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ [النمل: 23]، وحلّل سبب ذلك فى قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل: 23]، وعرض الفساد العقائدى فقال: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [النمل: 24]، وحلّل سبب ذلك فى قوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل: 24]، ثم أردف متعجبا: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: 25].

سبحان الله.. هذا هدهد صغير علم وجوب الدعوة وفرضية الأمر والنهى، فطرة لا اكتساباً، وبداهة لا تعلمًا، وغيره من البشر يناقشك الساعات الطوال والأيام العجاف، يطلب إليك أن تبرهن له على فرضية الدعوة ووجوب التبليغ!!

علم الهدهد هذا وعمل بمقتضاه فكافأه الله بأن أنقذه من الذبح، وجعل إيمان أهل اليمن كلهم على يديه، وجعلهم بحسناتهم فى ميزانه، بل وكرَّمه بأن نهى عن قتله، قال **القرطبى**: «لما كان الهدهد داعيًا إلى الخير وعبادة الله وحده والسجود له.. نهى عن قتله»[1]، فإن النبى ﷺ (نهى عن قتل الصرد والضفدع والنملة والهدهد)[2].

(3) ولا تشبَّهنَّ بيهود:

عن **عكرمة** قال: جئت **ابن عباس** يومًا وهو يبكى، وإذا المصحف فى حجره، فأعظمت أن أدنو، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست، فقلت: ما يبكيك يا أبا عباس جعلنى الله فداك، فقال: هؤلاء الورقات، وإذا هو فى سورة الأعراف. قال: تعرف أيلة، قلت: نعم، قال: فإنه كان بها حى من يهود سبقت إليهم الحيتان يوم السبت شرعًا، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت، فخذوها فيه، وكلوها فى غيره من الأيام، قالت ذلك طائفة منهم، وقالت طائفة (الآمرون الناهون):

(1) تفسير القرطبى (98/6).

(2) رواه ابن ماجة عن أبى هريرة كما فى ص ج ص رقم(6970)..

بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت، فكانوا كذلك، حتى جاءت الجمعة المقبلة، فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين (الدعاة)، واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت، قال الأيمنون: ويلكم.. الله الله.. ننهاكم أن تتعرضوا لعقوبة الله، وقال الأيسرون: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؟ [الأعراف: 164]، قال الأيمنون: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 164]، فمضوا على الخطيئة، فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا فلم يجابوا، فوضعوا سلما وأعلوا سور المدينة رجلا، فالتفت إليهم فقال: أي عباد الله، قردة والله تعاوى لها أذناب، ثم قرأ ابن عباس: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: 165]، قال: فأرى الذى نهوا نجوا ولا أرى الآخرين ذُكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها» (1).



(4) الدعوة إلى الله سيماء الشهامة وعلامة المروءة

نظرة واحدة منك إلى مواضع الصراع ونزف الدماء على وجه المعمورة، تُظهر لك فى وضوح أن كل مذبحة.. تُوجه إلى صدور المسلمين، وكل مؤامرة.. تُحاك ضدهم، وكل شتات.. يتوحد عليهم، وإن نزف دمائهم مستمر حتى هذه اللحظات التى تقرأ فيها هذه الكلمات، أصبحنا كالشاة التائهة فى الليلة المطيرة الشاتية، وصرنا كالأيتام على موائد اللئام، ووصل حال الإسلام إلى ما وصفه الشاعر:

أنى اتجهت إلى الإسلام فى بلد ... وجدتَّه كالطير مقصوصاً جناحاه

أما أسود المسلمين البواسل فقد انقلبوا إلى مليار قط يموء:

ملياركم لا خير فيه كأنما ... خُطَّت وراء الواحد الأصفار

إن قطرات الدم التى تقطر من شهداء المسلمين على وجه المعمورة، إذ تشهد لهم عند الله بسكنى الفراديس، تشهد علينا بخذلان إخوان العقيدة، وتسليمهم لقمة سائغة إلى الأعداء، وآلَ حال المسلمين اليوم إلى حال هى دون حال البغال على عهد الفاروق عمر، الذى خشى أن يحاسبه الله على تعثر بغلة بشاطىء الفرات لو لم يُسوِّ لها الطريق!!.

يا أصحاب المروءة إن شبعنا إذ إخواننا يجوعون حرام، وأمنُنَا إذ هم يفزعون حرام، واكتساؤنا إذ هم يلتحفون العراء حرام حرام.

(1) تفسير القرآن العظيم بتصرف (494/3).

أسألك فأقول ألم يتحرك فيك النبض سريعًا وأنت ترى الركع السجود يحصدهم رشاش علج يهودى فى محراب إبراهيم؟! ألم تتفجر أوداجك كمداً حين رأيت العربيدة تزرى برسول الله ﷺ ؟! ألم تثر نخوتك يا عربى تدنيس أعراض أخواتك العفيفات هناك على أرض البلقان؟ ألم يحل عقدة لسانك ويطلق صرخات الألم منك قطع ألسنة المؤذنين على أرض ليبيريا؟ ألم يزهِّدك فى متابعة مباريات الكرة اللهو برؤوس أئمتنا فى البوسنة ؟

أين إيمانك؟ أين دينك؟ أين توحيدك؟ أتظن أن الله يغفر لك هذا القعود وهذا الخذلان؟ أو . . لن أسألك عن إيمانك بل عن شهامتك، ولن أقول لك أين إيمانك بل أين إنسانيتك؟ ولن أستثير فيك معانى العقيدة بل معانى الرحمة.

أما بلغك حديث المصطفى ﷺ : «ما من امرىء يخذل مسلمًا فى موطن ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا خذله الله فى موطن يُحب فيه نصرته»[1] .

فإن لم يحركك دينك وشهامتك فليحركك خوفك من أن تلقى هذا المصير، وتؤول إلى ذات المآل.

أخى.. أتسمعنى؟!

أناديك . . أين أنت؟ أين أجدك ؟ أيهدأ لك بال؟ أيغمض لك جفن؟ قدّم العلم وأيقظ الأمل، ولا تستصغر ما يمكن أن تفعله أو تحتقر ما تستطيع أن تقدِّمه، ولك فى النساء قدوة، يا من جعل الله له القوامة على النساء، وانظر إلى ما فعلت هذه المرأة بقومها . .

(5) امرأة تبعث أمة:

المرأة اسمها ميسون، والمكان: دمشق، والزمان: يوم من أيام سنة (607) هجرية، والمحنة: هجوم الصليبيين الغزاة كالطوفان يدمر كل من يقف أمامه، ومحنتها: استشهاد إخوتها الأربعة فى جهادهم المقدس.

ماذا يمكن أن تفعل امرأة عزلاء فى مواجهة هذه الجحافل؟ نعم . . امرأة وحدها لا تقوى على عمل شىء، لكنها امرأة صاغها الإيمان خلقا آخر، فقلبت الموازين، وأدارت

(1) رواه أحمد وأبو داود عن جابر وأبى طلحة، وحسنه الألبانى فى ص ج ص رقم (5690).

دفة الأمور، وغيَّرت مجرى الأحداث، نزل الإيمان قلبها فإذا بها تُحس أن فى عضلاتها القوة التى تهز دمشق هزًا، وفى حنجرتها الصوت الذى يُسمع الأموات، وفى قلبها العزم الذى لا يكل والمدد الذى لا ينقطع، والبأس الذى يفل الحديد ويدك الحصون.

جمعت النساء اللاتى حضرن يواسينها ويعزِّينها وقالت لهم: إننا لم نُخلق رجالا نحمل السيوف، ولكن إذا جبن الرجال لم نعجز نحن عن العمل، هذا والله شعرى، أثمن ما أملك، أنزل عنه أجعله قيدًا لفرس تقاتل فى سبيل الله، لعلى أحرِّك به هؤلاء الأموات.

وأخذت المقص فجَزَّت شعرها، وصنع النساء صنيعها، ثم جلسن يضفرنه لجما وقيودا الخيل المعركة الفاصلة، لا يضفرنه ليوم زفاف أو ليلة عرس، وأرسلن هذه القيود واللجم إلى خطيب الجامع الأموى **سبط ابن الجوزى**، فحمله إلى الجامع يوم الجمعة، وقعد فى المقصورة، وحبس هذه اللجم والقيود بين يديه، والدمع يترقرق من عينيه، ووجهه ممتقع شاحب، والناس يلحظون ذلك كله وينظر بعضهم إلى بعض، حتى قام وخطب خطبة حروفها من نار، تلذع أكباد من يسمعها وكلماتها سَجَر، فكانت إحدى المعجزات البلاغية التى يهدر بها كل عصر مرة لسان محدِّث، أو يمشى بها قلم ملهم، كرامة من الكرامات وواحدة من خوارق العادات، وإنما حفظ الرواة جملاً منها نقلوها إلى لسان الأرض، وكان مما حفظوا:

«يا من أمرهم دينهم بالجهاد حتى يفتحوا العالم ويهدوا البشر إلى دينهم، فقعدوا حتى فتح العدو بلادهم وفتنهم عن دينهم».

يا من باع أجدادهم نفوسهم من الله بأنّ لهم الجنة، وباعوا هم الجنة بأطماع نفوس صغيرة ولذائذ حياة ذليلة.

يا أيها الناس!

ما لكم نسيتم دينكم، وتركتم عزتكم، وقعدتم عن نصر الله فلم ينصركم، وحسبتم أن العزة للمشرك، وقد جعل الله العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

يا ويحكم.. أما يؤلمكم ويشجى نفوسكم مرأى عدو الله وعدوكم، يخطو على أرضكم التى سقاها بالدماء آباؤكم.. يذلكم ويتعبدكم.. وأنتم كنتم سادة الدنيا؟!

أما يهز قلوبكم وينمِّى حماستكم، أن إخوانًا لكم قد أحاط بهم العدو، وسامهم ألوان الخسف؟



أما فى البلد عربى؟! أما فى البلد مسلم؟! أما فى البلد إنسان؟!

العربى ينصر العربى، والمسلم يعين المسلم، والإنسان يرحم الإنسان . .

من لم يهب لنصرة فلسطين لا يكون عربياً ولا مسلمًا ولا إنسانًا . .

أفتأكلون وتشربون وتنعمون وإخوانكم هناك يتسربلون باللهب ويخوضون النار، وينامون على الجمر؟

يا أيها الناس : إنها قد دارت رحى الحرب، ونادى منادى الجهاد، وتفتحت أبواب السماء، فإن لم تكونوا من فرسان الحرب فأفسحوا الطريق للنساء يدرن رحاها، واذهبوا فخذوا المجامر والمكاحل . . يا نساءً بعمائم ولحى!!

أولا . . فإلى الخيول، وهاكم لجمها وقيودها، يا ناس . . أتدرون مم صنعت هذه اللجم وهذه القيود؟

لقد صنعها النساء من شعورهن، لأنهن لا يملكن شيئا غيرها يساعدن به فلسطين، هذه والله ضفائر المخدَّرات التى لم تكن تبصرها عين الشمس صيانة وحفظا، قطعنها لأن تاريخ الحب قد انتهى، وابتدأ تاريخ الحرب المقدسة . . الحرب فى سبيل الله ، وفى سبيل الأرض والعرض، فإذا لم تقدروا على الخيول تقيدونها بها، فخذوها فاجعلوها لكم ذوائب وضفائر، إنها من شعور النساء . . ألم يبق فى نفوسكم شعور؟!

وألقاها من فوق المنبر على رؤوس الناس وصرخ :

تصدّعى يا قبة النسر، وميدى يا عُمُد المسجد، وانقضى يا رجوم، لقد أضاع الرجال رجولتهم»[1] .

فصاح الناس صيحة ما سُمع مثلها، ووثبوا يطلبون الموت، فجاء النصر المبين على يد امرأة واحدة أيقظت أمة نائمة .



أقول لكم

إن إنتصار الإسلام اليوم لا يتم إلا بإيجاد نساء شبيهات **بميسون**، ورجال من أمثال

(1) قصص من التاريخ ص(143-145)- على الطنطاوى - ط المكتب الإسلامى، وهى خطبة من إنشاء الشيخ على رحمه الله تصور فيها ما قاله سبط ابن الجوزى وليست خطبة سبط ابن الجوزى نفسها كما أشار هو إلى ذلك فى آخر طبعة من طبعات الكتاب الصادرة عن دار المنارة بجدة .

سبط ابن الجوزى، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فإن قعدت الأمة عن تربية مثل هذه النماذج، والدعوة إلى إحيائها أثمت الأمة كل الأمة، فلتسرج جواد الدعوة إلى الله، فرب مُبلَّغ أوعى من سامع، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، والخير فى هذه الأمة إلى يوم القيامة لا ينضب معينه بإذن الله.

إن قعودنا عن الدعوة والتبليغ ما هو إلا رصاصة غادرة نوجهها إلى صدور إخواننا العارية، وإن إيثارنا تربية العيال وجمع الأموال على بذل الأوقات والبشارة والنذارة، لهو أعظم يد عون نقدمها لعدوهم، وإن اعتزالنا فى خلوات التعبد وإيثار السلامة عن غشيان الخلق والأخذ بنواصيهم إلى طريق الله، لهو بذور محنة جديدة نزرعها ليجنى لظاها إخواننا المعذبون.

فلننصر الله على أنفسنا، ولننصر إخواننا على شياطين الإنس والجن، ولنعمل قانون التغيير الإلهى على أنفسنا حتى يغير الله ما بنا.

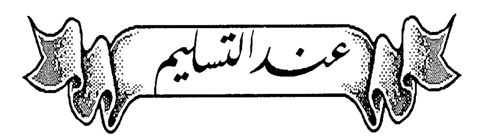
أخى..

كان هذا آخر سهم فى جعبتى وآخر كلمة فى حفيظتى، فإن قرأت هذه الكلمات وطويت هذه الصفحات دون أن تدب فيك حياة فلست بحى ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: 70].







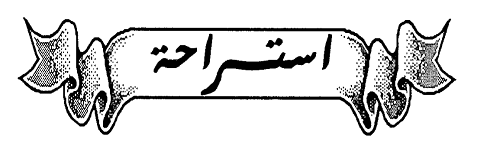


♥ قال **عبد الوهاب عزام:**

«كم من مُسبِّح أيقظ لسانه وأنام قلبه، وحرَّك بنانه وسكَّن لُبَّه، وكم مُصَلٍّ أطال الصلوات وهام من الغيِّ في فلوات، وكم من واعظ صقل بيانه وأغفل جَنانه، وكم من داعية ينصر قوله الفضائل ويُعجب فعله الرذائل، فلا وربك حتى يكون الفعل على اللسان رقيبا، والضمير على البيان حسيبا، وحتى تُظهر الجوارح ما تُكنُّ الجوانح، وحتى تكون عبادتك في قلبك ضياءً، وفي عزمك مضاءً، وفي نفسك أملاً، وفي كفِّك عملا» (1).



(1) النفحات ص(125).

* دعا **عبد الله بن جحش** رضي الله عنه فقال : «اللهم لقِّنى غداً عدواً جلداً أقاتله فيك، فيبقر بطنى ويجدع أنفى، حتى إذا سألتنى غداً : فيم ذلك؟ قلت : فيك يارب، فلما حلَّ المساء إذا أنفه وأذناه معلقتان فى خيط . .

لأن عقد المحبة عندهم فيه شرط يستوجب توقيعه بالدم، وهذا الشرط ساقط عندنا . . لسان حاله :

أجللت ذكركم عن أن يدنَّســـه … لون المداد فقد سطَّرته بدمــي
ولو قدرت على جفـــنى لأجعـــله … طِرسى وأبرى عظامى موضع القلم
لكـان هذا قليـــلاً فى محبتكــم … وما وجـــدت لـــه واللـــه من ألم

* بعض الناس يشترى النار لشغفه بها، ويطلب قربها لأنه يحبها، يتقلى بلهيبها لأنه يعشقه لسان حاله هو وأمثاله :

مسترسلين إلى الحتوف كأنما … بين الحـتوف وبينهم أرحام

* ليس كل ناعم حريراً، وما كل ما لمع بريق بذهب، من كل ألف صدفة تخرج لؤلؤة واحدة، ومن بين أسراب النحل تولد ملكة فريدة، الندرة رمز الغلاء، والوفرة علامة الرخص، فاعرف قدر نفسك جيداً أيها المؤمن وردِّد :

وهكذا كنت فى أهلى وفى وطنى … إن النفيــس غريـب حيثـما كانا

* مما جاء فى وصف النبى ﷺ أنه كان متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم فى غير حاجة، طويل السكوت، يتكلم بجوامع الكلم، لا فضول فيه ولا تقصير، ليس بالجافى ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم شيئاً، ولم يكن يذم ذُواقاً (طعاماً) ولا يمدحه، ولا يـُقام لغضبه إذا تُعُرِّض للحق بشىء حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها سماحة، وغير ذلك الكثير والكثير مما لا تسعه الصحف أو تجرى به الأقلام، ألم أقل لكم :



وعلى تفنن واصفيه بوصفه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

* إذا سقطت دموع الندم رفع أثر الزلل، وإذا بكى العبد خوفاً ضحكت الحور شوقاً، عيّ التائب أبلغ من ألف خطبة، ودموع الانكسار أرجى فى القبول من مائة عذر وعذر، إذا قست القلوب لم تجد الفصاحة شيئاً، وإذا لانت فالصمت أبلغ أحياناً من الخطب.

بليغ إذا يشكو إلى غيرها الهوى فإن هو لاقاها فغير بليغ

* كما تقترب الشمعة المضيئة من أختها المنطفئة فتضىء منها، كذلك تنجذب القلوب المريضة من القلوب السليمة فتضىء من هداها، وتمشى على أنوارها، كان الرجل إذا أحس قسوة فى قلبه ذهب إلى **محمد بن واسع**، فنظر إليه نظرة يعبد الله بها جمعة كاملة، ليحكى بعدها تفاصيل المقابلة قائلاً:

ودّعت إلفى وفى يدى يده مثل غريق به تمسّكتُ

فَرُحت عنه وراحتى عطرت كأننى بعده تمسّكتُ

* حمل **جعفر بن أبى طالب** رضي الله عنه الراية يوم مؤتة بيمينه فقطعت، فالتقطتها شماله قبل السقوط، فقطعت شماله فانتفض عضداه يقومان بالمهمة، إلى أن شقه أحد الأعداء نصفين، لأن جعفر يؤثر أن يسقط على أن تسقط الراية، ويحب أن يبلى على أن تبلى، ويختار الموت على أن يراها معفّرة فى التراب، مخاطباً دينه قائلاً له:

أنتَ لى بدرٌ فلا عشتُ إلى يوم مُحاقك

• قاعدة ربانية:

يُلبس الله كل إنسان فى العلانية الثوب الذى كان يرتديه فى السر، والتعليل: لما اجتمع الشيطان مع أعضاء حزبه ليلاً، مسح على وجوههم وطمس أنوار بصيرتهم وأطفأ أضواء فطرتهم، فلما طلع عليهم الصبح ظهرت فضيحة: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: 27]، ولما خلا الصالحون بالرحمن ليلاً ألبسهم من نوره لأن من أسمائه النور، ليظهر فى الصباح ما كانوا يخفون، فيهتدى بهم الحائرون، وأمثال هؤلاء يقولون:

قد كتمت حبك حتى عنك تكرمة حتى استوى فيه إسرارى وإعلانى

• **الجنة**.. أنشودة الصالحين على مر الزمان، وترنيمة المتقين يدندنون بها عبر الأجيال، عطرها النفاذ له عبيره الخاص وعبقه الذى لا يقاوم..

استنشقه **عمير بن الحمام** رضي الله عنه فلم يطق الانتظار.. رأى قطار الشهادة مسرعاً نحوها فخاف أن يفوته، فألقى بالتمرات من يده وركب فى أول قاطرة..

واستنشقه **عبد الله بن رواحة** رضي الله عنه يوم مؤتة، فانطلق يغنى لها: يا حبذا الجنة واقترابها، ثم جاد لها بدمه..

واستنشقه **سعد بن خيثمة** رضي الله عنه فى بدر، فما آثر بها أباه الذى رباه، لأن الجنة ليست مما يسرى عليه قانون الإيثار قائلاً: «والله لو كانت غير الجنة لآثرتك بها»..

الشوق غامر والحب جارف والصبر نفذ، فمتى نلقى الأحبة محمداً وصحبه؟

أرى البين يشكوه المحبون كلهم ... فيا رب قرِّب دار كل حبيب



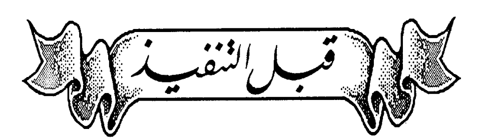


الصفقة العاشرة

وما أبرئ نفسي



من حاسب نفسه اليوم ربح ، ومن غفل عنها خسر ، ومن نظر في العواقب نجا ، ومن أطاع هواه ضل ، ومن علم عمل ومن عمل أبصر ، ومن أبصر اعتبر فعلم أن الفضل كله لله .



قبل التنفيذ

• الكمين الأخير:

حين غاب الثقات، وانتشر أصحاب النقائص والعورات . . ظن الأعمش أنه حاد البصر، وتصور الغراب أن نعيقه يُطرب، وتفاخر الأعرج بسرعة مشيه . . فشى فيهم جميعاً . .

داء العجب..

حين استغرق القومَ مشاهدةُ النعم وعميت بصائرهم عن المنعم، وشغلوا أنفسهم بالخلق عن الخالق، وغاب عنهم أنه ما أنعم عليهم إلا ليدلهم على نفسه، وما شملهم بفضله إلا ليسلكوا طريق شكره، ظهر فيهم . .

داء العجب..

حين أصبح أطباء القلوب عملة نادرة عم الوباء . . وكثر الهلكى، وصار أكثر الناس إصابة بهذا الداء أكثرهم غفلة عنه، وأبعدهم عنه أكثرهم خوفًا منه، أهلك الناس . .

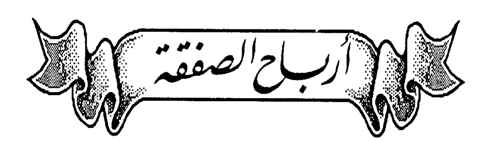
داء العجب..

حين أراد إبليس أن يؤمِّن مستقبل الإفساد، وأن يكون له وريث شرعي، وأنيس يملأ النار عليه أنسا، لم يجد بغيته كما وجدها فيمن استشرى فيهم . .

داء العجب..

حين عبر الإنسان قنطرة الكسل، فأدى ما افترضه ربه عليه، لجأ الشيطان إلى محاولة الإفساد الأخيرة، فنصب فخاً يبغي به نسف ما سلف، ونشر على وجه هذا الفخ بذور . .

داء العجب..



(1) سالك طريقهم وارد حوضهم:

اتهام النفس ومعاتبتها من أبرز سمات المؤمنين، آيتان من كتاب الله تعرضان هذا المعنى وتوضحاه غاية الإيضاح:

الأولى: ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: 18].

قال القشيري: «أخذ عنهم أنهم مع تهجدهم ومعاشهم، يُنزلون أنفسهم في الأسحار منزلة العاصين، فيستغفرون استصغاراً لقدرهم واستحقاراً لفعلهم» [1].

الثانية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: 60].

قال القشيري: «يُخلصون في الطاعات من غير إلمام بتقصير أو تعريج على أوطان الكسل، أو جنوح إلى الاسترواح بالرُّخَص، ثم يخافون كأنهم ألموا بالفواحش، ويلاحظون أحوالهم بعين الاستصغار والاستحقار، ويخافون بغتات التقدير وقضايا السخط، وكما قيل:

يتجنب الآثام ثم يخافها فكأنما حسناته آثام [2]

وانظروا إلى:

* مطرف بن عبد الله وبكر بن عبد الله المزني، وهما من هما في درجات الزهد والورع يقفان يوم عرفة، فيقول مطرف: «اللهم لا تردهم من أجلي»، ويقول أبو بكر: «ما أشرفه من مقام لولا أني فيهم» [3].

* وإبراهيم التيمي يُسأل: ما تقول يا فقيه في كذا؟، فيجيب: «إن زمانا صرت فيه أنا فقيهًا لزمان سوء» [4].

---

(1) لطائف الإشارات (3/463).
(2) لطائف الإشارات (2/579).
(3) المدهش ص(147).
(4) تنبيه المغترين ص(109).

* والحسن البصري يقول: «ليس لأمثالنا نوافل، إنما النوافل لمن كملت فرائضه»[1].

* والفضيل بن عياض يعاتب نفسه: «يا فضيل كنت في شبابك فاسقا، ثم صرت في كهولتك مرائيا، والله للفسق أهون من الرياء»[2].

* وعطاء السلمي كان إذا أصاب أهل بلد ريح أو غلاء أو فناء أو برء يقول: «كل هذا من أجل ذنوب عطاء، لو مات عطاء لاستراح الناس منه»[3].

هذا هو سبيل المؤمنين سبيل مطرف وبكر، هو نفسه سبيل التيمي والحسن، هو ذاته وجهة الفضيل وعطاء، مسحة واحدة وطبعة واحدة ونهج واحد، وقاطرة المؤمنين تنظم هؤلاء جميعا تربطهم بالنبي ﷺ المعلم القدوة الذي كان يقول: «لو يؤاخذني وابن مريم ربي بما جنت هاتان (يعني إصبعيه السبّابة والوسطى)، لعذبنا ولا يظلمنا شيئا»[4].

يا أخي.. من أراد اللحاق بالقافلة اتصف بصفاتها فأدرك أهلها، وإلا فما زالت وصية النبي ﷺ ترتج في آذاننا وآذان من أراد الرفقة دون دفع الأجرة:

قال ﷺ: «كما لا يُجتنى من الشوك العنب، كذلك لا ينزل الفجار منازل الأبرار، فاسلكوا أي طريق شئتم، فأي طريق سلكتم وردتم على أهله»[5].

(2) اتهام فارتقاء ففراديس:

ذلك أن الذي سلّمه الله من داء العجب، وعرف نفسه على حقيقتها سارع في إنقاذ نفسه، وفكاك رقبته، وتخليص جسده من عذاب الله، يعلم إنما هي أيام قلائل، فما على المرء لو وهب نفسه لله، لا تهدأ نفسه حتى يرى وجه الله الكريم، ويُبشَّر برضوان الله الذي لا سخط بعده أبدا..

موقن أنه إن (لم يكن في تقدم فهو متأخر ولابد، فالعبد سائر لا واقف، فإما إلى فوق، وإما إلى أسفل، إما إلى أمام، وإما إلى وراء، وليس في الطبيعة ولا في الشريعة وقوف ألبتة، وإنما يتخالفون في جهة السير، وفي السرعة والبطء ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥)

(1) تنبيه المغترين ص(104).
(2) تنبيه المغترين ص(112).
(3) تنبيه المغترين ص(112).
(4) رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة (132/8).
(5) رواه أبو نعيم عن زيد بن مرثد مرسلاً وحسنه الألباني في الصحيحة رقم (2046).

نَذِيراً لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: 37,36,35] [1].

(3) عبادة القلب أربح:

لاشك أن الإخبات والخشوع والإنابة والمعاتبة كلها عبادات قلبية، لا يطلع عليها أحد إلا الله، فلا يعلم ثقلها إلا هو سبحانه، ولعل مثقال ذرة منها ترجح أمثال الجبال من عبادة المغترين.

لذا قال الزاهد الواعظ **يحيى بن معاذ**: «كم من مستغفر ممقوت وساكت مرحوم، هذا استغفر الله وقلبه فاجر، وهذا سكت وقلبه ذاكر» [2].

وجزم **الرافعي** مرجحًا كفة خطوات القلب على خطوات الأقدام فقال:

«والخطوة التى تقطع مسافة قصيرة إلى القلب تقطع مسافة طويلة إلى السماء» [3].

كان **محمد بن واسع** صاحب بصيرة إيمانية ثاقبة، فرأى ندرة أصحاب الأعمال القلبية، فلم يغتر بالبهرج الكاذب، ولم يزغ بصره أمام الزيف، بل استشعر الوحشة وسط الزحام والغربة بين الأهل، فأخذ يسترجع وينادى على أصحابه يبكيهم ويقول: واصاحباه.. ذهب أصحابى، فيقال له: رحمك الله يا أبا عبد الله، أليس قد نشأ شباب يصومون النهار ويقومون الليل ويجاهدون فى سبيل الله؟!، فيقول: «بلى ولكن أخْ - وتفل - أفسدهم العُجب» [4].



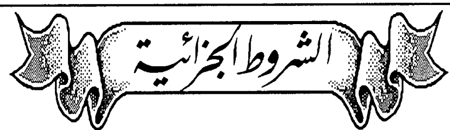
---

(1) تهذيب مدارج السالكين ص(243).

(2) صفة الصفوة (63/4).

(3) السحاب الأحمر ص(33) - مصطفى صادق الرافعي - ط دار الكتاب العربى.

(4) حلية الأولياء(352/2).



الشروط الجزائية

* ليت أثر العُجب وقف عند عدم قبول العمل ورده فحسب ـ مع هول هذه العقوبة ـ لكنه يتعدى ضرورة فيكون من أضراره أيضا :

(1) فقدان حلاوة الطاعة:

هذه أولى العقوبات وفاتحة النقم التى يجنيها المعجب ، كما نص على ذلك قانون **ابى سليمان الدارانى** :

«من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة» (1) .

ذلك أن طاعة الله إنما يذوق حلاوتها من انصرف إليها بالكلية ، فإذا التفت القلب إلى الغير تشتت الهم وتفرق الفكر وضاعت اللذة .

أردناكـم صـــرفا فلما مزجـــتم ... بَعُــدتُّم بقـــدر التفاتكـــم عنا
وقلنا لكم لا تُسكنوا القلب غيرنا ... فأسكنتم الأغيـار ما أنتـم مـــنا

وابن عطاء يهز هؤلاء الذين يزرعون الشوك ويرجون العنب ، ويغرسون الحنظل ويرقبون الشهد ، يهزهم هزًا خفيًا مخاطبًا أحدهم بقوله :

«متى طلبت عوضًا عن عمل طولبت بوجود الصدق فيه» (2) .

ومهما ادعى المعجب فهو كاذب فى دعواه ، تفضحه شهادة إمام الورع الصادق **يحيى بن معاذ** : «كل من ادعى درجة سقط منها» (3) .

فمن ادّعى أنه متواضع فهو متكبر ، ومن ادّعى أنه صادق فهو كاذب ، ومن ادعى أنه نقى فهو خبيث ، ومن ادعى أنه قانع فهو طامع ، ومن ادعى أنه مستقيم فهو مراوغ .

المخلص يترك أعماله تتكلم عنه ، فهى أصدق شاهد وأبلغ خطيب ، والمعجب سلاحه لسانه وعدته بيانه ، ولذا فأعماله تفضحه ، وريحه تفضحه ، وكلامه ولو لم يتكلم إلا بكلمة واحدة يفضحه . . ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: 30] .

(1) سير أعلام النبلاء(184/10) .
(2) حكم ابن عطاء ص (78) - ط دار الشعب .
(3) تنبيه المغترين ص(112) .



وما أجمل تشبيه الداعية الموفق **محمد أحمد الراشد**، حين قال فى ألفاظ جلية حوت معان خفية، وأوضح فى كلام قريب رمى هدفا بعيدا:

«ولقد شبّهوا المستكمل النقى ببدر تمام، كيف أنه استدار لم يتربع ولم يتطاول، فالبدر تمدحه الشعراء حتى امتلأت دواوينهم بوصف بهائه وهو صامت ساكن، يعلوه وقار الاطمئنان، إنه لن يغفل عن روعته أحد من ملتذ برؤيته فى صمت أيضا ومنبِّه اللسان، قالوا: أما الناقص المفضوح بفتوق لا رتق لها، فهو كالقمر حين يخسف بخرج عن سكينته وصمته، ويحتاج لضجيج الطبول، ومدائح الأطفال، ويستجيز حماسة العجائز، يهيب بهن أن ينكرن على حوت ابتلعه واعتدى على حقه وجماله» [1].

(2) تعبير يتبعه تغيير:

فى آخر طريق العجب تجد تعيير الخلق منتظرًا، يأبى إلا أن يصحب المعجب فى رحلته بعيدا عن الله، وها هو **الحسن البصرى** وريث النبوة يخبرنا عن مشاهدته وعصارة تجربته، فيقول: «كنا نُحدَّث أن من عيَّر أخاه بذنب قد تاب منه، ابتلاه الله عز وجل به» [2].

هذه عقوبة الله للمعجب المُدلّ بعمله، جزاءً وفاقًا ولا يظلم ربك أحدا، وتكاد تكون قانونًا لا يفلت منه أحد، حتى خافَ فقيه الأمة **عبد الله بن مسعود** على نفسه منه فقال:

«لو سخرت من كلب، لخشيت أن أكون كلبا» [3].

(3) صرعى الرياء:

إذا طال أثر العجب فى نفس المعجب دون علاج، أثمر ولاشك ثمرة شديدة المرارة تُسمى الرياء، ليجد الإنسان نفسه فى غير معمل، تعب فى الدنيا فى تحصيل رضا الناس، وعذاب فى الآخرة من عند رب الناس.

أعمال المعجبين حرث فى بحر.. زرع فى هواء.. وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل يكون لهم خزى افتتاح نيران جهنم، قارىء للقرآن ومجاهد ومنفق، جمعوا سوء كيلة مع حشف، حبوط عمل مع نار، خبث سريرة مع فساد باطن.

(1) العوائق ص(29-30) - محمد أحمد الراشد - ط دار المنطلق.
(2) الزهد ص(342) - أحمد بن حنبل - ط دار الريان للتراث.
(3) نزهة الفضلاء (197/1)- محمد بن حسين العقيل الشريف - ط دار الأندلس الخضراء.



لما خاف ابن عطاء عليك من هذا المصير أرشدك ناصحًا : «ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه، خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه» [1]

وليس أحد إلا وهو يُخشى عليه أن يهلك بهذا الداء، بل إن عبدة بن أبى لبابة يجزم أن (أقرب الناس من الرياء آمنهم له) [2]، وإن كان آمرًا بالمعروف ناطقًا بالحق دالاً عليه، بل كلما ارتقى المنابر كلما صارت رقبته عرضة لسيف العجب، وكلما سال مداد الكاتب على الصفحات يرسم الكلمات، كلما سالت مكائد الشيطان ترسم الصرعات، توشك أن توقعه إلا أن يتدارك الله برحمة وينقذ بتوفيق ويهدى لإنابة.

قيل لداود الطائى: أرأيت رجلا دخل على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر، قال: أخاف عليه السوط، قيل: إنه يقوى، قال: أخاف عليه السيف، قيل: إنه يقوى، قال: «أخاف عليه الداء الدفين.. العجب» [3].



(4) تكبَّر فكبِّروا عليه:

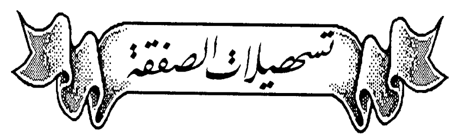
آخر طريق العجب.. الكبر، وآخر الكبر وأوله ووسطه حرمان دخول الجنة لقول النبى ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر» [4].

فمن أمات عجبه وأهلك حظ نفسه وأحيا قلبه وأيقظ عزمه، فقد قطع الطريق على شيطانه وهزمه، ومن ترك الداء يستشرى فيه، فقد أعطى لشيطانه زمام نفسه، وملَّكه منها، يسوقه فى أغلال العبودية إلى مسكن مجاور له فى سقر.

فاعرض نفسك يا أخى على نفسك، ولا تسمع لدعاوى الشيطان فإنها تورث الصمم عن سماع النصح، واعلم أنه (مادام العبد يظن أن فى الناس من هو شر منه فهو متكبر) [5].

ومن معانى الكبر احتقار الغير واستصغارهم، أجاب بذلك محمد بن صبيح الشهير بابن السماك واعظ الخلافة، لما سُئل عن حقيقة العجب فقال: «أن تتطاول على الناس بعملك فتحقر كل من رأيته مقصراً فى العمل» [6].

(1) حكم ابن عطاء ص(70) – ط دار الشعب.
(2) حلية الأولياء(113/6).
(3) صفة الصفوة(69/3).
(4) رواه مسلم عن عبد الله بن سلام كما فى ص ج ص رقم (7674).
(5) سير أعلام النبلاء (87/13)، والقول لأبى يزيد البسطامى.
(6) تنبيه المغرينص(109).



* قال ابن سمعون: «كل داء عُرف داوؤه فهو صغير، والذى لم يُعرف له دواء كبير»[1].

وداء العجب - إذا وُزن بهذا الميزان - داء صغير، قد عرفنا دواءه بفضل الله وتوفيقه وأرشدناك إليه فى قولنا:

(1) النظر فى مرآة السلف يفضح:

اقرأ معى هذه الأخبار لتقتل إعجابك بنفسك:

* أبو إسحاق السَّبيعى شيخ الكوفة وعالمها ومُحدِّثها لمَّا بلغ من العمر خمسا وتسعين عامًا قال: «ذهبت الصلاة منى وضعف ورق عظمى، إنى اليوم أقوم فى الصلاة فما أقرأ إلا البقرة وآل عمران»، ولما ضعف عن القيام كان لا يقدر أن يقوم إلى الصلاة حتى يُقام، فإذا أقاموه فاستتم قائمًا قرأ ألف آية وهو قائم[2].

* طلق بن حبيب يقول: «إنى لأحب أن أقوم لله حتى يشتكى ظهرى فيقوم فيبتدىء بالقرآن حتى يبلغ الحجر ثم يركع»[3] وكان - رحمه الله - لا يخرج إلى صلاة إلا تصدَّق بصدقة ويقول: «قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: 12]، فتقديم الصدقة بين يدى مناجاة الله أعظم وأعظم»[4].

* عبد الواحد بن زيد صلى الغداة بوضوء العتمة أربعين سنة[5].

(2) احمل وصية الحمال:

حمل بنان الحمال إليك هذه الوصية، وهى ثقيلة المعانى غزيرة الفوائد، فقال فى كلام ألبس بهاء الحكمة ونور المعرفة وشرف المعانى وجزالة اللفظ:

(1) صفة الصفوة ط (286/2).

(2) صفة الصفوة (51/3).

(3) صفة الصفوة (145/3).

(4) البداية والنهاية(107/5) - ط دار الكتب العلمية.

(5) صفة الصفوة (190/3).

«رؤية الأسباب على الدوام قاطعة عن مشاهدة المسبب» [1].

ويردد **عبد القادر الجيلاني** نفس معاني الحمال، في كلمات تحمل نفس النغمات وذات المذاق فيخاطبك منبها: «لا تنظر إلى الغلام الحمَّال للهدية، إنما النظر إلى الأستاذ المُنعم بها، قال الله تعالى في حق من عُدم هذا النظر ﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخره هم غافلون﴾ [الروم: 70]، فمن نظر إلى الظاهر والسبب ولم يجاوز علمه ومعرفته، فهو الجاهل الناقص قاصر العقل، إنما سُمِّي العاقل عاقلاً لنظره في العواقب» [2].

ورحم الله أبا حازم **سلمة بن الأعرج**، حين ربّت على كتف **محمد بن المنكدر** يوقظه من سنة غفلة ألمت به، قال **محمد بن المنكدر لأبي حازم**: «إن أكثر من يلقاني فيدعو لي بالخيَر ما أعرفهم، وما صنعت إليهم خيراً قط»، قال أبو حازم: لا تظن أن ذلك من عملك، ولكن انظر إلى الذي دلَّك من قبله فاشكره»، وقرأ الراوي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96] [3].

(3) جرعة من تواضع تشفي:



والتواضع الذي نعنيه (هي أن لا يلقى العبد أحداً من الناس إلا رأى له الفضل عليه ويقول: عسى أن يكون عند الله خيراً مني وأرفع درجة، فإن كان صغيراً قال: هذا لم يعص الله تعالى وأنا قد عصيت، وإن كان كبيرا قال: هذا عَبَدَ الله قبلي، وإن كان عالما قال: هذا أعطى ما لم أبلغ ونال ما لم أنل وعلم ما جهلت وهو يعمل بعلمه، وإن كان جاهلاً قال: هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم، ولا أدري بم يُختم لي وبم يُختم له، وإن كان كافراً قال: لا أدري عسى أن يُسلم فيُختم له بخير العمل وعسى أن أكفر فيُختم لي بسوء العمل) [4].

هذا ما حققه الصحابه في نفوسهم، مع أنهم أكرم الخلق على الله وخير قرون هذه الأمة، تجد **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه يأخذ بيد الصبي، فيجيء به ويقول له: «**ادعُ لي فإنك لم تذنب بعد**» [5].

---

(1) سير أعلام النبلاء (489/14).

(2) فتوح الغيب ص(61).

(3) الحلية (233/3).

(4) فتوح الغيب ص(195).

(5) سيرة ومناقب عمر بن الخطاب ص(143) - ط دار الفجر للتراث.

شرب **الإمام الشافعي** من جرعات التواضع، حتى ارتوى وروى واستفاد وأفاد وشُفى وشَفى، كان رحمه الله يزور **الإمام أحمد** مع أنه أستاذه، فعوتب في ذلك فقال:

قالوا يزورك أحمد وتزوره ... قلتُ: الفضائل لا تغادر منزله
إن زارني فبفضله أو زرتُه ... فلفضله فالفضل في الحالين له

ولذا عزَّ وبزَّ، وعلا وسما، وبلغت شهرته الآفاق، موجزًا حكايته:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تكُ كالدخان يعلو بنفسه ... إلى طبقات الجوِّ وهو وضيع

وأما من خالف نهجه ورفع سعره وزهي بنفسه حتى لكأن كسرى حامل متاعه، وقارون وزير نفقته، وبلقيس إحدى داياته، وكأن يوسف لم ينظر إلا بطلعته، ودواود لم ينطق إلا بنغمته، ولقمان لم يتكلم إلا بحكمته، والشمس لم تطلع إلا من جبينه، هذا نقول له:

مَثل المعجب في إعجابه ... مَثل الواقف في رأس الجبل
يبصر الناس صغارًا وهو ... في أعين الناس صغيرًا لم يزل

(4) خالف النفس:

قدَّم لكم **عبيد الله بن أبي جعفر** علاجًا فوريًا لهذا الداء فقال: «إذا كان المرء يُحدِّث في مجلس فأعجبه الحديث فليمسك، وإن كان ساكتًا فأعجبه السكوت فليتحدث»[1]، وذلك لأن النفس أمارة بالسوء إن دلَّت فعلى شر، فإن كان خيرًا فمقصودها تفويت طاعة أعظم أجًرا وأجزل مثوبة، وترجمة وصية عبيد الله إلى لغة الشعراء جاء فيها:

وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وإن هما محّضاك النصح فاتهم

ولذا جاء في كتاب تنبيه المغترين ـ وانتبه إلى اسم الكتاب ـ أن الراشد الخامس **عمر بن عبد العزيز** كان إذا خطب على المنبر فخاف العُجب قطع الكلام وعدل إلى غيره مما لا عُجب فيه، وإذا كتب كتابا فخاف العُجب فيه مزقه، وقال: «اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي»[2].

---

(1) سير أعلام النبلاء (10/6).
(2) تنبيه المغترين ص(109).

(5) خواتيم مقلقة:

قال زيد بن أسلم موصيًا ابنه:

«يا بنى . . لا ترى أنك خير من أحد يقول لا إله إلا الله، حتى تدخل الجنة ويدخل النار، فإذا دخلت الجنة ودخلت النار تبين لك أنك خير منه»[1].

هى وصية النبى ﷺ شرحها زيد ليس إلا، حيث قال ﷺ: «لا تُعجبوا بعمل عامل حتى تروا بم يُختم له»[2].

لذا أوصاك الصالحون: اجعل قدوتك فى الأموات، ومادام النبض جاريًا فلا تزال المعركة مستمرة، والقتال مستعر والحرب سجال، هل يضمن أحد أن يكون خير أعماله خواتيمها وخير أيامه يوم لقاء الله؟ ومن الذى يضمن أن الجولة الأخيرة ستكون له؟ وأن الضربة القاضية ستكون من نصيبه ولن تكون من نصيب إبليس، كما كان الحال مع عبده بن عبد الرحيم . . فما خبر هذا الرجل؟

قال عنه الإمام ابن الجوزى:

«كان من المجاهدين كثيرًا فى بلاد الروم، فلما كان فى بعض الغزوات والمسلمون محاصرو بلد من بلاد الروم، إذ نظر إلى امرأة من نساء الروم فى ذلك الحصن فهويها، فراسلها: ما السبيل إلى الوصول إليك؟ فقالت: أن تتنصر وتصعد إلىّ، فأجابها إلى ذلك، فما راع المسلمين إلا وهو عندها، فاغتم المسلمون بسبب ذلك غمًا شديدًا، وشق عليهم مشقة عظيمة، فلما كان بعد مدة مروا عليه وهو مع تلك المرأة فى ذلك الحصن، فقالوا: يا فلان، ما فعل قرآنك؟! ما فعل علمك؟! ما فعل صيامك؟! ماذا فعل جهادك؟! ما فعلت صلاتك؟!

فقال: اعلموا أنى أنسيت القرآن كله إلا قوله: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: 2-3]، وقد صار لى فيهم مال وولد»[3].

(1) حلية الأولياء (222/3).

(2) رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة كما فى ص ج ص رقم (7243).

(3) البداية والنهاية (64/11).



(6) الوصفة الثلاثية:

أخبرنا **الإمام الشافعى** فى كلمات منهن يُجتنى الدُّر :

«إذا خفت على عملك العجب فاذكر رضى من تطلب، وفى أى نعيم ترغب، ومن أى عقاب ترهب، فمن فكر فى ذلك صَغُر عنده عمله» (1).

(أ) رضى من تطلب:

ما قدرك أيها المعجب فى كون الله، اعرف قدر نفسك قبل أن تُغالى بسعرك فى ضوء هذه الأحاديث الثلاثة :

* قال رسول الله ﷺ : «ما السماوات السبع فى الكرسى إلا كدراهم سبعة ألقيت فى ترس» (2).

• لكن ما قدر السماوات السبع؟

قال **ابن مسعود**: «بين السماء الدنيا والتى تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسى خمسمائة عام، وبين الكرسى والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش لا يخفى عليه شىء من أعمالكم» (3).

• لكن ما نسبة العرش إلى الكرسى؟

قال النبى ﷺ : «ما الكرسى فى العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهرى فلاة من الأرض» (4).

تَعرَّف إلى الله عن طريق خلقه تعرف قدر هذا الكون العظيم، وتعلم قدرك فيه، وتوقن عندها أن عبادة الثقلين لا تكفى لتحصيل رضاه، إلا أن يمن الله عليك ويعفو، لا أن يحاسب ويعدل، وصدق من قال :

---

(1) سير أعلام النبلاء (42/10).

(2) رواه ابن جرير وابن أبى شيبة مرفوعا عن أبى ذر كما فى فتح المجيد ص(621)، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط.

(3) فتح المجيد ص(621).

(4) رواه ابن جرير وابن أبى شيبة مرفوعا عن أبى ذر كما فى العقيدة الطحاوية - تحقيق الألبانى ص(312).



ولو أن نفسا مُذ براهـــا مليكها ‏ ‏ ‏ ‏ فى سجدة قضت من أجله لقليل

قرَّب لك المعنى وبصَّرك بوزن نفسك سلمة بن دينار، فقال:

«اعلم أنك إذا مت لم ترفع الأسواق بموتك، إن شأنك صغير فاعرف نفسك»[1].

(ب) أى نعيم ترغب؟

المعجب باع كل شيء بلا شيء واشترى لا شيء بكل شيء، فى الجنة موضع سوط أحدكم خير من الدنيا وما فيها، وخمار الحورية على رأسها خير من الدنيا وما فيها، أى أن الدنيا كلها لا تصلح أن تكون ثمنا لشبر واحد فى الجنة أو خمار لإحدى الحور، فكيف يظن معجب أن عبادته تصلح للجنة ثمنًا؟! أيها المعجب نقول لك أعظمت المهر وأسأت الخطبة، ضع يدك فى جيب عملك لتحسب ما معك من طاعات، يرتد إليك البصر خاسئا وهو حسير.

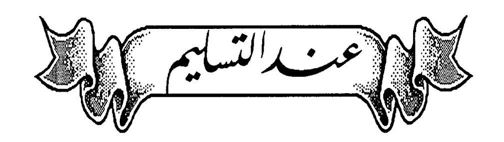
(ج) من أى عقاب ترهب؟

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: 36].

وذلك حين يرون العقاب وشدته، والعذاب وروعته، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيصبح الموت أمنية، ولا عجب أن تصبح مجرد النجاة من هذا الهول أغلى من ضعف كنوز الأرض جميعها.



(1) حلية الأولياء (232/3).



قيل للحسن: إن فلانًا لا يعظ ويقول: أخاف أن أقول ما لا أفعل، فقال الحسن: وأينا يفعل ما يقول؟! ودّ الشيطان لو ظفر بهذا، فلم يُؤمر بمعروف ولم يُنْه عن منكر [1].

لئن لم يعظ العاصين من هو مذنب فمن يعظ العاصين بعد محمد

(1) لطائف المعارف ص50- ابن رجب الحنبلي.



كشــــاف الصفحات

أولاً: التفسير:

* تفسير القرآن العظيم .... الحافظ ابن كثير
* بصائر ذوي التمييز .... النيروز آبادي
* لطائف الإشارات .... القشيري

ثانياً: الحديث الشريف وشروحه:

* صحيح الجامع الصغير .... الألباني
* السلسلة الصحيحة. .... الألباني
* صحيح الترغيب والترهيب .... الألباني
* مختصر صحيح مسلم .... الألباني
* مشكاة المصابيح .... الألباني
* اللؤلؤ والمرجان .... محمد فؤاد عبد الباقي
* شرح النووي لصحيح مسلم .... النووي
* فيض القدير .... المناوي
* فتح الباري .... ابن حجر العسقلاني
* المختار من كنوز السنة .... محمد عبد الله دراز

ثالثاً: الرقائق والأخلاق

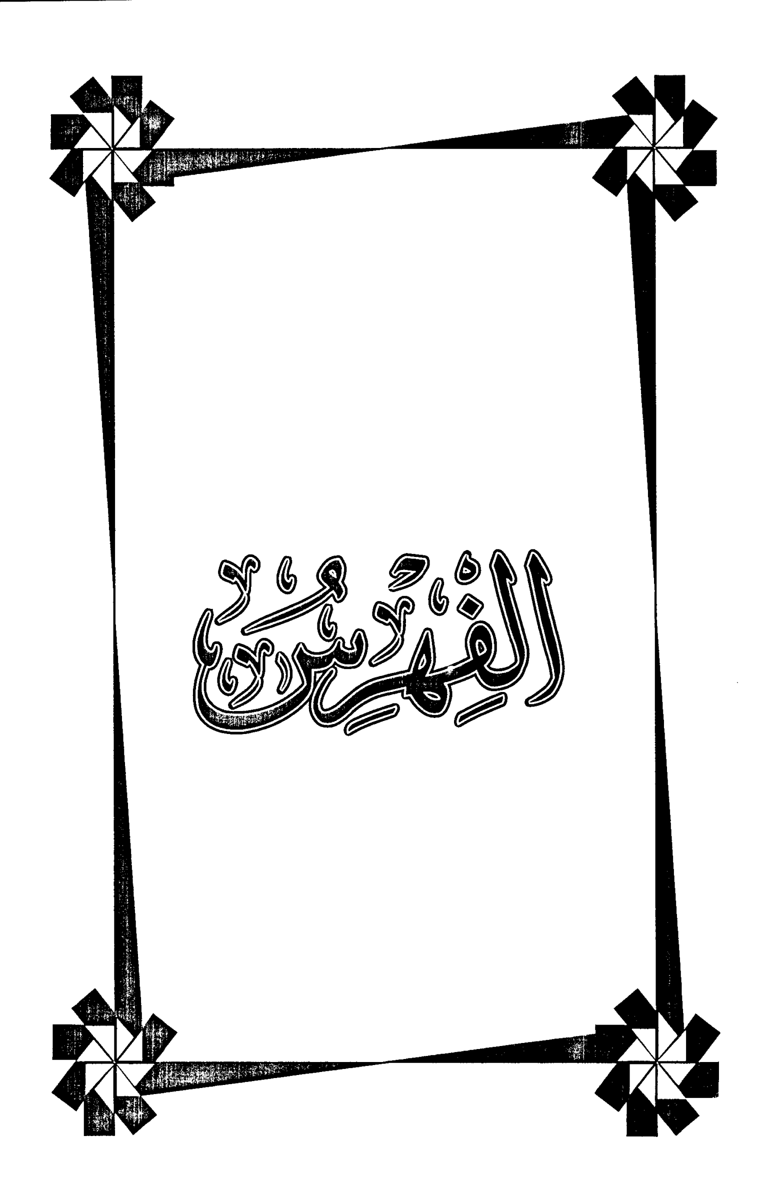
* إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان .... ابن قيم الجوزية
* الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية .... ابن قيم الجوزية
* الفوائد .... ابن قيم الجوزية
* حادي الأرواح إلي بلاد الأفراح .... ان قيم الجوزية
* الوابل الصيب من الكلم الطيب .... ابن قيم الجوزية
* زاد المعاد .... ابن قيم الجوزية
* تهذيب مدارج السالكين .... عبد المنعم صالح
* ذم الهوي .... ابناجوزي

* المدهش	ابن الجوزي
* اللطائف	ابن الجوزي
* الياقوتة	ابن الجوزي
* التبصرة	ابن الجوزي
* التذكرة في الوعظ	ابن الجوزي
بحر الدموع	ابن الجوزي
صيد الخاطر	ابن الجوزي
بستان الواعظين ورياض السامعين	ابن الجوزي
منهاج العابدين	أبو حامد الغزالي
إحياء علوم الدين	أبو حامد الغزالي
رسالة المسترشدين	الحارث المحاسبي
قيمة الزمن عند المسلمين	عبد الفتاح أبو عزة
التوبة	الحارث المحاسبي
لطائف المعارف	ابن رجب الحنبلي
الزهد	عبد الله بن المبارك
شرح حكم ابن عطاء	ابن عباد النفري الزندي
مكاشفة القلوب	أبو حامد الغزالي
قوت القلوب	أبو طالب المكي
الفتح الرباني	عبد القادر الجيلاني
الزهد	أحمد بن حنبل
المستطرف في كل فن مستظرف	الأبشيهي
الرسالة القشيرية	القشيري
كتاب التوابين	ابن قدامة المقدسي
كتاب مجابي الدعوة	أبو بكر بن أبي الدنيا
تحفة الذاكرين	الشوكاني
رهبان الليل	سيد العفاني
تنبيه المغترين	الشعراني

الفرج بعد الشدة .... جلال الدين السيوطي
الصلاة والتهجد .... ابن الخراط
قضاء الحوائج .... أبو بكر بن أبي الدنيا
الجزاء من جنس العمل .... سيد العفاني
رابعاً: الأدب:
* وحي القلم .... مصطفي صادق الرافعي
* كتاب المساكين .... مصطفي صادق الرافعي
* النفحات .... عبد الوهاب عزام
* الشكوي والعتاب .... الثعالبي
خامساً: التاريخ:
* البداية والنهاية .... الحافظ بن كثير
* تاريخ دمشق .... الحافظ بن عساكر
سادساً: السير والأعلام:
* سير أعلام النبلاء .... شمس الدين الذهبي
* صفة الصفوة .... ابن الجوزي
* حلية الولياء .... أبو نعيم الصفهاني
* سيرة عمر بن عبد العزيز .... ابن عبد الحكم
* مناقب الإمام أحمد .... ابن الجوزي
* ذكر النسوات المتعبدات الصوفيات .... أبو عبد الرحمن السلمي
* وقفات مع الأبرار .... محمد لطفي الصباغ
* نزهة الفضلاء .... محمد حسن العقيل الشريف






الفهرس



فهرس الصفقات

